

T
HU
-
HA
AL-A

P
75
·
18
V
C



New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
<http://library.nyu.edu>
Circulation policies
<http://library.nyu.edu/about>

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

BOBST LIBRARY MAY 11 2009 RETURNED CIRCULATION		

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE







طه حسين

حَدِيثُ الْأَرْبَعَاءِ

٢

مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

6670,2

Tāhā Husayn,

Cultivator ARABIC

(2)

$\frac{x/3}{3}$

Hadith al-Arba^عā^د,

طه حسين

حَدِيثُ الْأَرْبَعَاءِ

٢



مركز الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

JUL 7 1983

PJ
7510
T29
1952
v.2
c.1

~~PJ
7864
A35n
1952
v.2
c.1~~

~~PJ
7864
A35
1952
v.2
c.1~~

القدماء والمحدثون^(١)

الجهاد بين القديم والحديد - مصدره ونتائج في فروع
الحياة المختلفة - مظهر في الحياة الأدبية - آثاره العظيمة
في الأدب اليوناني ، وآثاره الضئيلة في الأدب العربي .

لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم ، التي كان لها نصيب من الأدب وحظ
في إتقان القول وإجادته ، من هذه المسألة « مسألة القدماء والمحدثين » ولم
تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم ، إلا أحدثت
خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً ، وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية
أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين
مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ
الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ،
ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثمرها تغير
الأحوال وتبدل الظروف .

كذلك كانت الحال قديماً ، وكذلك كانت الحال في هذا العصر الذي
نعيش فيه . وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على
الأدب وحده ، وإنما هو يتناول كل شيء ، يتناول الفن والعلم ، ويتناول
الفلسفة ، ويتناول الحياة نفسها في فروعها المختلفة المادية ، والسياسية والاجتماعية .
وذلك معقول ، لأن الحياة الإنسانية كما قلنا غير مرة ، تقوم على أصلين
لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية
أخرى .

فنحن بحكم البقاء وحاجتنا إليه ، مضطرون إلى أن نصل بين أمس واليوم
والغد ، مضطرون إلى أن نصل بين القديم والحديد ، مضطرون إلى أن نشعر

(١) نشرت بجمريدة السياسة في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ هـ ، ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

بأن حياتنا الآن هي إن لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوى من آثارها ، ونتيجة لازمة من نتائجها .

ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغير أمسنا ، وبأن حياتنا الآن إن أشبهت حياتنا أمس من وجه أو وجهين فهي تغايرها من وجوه .

وإذن فنحن بين الشعور بالبقاء والحاجة إليه ، وبين الشعور بالتطور والحاجة إليه ، مترددون في ميولنا وأهوائنا وآرائنا . فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه ، حتى تصبح غايته الحقيقة ألا يكون إلا ابن أمسه ، وإلا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا تعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهي سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالحديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر إلا في شيء واحد ، هو أن يعدو ، وأن يعدو ما استطاع إلى الأمام ، دون أن يقف فيفكر في حاضره ، أو أن يلتفت فينظر إلى ماضيه .

ويشند الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين في نصره ، وأشباع الحديد الغلاة في التشيع له : يشند هذا الخلاف ويعظم ، حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولبقاء ، وإنما هي محققة لذين الأصليين تحقيقاً طبيعياً غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم ، فتتوسط بينهما ، ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة ، والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد للصحة المنتجة بين القديم وبين الحديث .

نجد هذه النظرية في كل ضرب من ضروب الحياة العامة ، عقلية كانت أو شعورية ، سياسية كانت أو اجتماعية ، وهي منتجة نتائج تختلف قوة وضعفاً باختلاف موضوعاتها . فأما نتائجها في الحياة الأدبية فهينة سهلة محتملة لا تتجاوز الخصومات اللفظية لإقليلاً ، وكذلك الحال في الحياة العقلية الفلسفية . فأما في العلم فانتصار الحديد يسير محقق ، لا خوف عليه ولا شك فيه ؛

لأن العلم قد أصبح أقل الأشياء الإنسانية استعداداً للخلاف والمناقضات .
ولكن هذه النظرية إذا ظهرت في الحياة الاجتماعية والسياسية أنتجت
في أكثر الأحيان أقبح الآثار وأسوأها ؛ لأن الحياة الاجتماعية والسياسية هما
أشد ضروب الحياة ميسساً بالمنافع على اختلافها والمصالح على تباينها ، والإنسان
بطبيعته عبد لمنفعته ، يبذل فيها حياته طيب النفس قرير العين . ومن هنا
لم نعلم أن خلافاً أدبياً في أسلوب الشعر والنثر ، أو أن خلافاً في نظرية من
نظريات الفلسفة ، أو أصل من أصول العلم ، أحدث ثورة سفكت فيها
الدماء ، وأزهقت فيها النفوس ، واحتل لها نظام الأمن ، في حين كان الاختلاف
في تقسيم الثروة ، أو في نظام الحكم - وسيظل دائماً - مصدر هذه
الثورات التي أشرنا إليها .

وما لنا نذهب بعيداً ، ونحن لا نعلم أن شاعراً قتل شاعراً آخر لأنه يخالفه
في الوجهة الشعرية ، أو أن فيلسوفاً قتل فيلسوفاً آخر لأنه يخالفه في أصل من
أصول الفلسفة ، لا نعلم شيئاً من هذا ، ولكننا نعلم أن الفرد قد يقتل الفرد ،
وأن الجماعة قد تعلن الحرب على الجماعة ، لخلاف مصدره السياسة أو مصدره
المال .

لا تذكر لي الخلافات الدينية التي أحدثت الثورات وضروب الاضطهاد ،
فما أحدثت هذه الثورات من حيث إنها اختلافات في الحياة العقلية أو الأدبية
أو الفنية الخالصة ، وإنما أحدثتها من حيث إنها اختلافات في ضروب الحياة
الاجتماعية والسياسية نفسها .

ستقول لي : ولكن الاختلاف في السياسة والاقتصاد وما إليهما من نظم
الحكم وتقسيم الثروة ، إنما هو أثر من آثار هذه الحياة العقلية والأدبية والفنية .
وليس في هذا شك ؛ فإن سلسلة الحياة متصلبة على اختلاف حلقاتها . ولسنا
نزعم أن الحياة الأدبية مصدر الخير الخالص ، وإنما نزعم أن هذه الحياة أشد
ضروب الحياة الإنسانية براءة من العنف والظلم والشر ، لأنها تكاد تنحصر في
الكلام دون أن تمس الحكم ودون أن تمس المال .

إذن فالخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، يشتد الجهاد
بين أولئك وهؤلاء حتى يتم انتصار الحديد فيصبح هذا الحديد قديماً ويظهر
جديد آخر يحاربه .

ولعل من ألد أنواع الجهاد بين القديم والحديد ، وأحبها إلى النفس ، هذا الجهاد الذى يقع بين الشعراء والكتّاب فى عصورهم المختلفة . هذا الجهاد لذيد لأنه برىء ، ولذيد لأنه يمثل الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية ، أحدهما قد أخذ يضمحل وينمحي ، والآخر قد أخذ يظهر ويقوى . ولقد قلنا فى أول هذا الفصل إن الأمم التى لها حظ من الحياة الأدبية قد عرفت كلها هذا الخلاف بين القدماء والحديثين ، ولكننا مضطرون إلى أن نلاحظ أن نفس هذا الخلاف بين القدماء والحديثين يتفاوت تفاوتاً عظيماً باختلاف الأمم والأجيال ، فهو منتج جداً فى أمة من الأمم ، عقيم جداً فى أمة أخرى ، معتدل الإنتاج فى أمة ثالثة . ثم إن نوعه نفسه يختلف باختلاف هذه الأمم والأجيال ، فقد يختلف القدماء والحديثون فى الألفاظ ، وقد يختلفون فى المعانى ، وقد يختلفون فى الألفاظ والمعانى ، وقد يختلفون فى الأنواع الفنية نفسها ، فتظهر الحياة الأدبية فى هذا العصر فى صور ومظاهر جديدة لم تألفها العصور الأولى ولم تعرف من أمرها شيئاً .

انظر إلى الأمة اليونانية مثلاً وإلى الشعر ، تجد أن تطورها لم يستتبع تطور الشعر فى لفظه ومعناه فحسب ، وإنما استتبع تطوره فى نوعه أيضاً . فكان الشعر القصصى مظهر الشعور اليونانى أيام بداوة الأمة اليونانية وبدء تحضرها ، فلما عظم حظها من الحضارة المادية ، وأخذ عقلها فى التفكير ، وذوقت لذة الرف والثروة ، كان الشعر الغنائى مظهر شعورها ، فلما قوى نصيبها من الحضارة ، وتأسست فيها المدن المختلفة ذات النظم السياسية والاجتماعية المعقدة ، وأخذت الفلسفة تظهر وتبسط سلطانها ، كان الشعر التمثيلى مظهر شعورها .

فالخلاف بين القدماء والحديثين عند الأمة اليونانية كان عظيماً معقداً مختلف المناحى ، لأنه كان يتناول اللفظ والمعنى والأسلوب والصورة والنوع والموضوع ، فى حين كان عند الأمة العربية ضيقاً محصوراً لا يكاد ينتج شيئاً ، لأنه لا يتناول إلا اللفظ ، وقد يتناول المعانى فى عصر من العصور ، هو أول العصر العباسى ، ذلك أن الخلاف قد وقع بالفعل فى أواخر القرن الأول ، وأوائل القرن الثانى للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهاً شعر جرير ، لأن هذا « المولد » كان مجيداً . ثم ظهر

الخلاف في منتصف القرن الثاني بين أنصار العرب جاهليين وإسلاميين وأنصار المحدثين ، أى ظهر الخلاف بين بشار وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من الأدباء ، وبين امرئ القيس وتلاميذه ومن كان ينتصر لهم من أئمة اللغة ورواة الشعر . ثم ظهر الخلاف في القرن الثالث بين الذين كانوا ينتصرون للبحرئى وأبى تمام ، والذين كانوا ينتصرون لأبى نواس ومسلم . ثم ظهر الخلاف في القرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبئ ، والذين كانوا ينتصرون لأبى تمام .

فأنت ترى أن كل هذا العصر الأدبى الذهبى عند العرب كان مملوءاً بالاختلاف بين القدماء والمحدثين ، وليس عليك إلا أن تنظر في كتب الأدب على اختلافها ، لترى هذا المقدار الوفور من الكلام الكثير الذى قيل وقيل في الانتصار للشعراء ، وتفضيل بعضهم على بعض ، سواء منهم أبناء الجيل الواحد والذين اختلفوا جيلاً وعصراً . ولكن أريد أن أعلم فيم كان الاختلاف عند العرب بين القدماء والمحدثين ، وما نتاجه الكبرى ؟ .

الحق أنى أكاد أعلم ذلك ، فقد كان الخلاف قبل كل شئ في اللفظ ، ثم في المعنى ، ثم لم يتجاوز هذين الأمرين .

كان القدماء والمحدثون أيام بنى أمية يختلفون في اللفظ اختلافاً ظاهراً ، وكانوا يتخذون اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلمة قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلمة كان رصيناً يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيداً ، أى إن جزالة اللفظ ، وشدة القرب بينه وبين ألفاظ البادية في العصر الجاهلى كانت هى المزية الأولى للشاعر ، ثم تأتى بعد ذلك جودة المعنى والتعمق فيه .

ثم ظهر هذا الخلاف بعينه في أول العصر العباسى ؛ فاختلف الشعراء العباسيون ، واختلف معهم الأدباء واللغويون في أى الشعرين أجمل وأرقى وأحسن : الشعر الذى يحتذى شعراء الجاهلية والإسلام في متانة اللفظ ورسانته وبدأوته ، أم الشعر الذى يتخير الألفاظ السهلة العذبة التى ألفها الناس عامة ، لا علماء اللغة خاصة ؟

وظهر إلى جانب هذا خلاف آخر في المعنى فاختلف الشعراء في معانى الشعر : أتبقى كما كانت بدوية أعرابية ، أم تتحضر كما تحضر الناس ؟ أتصف الأطلال والحيام والصحراء والإبل والحيل والسلاح ، أم تعدل عن هذا كاه

إلى القصور والأنهار والرياض والمدن ؟ ثم أتناول الشعور الإنساني فتصفه لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما كان يشعر به الأعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضريّة والمستطرفات التي لم يعهدها الأعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والأجداد ؟

ظهر هذا الخلاف ، وكان أشد أنواع الخلاف إنتاجاً وأكثرها خصباً ، لأن أنصار الحديد - وعلى رأسهم أبو نواس - أقدموا غير خائفين ولا وجلين ، فوصفوا لنا الحياة الجديدة دقيقتها وجليلها ، مفصلها ومجملها ، فجددوا الشعر من ناحية ، ونفعوا التاريخ من ناحية أخرى . وكان هذا كل ما عرف العرب من اختلاف في الشعر بين القدماء والحديثين :

اختلاف في اللفظ نشأت عنه مدرسة مسلم بن الوليد التي أخرجت أبا تمام والمنتبي وأمثالهما من أصحاب البديع ، واختلاف في المعنى نشأت عنه مدرسة أبي نواس التي أخرجت البحترى وغيره من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد ، ولم يتكلفوا بديعاً ولا استعارة ولا جناساً .

هذا كل ما عرف أهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والحديثين وهذا كل ما أنتجه الخلاف ، وهو على خطره ليس بالشيء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغيراً قليلاً جداً . بقيت القصيدة كما كانت معتمدة على وحدة القافية والوزن غير معنية بوجود المعنى ، وبقي موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء وثناء ووصفاً وغزلاً ، وإنما تجددت هذه الموضوعات دون أن تتغير ، ولم يكن تجدها جوهرياً ولا مطرداً ، وإنما هو التجدد الذي يكفي ليشعرك بالفرق بين العصر القديم والعصر الجديد ، وقد مضت القرون وتعاقت ، والشعر العربي في لفظه ومعناه وصورته وموضوعه كما كان قديماً ، لم ينله من التغير والتطور إلا هذا المقدار الضئيل الذي أشرنا إليه .

ولقد يكون من الخير أن نعرف العلة ، وأن نتبين الأسباب القوية التي أكرهت الشعر العربي المحافظ على أن يتطور قليلاً ، ولعلنا نستطيع أن نحدثك عن ذلك في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

رأينا في الأسبوع الماضي أن الآداب العربية ، قد أخذت بحظها من هذه الظاهرة العامة التي تشترك فيها الآداب الحية جميعاً : ظاهرة الخلاف بين القدماء والمحدثين ، ورأينا أن حظ الآداب العربية من هذا الخلاف على عظمه وكثرة الكلام فيه ، لم ينتج لهذه الآداب شيئاً كثيراً في الشعر على أقل تقدير ، وسنعرض للنثر في غير هذا الفصل .

لم ينتج شيئاً كثيراً ، فظل موضوع الشعر كما كان ، لا يكاد يتجاوز المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف وما يتصل بهذه الموضوعات ، وظل شكل الشعر كما كان ، لم يخترع فيه شكل جديد ، ولم تصف إليه صورة طريفة ، وإنما بقيت القصيدة مظهراً للشعر محتفظة بأوزانها وقوافيها .

وإذن فلم يحدث تطور الأمة العربية ولا اشتداد الخلاف بين القدماء والمحدثين شيئاً ذا خطر في موضوع الشعر أو شكله كما يقول أهل القانون ، وإنما أحدث شيئاً جديداً في لفظ الشعر ومعناه كما قلنا في الفصل الماضي ، وربما اضطربنا إلى أن نقول اليوم أيضاً إن هذا الشيء الجديد كان أقل جدداً مما كنا ننتظره ؛ فإن الحياة العربية تطورت في القرن الأول والثاني للهجرة تطوراً يوشك أن يكون كاملاً ، بل قد لا نخشى الغلو إن قلنا إن هذه الحياة العربية تبدلت في هذين القرنين تبدلاً تاماً ؛ فكان من المعقول أن يتحقق التناسب الصحيح بين هذه الحياة الجديدة وبين الآداب ، فتجدد هذه الآداب كما تجددت الحياة نفسها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فبينما كانت الحياة في بغداد أبعد ما تكون عن الحياة في صحراء جزيرة العرب من كل وجه ، كان الشعر الذي ينشد في بغداد شديد القرب جداً من الشعر الذي كان ينشد في تلك الصحراء . وإذن فنحن بلزاء ظاهرتين لا بد من تفسيرهما : الأولى أن الحياة العربية

(١) نشرت بالسياسة في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤١ - ١٣ - ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

قد تطورت تطوراً كاملاً ، وأن الشعر العربي قد تطور معها تطوراً ما . والأخرى أن تطور الشعر لم يكن مناسباً لتطور الحياة في جميع فروعها .

وربما لم يكن من العسير جداً تفسير هاتين الظاهرتين ، ذلك أن الأمة العربية قد خضعت خصوصاً تماماً لمؤثرين مختلفين اختلافاً تاماً ؛ فبينما كان أحدهما يدفعها دفعاً قوياً إلى الأمام فتندفع ، كان الآخر يجذبها جذباً قوياً إلى الوراء فتتنجذب . كانت تندفع إلى الأمام اندفاعاً قوياً في الحضارة المادية ، يمثل قوته هذا الفرق الظاهر بين قصور بغداد وحداثتها ورياضها ، وما تشتمل عليه هذه القصور والحداثات والرياض من مظاهر الحضارة وأدواتها وبين خيام الصحراء وما كانت تحتوى من مظاهر العيش الحشن والحياة الساذجة . وكانت تنجذب إلى الوراء بحكم الدين وبحكم اللغة التي لم تكن كغيرها من اللغات وإنما كانت لغة دينية ، فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة ، واجب ديني لا سبيل إلى جحوده أو التقصير فيه .

إذن فقد كانت الحضارة المادية تدفع العرب إلى الأمام ، وكانت حياة الدين تجذبهم إلى الوراء ، وكان العقل العربي بطبيعة الحال موضوع الجهاد بين هذين المؤثرين المختلفين فكان يتقدم سريعاً إلى حيث لا يكون تقدمه مصدر شر على الدين أو لغة الدين ، وكان يببط في حركته حين يكون التقدم خطراً على هذه أو ذلك .

ومن هنا كان التناقض ظاهراً بين حياة العرب المادية في تفصيلها وبين حياتهم الأدبية في إجمالها ، فكانوا أحراراً في الحياة المادية ، محافظين في الحياة الأدبية .

وكان الشعراء الذين يجرون على أن ينكروا هذه المحافظة ، ويحاولون تحرير الشعر قليلاً أو كثيراً ، موضع سخط شديد من طائفة من الناس ليست قليلة الخطر ، ولا ضئيلة الأثر في الحياة العامة . كان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حراس على القديم ، أعداء لكل جديد ، وكان هؤلاء الشعراء يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية ، مضطرون إلى أن يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولها فحسب ، بل بألفاظها وأساليبها أيضاً ؛

فكانوا يكرهون كل لفظ دخيل ، وينفرون من كل أسلوب مستطرف . وكانت طائفة غير قليلة من عامة الناس وسوادهم تخضع لأولئك وهؤلاء فيما لا يضرها ولا يؤذيها ، فتستمتع بالحياة المادية ما استطاعت غير سامعة لنهي الفقهاء والوعاظ ، ولكنها تحرص على الاحتفاظ بالسنن الموروثة والعادات القديمة فيما لا يمس الأكل والشرب واللباس والزينة وما إلى هذا من ضروب الحضارة ؛ أضف إلى هذا كله ، أن الأمة العربية بفطرتها حريصة على سننها القديمة ، محتفظة بما ورثت عن آبائها من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ، وأن الآداب العربية القديمة في نفسها جذابة خلابة محببة إلى النفوس مستأثرة بالقلوب ؛ فكان من المعقول أن يتأثر الشعر بهذا كله ، وأن يكون موقف الشعراء المجددين ، كموقف الفلاسفة المجددين ، ثقيلًا شديد الحرج ، وأن يتعرض أولئك وهؤلاء للحبس والضرب والنفي وغير ذلك من ضروب الاضطهاد وألوان العذاب .

ومن الغريب أن هؤلاء الشعراء والفلاسفة الذين كانوا يلقون في العصر العباسي ضروباً من المحن تختلف قوة وضعفاً باختلاف الخلفاء والوزراء ، كانوا محبيين إلى هؤلاء الخلفاء والوزراء ، فكثير من هؤلاء الخلفاء ، والوزراء كان يحب شعر بشار ويلذ لشعر أبي نواس ، ومع ذلك فقد ضرب بشار ، حتى مات ، وحبس أبو نواس في عصر الرشيد كما حبس في عصر الأمين ، ولو أدركه المأمون لقتله ، مع أن إعجاب المأمون بأبي نواس كان شديداً جداً .

ومصدر هذا التناقض في سيرة الخلفاء والوزراء مع الشعراء والفلاسفة أن هؤلاء الخلفاء ومشيرهم كانوا يحبون حياتين مختلفتين : حياة للشعب يحتفظون فيها بجلال الدين ومجده وعظمة الخلافة وقوتها السياسية ، فهم من هذه الناحية محافظون ؛ وحياة لأنفسهم ، وتخلصاً منهم في القصور ومن وراء الحجب ، يتركون فيها لأنفسهم حريتها الفطرية ، فيلهون ويلعبون وينادمون ويشربون ويقتربون ضروباً من الآثام .

أضف إلى هذين المظهرين المتناقضين من حياة الخلفاء وكبار الدولة ، أن حياة الشعراء والمفكرين لم تكن حياة شعر وتفكير فحسب ، وإنما كانت تختلط بالمشاكل السياسية وما تستلزمه هذه المشاكل من الكيد والدسائس ؛ فكان الشاعر أو المفكر لا يُفْتَنُ لأنه شاعر أو مفكر فحسب ، بل قد يفتن أيضاً ؛

لأنه يرى رأياً سياسياً لا يراه السلطان ؛ لأنه من أنصار البرامكة أو من أنصار الفضل بن سهل أو الفضل بن الربيع ، أو لأنه يرى رأى العلويين ، أو لأنه يؤثر الفرس على العرب ، إلى آخر هذه المسائل الكثيرة التي نشأت عنها ضروب من المحن أصابت الشعراء والفقهاء والفلاسفة والمفكرين .

كل هذه الأسباب جعلت تطور الأدب عامة - والشعر خاصة - بطيئاً قليل الإنتاج ؛ ولكن هناك سبباً نعتقد أنه هو السبب الأساسى الذى حال بين الشعر العربى وبين ما كان ينتظر له من التجدد ، هذا السبب هو أن الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر ، ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جداً ، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة ، ونتفاً من الحكم والأمثال ، فجهلت الأمة العربية جهلاً تاماً ، أو جهلاً يوشك أن يكون تاماً ، آداب الأمة اليونانية مع أنها قد أخذت من علم اليونان وفلسفتهم بالنصيب الموفور ، ولم تك تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية ، وروايات مشوهة فى الحكم والأمثال ، وسياسة الملوك ، ولم تك تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم ، وقليلاً من المواعظ والوصايا .

ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثال أدبى جديد يحتذونه ويسعون فى تقليده ومحاكاته ، فظلوا على ما كانوا عليه ، يرددون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه ، لا يجدون من هذا كله إلا ما يضطرونهم إلى تجديده نوع الحياة الجديدة الذى هم فيه ، وهم فى هذا التجديد القليل نفسه ، مقيدون بما قدمنا من حكم المحافظة الدينية واللغوية والسياسية . وقد علمنا تاريخ الأدب فى جميع العصور وعند جميع الأمم ، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفى لترقية الشعر ودفعه فى سبيل التطور المنتج ، وإنما يجب أن تضاف إلى هذه الحضارة المادية أشياء أخرى أهمها المخالطة الأدبية للشعوب الأجنبية ، فلولا أن الصلات اشتدت بين اليونان وبين غيرهم من الأمم المعاصرة ، لما تطور شعرهم هذه الأنواع من التطور . وكذلك قل إن الرومان مدينون لليونان بتطور آدابهم ، وقل إن الأمم الأوروبية مديونة بتطور آدابها لهذه الحركة التى حدثت فى عصر النهضة ، فأظهرت الإيطاليين وغير الإيطاليين على آداب اليونان والرومان .

ويطول القول إذ أردنا أن نذكر أثر الاختلاط بين الأمم الأوربية نفسها في الآداب الأوربية الحديثة ، وقد حرم العرب هذا الاختلاط ، فحرم الأدب العربي نتيجته ، وهي التجدد المنتج ، ولهذا لم يعرف العرب من الشعر إلا ما ورثوا عن أهل البادية ، فجهلوا الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، وجهلوا من الشعر الغنائي نفسه فنوناً كثيراً وضروباً مختلفة ، ومع هذا كله فقد تطور الشعر العربي ، وتجدد تجدداً ما ، فيجب علينا أن نعرف ما حقيقة هذا التجدد وما قيمته ، وأين يوجد الفرق الواضح القوي بين الشعر العربي الجديد والشعر العربي القديم ، وموعدنا بهذا الفصل الآتي .

صار
يؤثر
من
-
ذئ
هو
الط
فلم
,
لأمة
ولم
,
من
ليده
زانه
يده
بدون
دب
ترقية
صارة
لات
مهم
لور
التي
ذاب

القدماء والمحدثون^(١)

تجدد الشعر في العصر الأموي - الغزل الإباحي -
الغزل العفيف - الشعراء المتوسطون بين هذين الفئتين .

نظّم العصر الأموي ، ونظّم معه تاريخ الأدب العربي ، إن زعمنا أن التجديد الذي تناول لفظ الشعر ومعناه ، إنما حدث في العصر العباسي خاصة ، فإن العصر الأموي قد كان عصر تجديد أيضاً ، بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر في اللفظ والمعنى .

وربما كان عصر الأمويين من هذه الناحية أخصب وأكثر إنتاجاً من عصر العباسيين ، فقد حاول الشعر في هذا العصر أن يتجدد لا في لفظه ومعناه فحسب ، بل فيهما وفي الموضوع أيضاً ، ولكن هذه المحاولة لم توفق توفيقاً تاماً ، لأن عصر الأمويين لم يطل ، ولأنه لم يكن عصر ثبات واطمئنان ، وإنما كان عصر تحول وانتقال ، وكان من الممكن أن يتمم العصر العباسي ما بدأه العصر الأموي من تجديد موضوع الشعر ، ولكننا سنرى في غير هذا الفصل أن هذا لم يتح للشعر العربي ؛ لأن العصر العباسي سلك بالأمة العربية طريقاً جديدة ، مغايرة مغايرة شديدة للطريق التي سلكها العصر الأموي .

لم يكن يمعن المسلمون في الفتح وبسط سلطانهم على أرض الفرس من جهة ، والروم من جهة أخرى ، حتى تغير كل شيء في حياة الطبقة العليا من الأمة العربية ، وكان مصدر هذا التغير شيئين : أحدهما مادي ، وهو كثرة ما أفاء الله على المسلمين ، في هذا الفتح والتغلب ، من المال والغنائم الموفورة ، التي بدلت حياة هؤلاء الناس ، فجعلتها يسيرة بعد عسر ، سهلة بعد صعوبة ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ م .

ولينة ناعمة بعد شدة وخشونة . والآخر معنوى ؛ فقد رأى العرب في هذه البلاد المفتوحة نظماً للحكم والسياسة لم يألفوها ، وطرقاً للإدارة وتدبير الأمور العامة لم يعهدوها من قبل ، فتأثروا بما رأوا من ضروب الحياة السياسية أيضاً ، ونتج عن هذا التأثير المزدوج ، أن استبدل العرب بالخيام دوراً وقصوراً فيها ضروب الترف واللذة ، وحاولوا أن يستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية في كل شيء ملكاً حضرياً في كل شيء ، وما لبثوا أن وفقوا إلى الأمرين جميعاً .

ولم يكن بد من أن يترك هذان الأمران آثاراً ظاهرة قوية في حياة العقل والشعور ، فإن الحضري يشعر ويفكر بطريقة تخالف طريقة البدوي في شعوره وتفكيره . وكذلك يشعر الرجل الغني المنعم الذي لا تشرق عليه الشمس إلا اشتد طمعه في اللذة والتعيم ، بغير ما يشعر به الرجل الفقير المعدم الذي أخذ نفسه بضروب الصبر والقناعة واحتمال الشدة والمشقة .

ثم إن الأمة العربية كانت أمة ذات عصبية شديدة ، فلم تكن تنقاد بطبيعتها لزعيم ، أو تدعن لسلطان ثابت الملك ، وإنما كانت قبائل وشعوباً ، ترى كل قبيلة منها لنفسها السيادة والسلطان ، وكان هناك دين جديد يحاول أن يمحو هذه العصبية أو أن ينظمها فيؤسس الخلافة ، وكانت هناك فكرة جديدة تحاول أن تمحو هذه العصبية أو تنظمها فتؤسس الملك مكان الخلافة .

ومن هنا كان تجدد الشعر ملائماً كل الملاءمة لتجدد الحياة ، فنشأ عند العرب في عصر بني أمية نوعان من الشعر لم يكن قد ألفتها الجاهليون ، أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما : الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة ، وهو « الغزل » وليس ينبغي أن يقال إن الغزل فن قديم عند العرب ، فنحن نعلم ذلك ولا نشك في أن الشعراء الجاهليين جميعاً قد تغزلوا وشببوا ووصفوا النساء ، وإنما نريد أن فنناً جديداً قد نشأ في هذا العصر لم يكن موجوداً من قبل ، وهذا الفن هو الغزل يقصد لنفسه ، لا ليتخذ وسيلة لشيء آخر ، هو فن الحب من حيث هو حب ، هو الفن الذي يعنى به شاعر قد فرغ من كل شيء ، فحياته المادية ميسرة ولذاته موفورة عليه ، فكل ما يعنيه هو أن ينعم بهذه اللذات ، وأن يفنيها في شعره ، لا أكثر ولا أقل .

ومن الظاهر أن الجاهليين لم يعرفوا هذا الفن ولم يتذوقوه ؛ فلسنا نعرف في العصر الجاهلي شاعراً قصر شعره على الغزل ، وحياته على الحب والغرام ، وإنما كان الغزل كغيره من فنون الشعر ، أو بعبارة أصح : كان وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدعون قصائدهم - مهما اختلف موضوعها - بوصف الطلول والنساء ، كما كان اليونان يستهلون قصائدهم بمناجاة آلهة الشعر .

وقلما كان الشاعر العربي قبل الإسلام يقتصر قصيدة بأسرها على الغزل . وليس الأمر كذلك في عصر بني أمية ؛ فتد نرى في هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفناً مختاراً ، لا يتكلفون غيره ولا يعنون بسواه ، فهم لا يمدحون ولا يهجون ، وإنما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء في أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فإن طلبت إليهم القول في شيء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .

وفي الحق أن هذا الفن الجديد كان مختلفاً متنوعاً في هذا العصر باختلاف الشعراء ، واختلاف ظروف الحياة التي كانوا يحيونها ، فكان هناك شعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون به لذاتهم وأهواءهم وافتنائهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة ، وزعيم هؤلاء الشعراء « عمر بن أبي ربيعة » ذلك الذي أقام بمكة فاتخذ كل شيء وسيلة إلى وصف المرأة والتغزل بها ، ولم يكتف بالوصف والقول ، وإنما أضاف إليهما حياة عملية فيها شيء من اللذة والترف كثير ، وكان هناك شعراء آخرون لا يقصدون إلى وصف اللذات وما تستتبعه ، وإنما يقصدون إلى شيء آخر ، يقصدون إلى وصف العواطف الحارة الصادقة ، التي تعذب صاحبها وتعنيه دون أن تتيح له لذة مادية ما ، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها ، والتي هو بها كلف وعليها حريص ، هي لذة الألم بأنه يحب ، ويجب من لا سبيل إلى وصله أو التقرب إليه ، وزعيم هؤلاء الشعراء « جميل » الذي أمضى حياته ، وقصر شعره على حب « بثينة » ، لا يطمع من هذا كله بشيء إلا الشعور بأنه يحب وبأن حبه لا حد له ، وبأن هذا الحب يرضيه ويعنيه ، وبأنه يجد في هذا الألم والعذاب لذة لا تعدلها لذة بل كان يطمع في شيء آخر ، وهو أن تحس صاحبته ما يندخر لها من حب وما يلقى في سبيلها من ألم .

كان « عمر بن أبي ربيعة » زعيم المتغزلين الإباحيين ، وكان « جميل »

زعم المتغزلين العذريين ، وكان بين هذين الرجلين المتناقضين ، شعراء يتوسطون في الأمر فيبيحون أحياناً ويعفون أحياناً أخرى ، وربما كان كلفهم بالفن الشعري والإجادة فيه ، أشد من كلفهم باللذة لأنها لذة ، أو بالعفة لأنها عفة ، فلم يكن أحدهم يعنيه أن يقال إنه ماهر في تذوق لذات الحياة أو إنه عفيف حقاً مثال للعفة وطهارة القلب ، وإنما كان يعنيه أن يقال : لقد تغزل فأجاد الغزل ، وشب فأحسن التشبيب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن جمهورهم لم يقصر حياته الفنية على الغزل وحده ، وإنما تناول مع الغزل فنوناً أخرى . ومن هؤلاء الشعراء « كثير » الذي تغزل فأكثر الغزل ، واتخذ لنفسه صاحبة كانت هي مصلر حبه الغرامى وهى « عزة » ، ولكنه مدح وارتزق من شعره . ولست أشك - والرواة لا ينكرون ذلك - أن كُشيراً لم يكن صادق الحب ولا عفيفه ، وإنما كان يتخذ الغزل صنعة ، ويقفوا فيه أثر أستاذه جميل .

ولقد راج هذا الفن الحديد في عصر بنى أمية رواجاً ظاهراً جداً ، نشأ عنه أن كلف به الشعب ، فأضاف إلى حياة جميل وكثير وعمر ما ليس منها ، واخترع شعراء ربما لم يكونوا قط ، وألف لهم فصولاً من الحياة الغرامية ربما لم يعرفها التاريخ ، ونظم على لسان هؤلاء الشعراء الخياليين قصائد ومقطعات ربما لم يثق بصحتها الرواة ، فمن ذلك حياة « قيس بن الملوح » « وليلاه » ، ومن ذلك هذه الأخبار الكثيرة المسرفة التي تضاف إلى « قيس ابن ذريح » و « لبناه » .

ثم تكلف الشعراء الحقيقيون المبالغة في هذا الفن ، واخترعوا المواقف الحرجة المعضلة التي ليس لها حل وليس منها مخلص ، ولعل أحسن مثال لهذا التكلف هذان البيتان اللذان يضافان إلى ليلي الأخيالية :

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْحُ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَحَلِيلُ

فانظر إليها كيف اخترعت هذا الموقف العسير ، موقف عاشقين كلفين ، ليس إلى وصالها سبيل ، لأن كليهما متزوج ، ولأن كليهما وفي عفيف . لا أشك في أنك ستقول ليس في هذا الموقف شيء من الغرابة ؛ فقد

كانت ليلى متزوجة وكان « توبة » متزوجاً ، وليس غريباً أن يكون كلاهما وفيماً عفيفاً ، لا أشك في أنك ستقول هذا ، وقد أقوله أنا أيضاً ، ولكنى لا أدرى لماذا أميل ميلاً قوياً جداً إلى اعتقاد أن هذا الموقف موقف في اختراعه الشاعر لتجيد في الفن ، فهو إلى الشعر أقرب منه إلى الحياة الواقعة .

ومهما يكن من شيء ، فقد نرى أن هذا الفن الجديد قد عذم شأنه عند العرب في هذا العصر ، واختلفت مذاهب الشعراء فيه ، فذهب بعضهم فيه مذهب اللذة ، وذهب الآخرون فيه مذهب العفة .

وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا الفن كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار ، الذين ورثوا الثروة الطائلة الضخمة عن آبائهم ، وحيل بينهم وبين العمل السياسي لأمر ما . ومن هنا كانت مكة والمدينة - في هذا العصر - أقرب إلى اللهو والمجون والافتتان في اللذة ، وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل ، من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخليفة ؛ وإن الذين ذهبوا مذهب العفة وأسرفوا في هذا المذهب كانوا من أهل البادية ، بل إن الشعراء الذين اخترعوا - ولم يعرفهم التاريخ - كانوا أيضاً يخرعون في البادية ، وكانت عشيتهم من نساء البادية أيضاً . ولقد يكون من العسير تعليل هذا فنحن نعلم من أخلاق العرب البادين أنهم إلى المادة والإباحة ، أقرب منهم إلى هذه الحياة العذرية .

وإذ فقد يحسن أن نفترض أن شعوراً جديداً قد أخذ في هذا العصر يستأثر بالنفوس العربية ، وأن هذه النفوس قد خضعت في هذا العهد الجديد لنزعة جديدة هي الطموح إلى المثل الأعلى والسمو إلى حياة عقلية وشعورية جديدة راقية لم تكن معروفة من قبل ، ولكن هذا افتراض لم أوفق لتحقيقه بعد .

على أن الشعراء الآخرين الذين كانوا يمثلون السنة الموروثة ، ويذهبون مذهب الجاهلين فيمسخون ويهجون ويصفون ، قد تأثروا بهذا الفن الجديد ، فع أن حياتهم الشعرية لم تكن مقصورة على الغزل ، فإن هذا الغزل نفسه قد رق ولطف في شعر الفرزدق وجريير والأخطال حتى أصبح الفرق بينه وبين غزل الجاهليين ظاهراً بيناً ، فقليلاً ما تجاء في شعر الجاهليين غزلاً يقارب في عذوبة اللفظ وسحره ، وفي لطف المعنى ودقته ، قول جرير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبَلِّكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
عَظِيضًا مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَا لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَلَقِينَا

فانظر إلى هذا الشطر الأخير « ماذا لقيت من الهوى ولقينا » . انظر إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع ، وحسن موقعه من النفس ، وانظر إلى دقة معناه ولطفه ، وإلى سعة هذا المعنى التي لا حد لها ، والتي عجز الشاعر عن أن يستقصيها ، وأراد أن يشعرك بهذا العجز ، فعمد إلى الاستفهام « ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ » شيء ليس إلى وصفه ولا إلى تحديده من سبيل ، فهنا هو الفن الأول الذي استحدث في الشعر العربي أيام بني أمية . ولنختصر .

نشأ عند العرب فن جديد هو الغزل ، ذهب فيه الشعراء مذهبين مختلفين مذهب اللذة ، ورافع لوائه « عمر بن أبي ربيعة » ؛ ومذهب العفة ، ورافع لوائه « جميل بن معمر » . ومضى بين هذين المذهبين الشعراء الآخرون ، فمنهم من اتخذ الغزل صنعة وفناً فحذاً حذو أولئك أو هؤلاء ، ومنهم من سلك مسلك الشعراء الجاهليين فتناول فنون الشعر كافة ، ولكن غزله تأثر بمذهب الفن الجاهليد فرق لفظه وسهل ، ودق معناه ولطف .

أما الفن الآخر الذي استحدث أيام بني أمية فهو « الشعر السياسي » ، وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك ، وعمما كان من حرب بين العصبيات من جهة ، ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى ، ولعل من الخير أن نرجع بحث هذا الموضوع إلى حديث الأسبوع الآتي . . .

القدماء والمحدثون (١)

تطور الشعر في العصر العباسي - أسبابه
العامة - نموذج من نماذج هذا التطور .

رأينا أن تطور الشعر في عصر بني أمية كان قوياً منتجاً من بعض الوجوه ؛ فقد تناول اللفظ والمعنى وأحدث فنين جديدين : فن الغزل وفن الشعر السياسي وقلنا في آخر الفصل الماضي : إن تغير الحياة العربية أيام بني العباس أثر في حياة الشعر تأثيراً ظاهراً ، فحيا الفن السياسي محوراً ، وحوّل الغزل عن طريقته الأموية .

وفي الحق أن الشعر قد سلك في أيام بني العباس طريقاً تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية ، فنشأت معان جديدة ، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام . ذلك أن الحياة في عصر بني العباس كانت جديدة من كل وجه ، فانقطعت الصلة شيئاً فشيئاً أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التي كانت تزدهر في بغداد وضواحي بغداد ، وبين هذه البداوة القاسية الحشنة التي كانت تبسط سلطانها على بلاد العرب ، فبينما كانت دمشق ، على حضارتها أيام الأمويين ، ملتقى للجديد والقديم ، وبينما كان الحضري الخالص يستطيع أن يعيش فيها عيشة راضية مطمئنة ، وكان البدوي المعرق في البداوة يستطيع أيضاً أن يعيش هذه العيشة وكان كلاهما يستطيع أن يفهم صاحبه بدون مشقة أو عناء ، وبينما كان الخلفاء من الأمويين على ضخامة ملكهم وسلطانهم ، وعلى كثرة ثروتهم وغناهم ، وعلى تذوقهم أنواع الترف واللذة ، بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة ، بينما كانت دمشق وأهلها على هذه الحال ، كانت بغداد على حال تخالفها كل المخالفة ، فهي مدينة بنتها الحضارة الجديدة ، وبنتها في أرض قد بعد عهدها

(١) نشرت بالسياسة في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ هـ - ٢ يناير سنة ١٩٢٣ م .

بالدأوة ، واختلفت عليها الحضارات الكثيرة ، وأتاحت لها الطبيعة من خصب الأرض وثرائها واعتدال الإقليم وصفاء الجو ، ما يجعل الحضارة سهلة ميسورة مستعدة للرقى والنمو في وقت سريع ؛ فليس عجباً أن يأنس إليها أهل الحضرة وينفر منها الأعراب ومن يشبه الأعراب من الذين لم تصقلهم الحضارة ، ولم يبعد عهدهم بالنعيم .

كان الحضري يأنس إلى بغداد ، وكان البدوي ينفر منها وينكر نفسه فيها ، ولم يكن خلفاء بني العباس يحبون البادية ولا يحنون إليها ولا يتكلفون في قصورهم عيشة أهلها ، وإنما قطعوا بينهم وبين هذه العيشة كل صلة ، واتخذوا لأنفسهم من ملوك الفرس مثلاً يحتذونها في ضروب الحياة ، ولم يحيطوا بأنفسهم بالقواد والمشيرين من زعماء العرب ورؤساء القبائل كما كان يفعل الخلفاء من بني أمية ، وإنما استوزروا الفرس واستشاروهم ، وقصروا أو كادوا يقصرون عليهم قيادة الجيش ومناصب الدولة ؛ فليس غريباً أن تكون بغداد غير دمشق والعراق غير الشام ، وليس غريباً أن ينشد في بغداد والعراق شعر يخالف ما كان ينشد في دمشق والشام .

على أن الحياة السياسية نفسها تغيرت في هذا العصر تغيراً شديداً مختلفاً ؛ فكان السلطان الفعلي للفرس كما قدمنا ، وكانت الحكومة المركزية في بغداد قوية شديدة البطش ممتدة في الأمصار والأقاليم ، ومن قوة الحكومة المركزية وامتدادها نشأ شيء من ضيق الحرية قضى على النزعات الحزبية القديمة ، وأكره الشعراء على أن يتركوا السياسة لأهل السياسة ، فانمحي هذا الفن الذي أزهى أيام بني أمية ولم يخلفه في الشعر فن جديد .

وهناك تغير آخر شديد الخطر ، وهو تغير الحياة العقلية ، فقد اشتد الاختلاط بين الأمة العربية وغيرها من الأمم الأخرى التي سبقتها إلى الحضارة ، فلم يقف هذا الاختلاط عند المجاورة والمعاشرة والحديث والتقليد ، وإنما تجاوز هذا كله إلى ما هو أشد منه وأقوى أثراً في الحياة المادية والمعنوية : تجاوزته إلى الإصهار والتوالد من جهة ، وإلى الاختلاط العقلي الخالص من جهة أخرى فنشأت أجيال ورثت إلى المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي ، ونقلت إلى هذه الأجيال آثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة ، وفي الفلك والنجوم ، وفي السياسة والأخلاق ، وفي العلم والفلسفة .

فلا جرم ، كان هذا كله مصدر تغير قوى شديد في حياة النفس العربية ، أنتج أدباً لم تنتج تلك الحياة البدوية الخالصة في الجاهلية وصدر الإسلام ، أو تلك الحياة البدوية المتحضرة في أيام بني أمية أنتج أدباً حضرياً خالصاً يعبر عن شعور حضري خالص ولولا قوة الآداب العربية القديمة وشدة سلطانها على النفوس وقدرتها على المقاومة من جهة ، ولولا أن هذه الأجيال الجديدة لم تقرأ شيئاً من آداب هذه الأمم ، وإنما قرأت آثارها العلمية والفلسفية من جهة أخرى - نقول : لولا هذان الشيطان لاستحال الشعر العربي استحالة أشد وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً من هذه الاستحالة التي نريد أن نتبين حقيقتها ومقدارها في هذه الفصول : ومهما يكن من شيء فقد كان ما وصفنا من تغير الحياة المادية والسياسية والعقلية في القرن الثاني للهجرة ، تغيراً للحياة الشعرية ليس إلى إنكاره من سبيل .

ادرس هذا العصر درساً جيداً ، وقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث ، تدهشك ظاهرة غريبة ، هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم ، ديناً كان هذا القديم أو خلقاً أو سياسية أو أدباً .

فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً ، اضطرت الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب ، لأنهم آثموا بهذه الزندقة ، وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة ، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله .

وليس يعنينا الآن أن تكون النهضة السياسية الفارسية ، وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان ، مصدر هذا التغير ، وإنما الذي يعنينا أن هذا التغير قد كان وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً . فيكفي أن تقرأ شعر أبي نواس ، وما كان بينه وبين أصحابه وخصوصه من معارضة ومناقضة ، لتعرف مقدار هذا التغير ، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجة الطبيعية ، فهض القديم للدفاع عن نفسه ، واشتد الجهاد بينه وبين الحديد ، وكان هذا الجهاد بالسيف مرة وباللسان أخرى : بالسيف حين يتعرض الدين أو السلطان السياسي للخطر ، وباللسان حين لا يتعرض

لهذا الخطر إلا الأدب وأساليبه المختلفة .

ولعل من أئد ما يقرأ عبث أبي نواس بالفقهاء والمحدثين ، وإشفاق الفقهاء والمحدثين من أبي نواس وأمثال أبي نواس . . . لئيد هذا الإشفاق وذلك العبث ، لأنه ينبئنا باستحالة غريبة في الحياة العربية ، فقد كان أبو نواس محدثاً روى عنه الشافعي ، وكان مع ذلك فاجراً ماجناً يذيق المحدثين ألواناً من الأذى ؛ كان هؤلاء المحدثون يعظون أبا نواس مرة ، وينكرون عليه فجوره مرة أخرى ، ويشهرون به في دروسهم مرة ثالثة ، فكان أبو نواس يجرد لكل شيء من هذا جواباً ، فيرد الواعظ رداً حسناً فيه شيء من التهديد ، ويهجو من ينكر عليه فيشدد النكير ، ويكذب على من يشهر به ، حتى لقد نظم مرة شعراً اختلق فيه حديثاً رفعه إلى النبي ورواه عن أحد المحدثين المعاصرين ، تم كتب هذا الشعر وبعث به إلى هذا المحدث المسكين وكان تقياً ورعاً . روى ابن عساکر أن صاحباً من أصحاب هذا المحدث دخل عليه فوجده يبكي ، فلما سأله عن ذلك قال للجارية : هات الرقعة ، ودفع الرقعة إلى صاحبه ، وهو يقول : انظر إلى الفاسق ! لقد كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، والله ما حدثته بهذا قط .

وكان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويطعمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون في هذا كما يعبثون في غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ، ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . ولعلمهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوماً ، وأمهم أحد الندماء ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة من خشوع لله ، إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، فقال أبو نواس :

أَكْثَرَ يَحْيَى غَلَطًا فِي قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ

وقال العباس بن الأحنف :

قَامَ طَوِيلًا سَاهِيًا حَتَّى إِذَا أَعْيَا سَجَدُ

وقال الحسين الخليل :

يَزْحَرُ فِي مِخْرَابِهِ زَحِيرَ حُبْلَى بَوْلَدُ

وقال الرابع ، ولعله مسلم بن الوليد :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدَّ بِحَبْلِ مِنْ مَسَدٍ

ومثل هذا ما تحدث به الجاحظ : أن خمسة من الظرفاء ذهبوا إلى دير بيتغون الشراب واللهو ، وإنهم لى ذلك إذ قام أحدهم يصلى ، وأقبلت دلالة فأخذوا يسألونها عن أمرهم ، فقالت : كم أنتم ؟ قالوا : أربعة ؛ وأهملوا صاحبهم لأنه يصلى ، ولكن هذا الصاحب لم يهمل نفسه فقال : سبحان الله ! وعرفت الدلالة أنهم خمسة . . .

كان هذا العصر إذن عصر شك في كل شيء ، وعصر مجنون وإباحة وتهتك في الحياة العملية وفي القول أيضاً ؛ ومن هنا نجد في هذا العصر شعراً كثيراً نستطيع أن نقرأه في الكتب ، دون أن نستطيع ترديده في الصحف ، بل في دار الكتب المصرية كتاب في أخبار أبي نواس ليس إلى نشره من سبيل ، لأن قوانيننا لا تبيحه ، وليس إلى إصلاحه من سبيل لأن هذا الإصلاح يذهب بخير ما فيه .

على أننا نستطيع مع هذا أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر ، دون أن نضطر إلى مثل هذا الفحش إذا روينا لك قصيدة من شعر أبي نواس ، ولم نحذف منها إلا بيتاً واحداً ليس إلى روايته من سبيل ، ولكننا نجب أن نلاحظ أن الشاعر كان يستطيع أن يقول معنى البيت في غير إثم ولا فحش ، لولا أنه تعمد الإثم ؛ لأن الإثم والفحش كانا بدع بغداد في ذلك العصر :

دَعَّ عَنْكَ لَوَيْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاهُ وَدَاوِي بِيَالْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاهُ

صَفْرَاهُ لَا تَنْزِلُ الْأَخْزَانَ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاهُ

...

قَامَتْ بِإِبْرِيْقَهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاحَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاهُ

فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاهُ

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَانِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَمًا عَنُ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَدَ أَنْوَارُ وَأَضْوَاهُ

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُنَّ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا
 لَيْتَكَ أَبْنَى وَلَا أَبْنَى لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحْمِلُ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
 حَاشَا (لِدِرَّة) أَنْ تُبْنَى الْخِيَامَ لَهَا وَأَنْ تَرُوحَ عَلَيْهَا الْأَيْلُ وَالشَّاهُ
 فَقُلْ لِمَنْ يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلَسْفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَعَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
 لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَانَ كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظَرَ كَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاهُ

فانظر إلى هذه القصيدة على قصرها ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلاً صادقاً ، فليس فيها لفظ واحد غريب ، وإنما ألفاظها كلها مألوقة تجرى على السنة الناس جميعاً في أحاديثهم العادية ، وليس فيها معنى واحد بلوى ، وإنما معانيها كلها حضرية لا تخطر إلا لمن نشئوا في المدن وامتلاّت رؤوسهم بما يملأ رؤوس أهل المدن من جد ولعب ، بل في هذه القصيدة بيت ينكر كل العصر القديم وأساليبه الشعرية ، فهو يريد أن يبكي على الخمر لا على الأطلال والدمن :

لَيْتَكَ أَبْنَى وَلَا أَبْنَى لِمَنْزِلَةٍ كَانَتْ تَحْمِلُ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ

فإذا أردت أن تدرس هذه القصيدة درساً مفصلاً ، رأيت هذه الإباحة في البيت الذي لم نروه ، ورأيت في آخر القصيدة بيتاً يعتز بالدين نفسه في نصر هذه الإباحة وتأييدها ؛ فهو يريد أن يكون ماجناً فاسقاً ، وأن يستمتع باللذات على اختلافها دون أن يقنط من رحمة الله ، وهو ينكر على صديقه « النضام » وأصحابه من المعتزلة تشدهم في أمر العفو والحطية والتوبة ، ويؤثر مذهب أهل السنة الذين يفتحون باب العفو أمام المذنبين ، ذلك لأن شاعرنا وأصحابه يريدون أن يفوزوا بالدنيا والآخرة ، وأن يلهوا في مقتبل الشباب حتى إذا أدركهم الكبر تابوا واستغفروا وانتظروا عفو الله . وكان المعتزلة يغلغلون على الناس هذا الباب ، فلا عجب إذا انصرف عنهم الشعراء وأهل الحجون .

ويقال إن أبا نواس لما حضره الموت اختلف إليه أصحابه ، فأخذوا يعظونه ويلومونه على ما أنفق من عمره في طاعة الشيطان . وغلا بعضهم حتى أبأسه من الآخرة ، فقال : اسندوني ؛ وتكلفت النهوض ، وروى حديثاً يضمن عفو الله له .

وقد تحدّث الرواة بعد موته أنه دخل الجنة ، لأن أحدهم رآه في المنام فسأله عما فعل الله به ، فقال : غفر لي بأبيات قلّتها ، وهذه الأبيات في الزهد والندم قالها في مرض موته ، وزعم الرواة أنّها وجدت تحت وسادته ، وسنعرض لها حين نعرض لزهد أبي نواس .

إلى جانب هذا كله في هذه القصيدة معاني لا يمكن أن توجد ، إلا في نفس من قرأ الفلسفة اليونانية وخالط المتكلمين والمتفلسفين ، فانظر إلى قوله :

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُبْلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَنَمًا عَنِ شَكْلِهَا الْمَاءِ

فهذا أسلوب « النظام » وغير النظام حين كانوا يتكلمون في الجزء الذي لا يتجزأ ، وفي كثافة الأجسام ولطاقها ، وفيما بينها من ملاءمة ومباينة ، وكذلك قوله « حتى تولد أنوار وأضواء » فلفظ التولد من ألفاظ المتكلمين واصطلاحات المعتزلة بنوع خاص ، والبيت الأخير من هذه القصيدة :

لَا تَحْظُرِ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا فَإِنَّ حَظْرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاهُ

ليس إلا وضعا لمذهبين كلاميين أحدهما بإزاء صاحبه : مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة .

هذه القصيدة إذن تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس ، ولكنها تمثلها تمثيلا مجمولا ، فإذا أردت تفصيل هذه الحياة وأن تتخذ منها صورة بيّنة تثبت ما قلناه من أن هذا العصر قد كان عصر شك وإباحة ، وجب أن تدرس حياة الجماعات الأدبية في بغداد والبصرة وهي شيء يشبه « الصالونات الأدبية » (Les Salons Littéraires) في فرنسا إبان القرن الثامن عشر . وسنحدثك عن هذا في الأسبوع الآتي . . .

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندلسية
الأدبية - الشك والمجون .

كان أمر العرب مع الفرس ، كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ؛ فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ، وأخذوا منهما بنصيب موفور ، قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية ، فلما جاء الإسلام ، وكان الفتح ، ومكّن الله للعرب في بلاد الفرس ، كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداءة العربية ، بين اللين والخشونة ، بين الحياة المترفة المعقدة ، والحياة الساذجة الهينة .

لم يكن هذا الجهاد عنيفاً حين كانت الحياة المادية موضوعة ؛ فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة ، ويفضل النعمة على البؤس ، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم ، وإنما كان الجهاد عنيفاً بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعاً له ، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة والسنن العربية الموروثة ، وأنصار العادات والسنن الفارسية . وكان القرن الأول للهجرة عصر هذا الجهاد ، ولكنه لم يكده ينقضي ، حتى ظهر انتصار الحديد ، وأخذ القديم ينهزم أمامه ، وينحصر في البلاد العربية الخالصة ، وأخذ سلطان الحضارة يسود بلا شريك ولا منازع ، في العراق والشام وغيرهما من البلاد التي خضعت للعرب ، وكانت متحضرة قبل وصول العرب إليها . وكذلك كانت الرومان بعد أن أخضعوا اليونان ، فقد فتح الرومان بلاد اليونان فتحاً سياسياً ، ولكن اليونان فتحوا روما فتحاً أدبياً ، كما قال الشاعر الروماني هوراس .

انتصرت الحضارة ، واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن على اختلاف

(١) نشرت بالسياسة في يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ هـ ١٠ أيار ١٩٢٣ م.

طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وكان هذا الانتصار عاماً ، تناول الحياة المادية والعقلية ، وتناول معها حياة الشعور . ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء ، وعاشوا كذلك في دورهم وقصورهم عيشة تخالف عيشة آباؤهم ، وظهرت عندهم العلوم وضروب الفلسفة ، وتغير لهذا كله حسهم وشعورهم ، فتغير لسان هذا الحس وهذا الشعور ، وهو الأدب ، نثراً كان أو شعراً .

وقد أشرنا في الفصل الماضي إلى أن أول العصر العباسي قد كان عصر شك واستهتار ، أنكر العقل العربي فيه قديمه ، ولم يشتد اطمئنانه إلى الحديد ، فلم يتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في الحياة ، وإنما عاش من يوم إلى يوم ، فاحتمل الآلام كارهاً ، واستمتع باللذات راغباً فيها ، مستزيداً منها ، وكانت هذه اللذات كثيرة مختلفة ، وكانت هذه اللذات ميسرة له ، موفورة عليه ، فكانت هناك لذة الصلات الاجتماعية بين الرجل والمرأة ، ولم تكن هذه المرأة عربية ، وإنما كانت فارسية أو غير فارسية ، ولم يكن الوصول إليها عسيراً ، وإنما كان شيئاً سهلاً ميسوراً ، فقد كانت المرأة تباع وتشترى ، وكثيراً ما كانت تنال بالهبة والعطاء .

لم تكن هذه المرأة عربية ولم تكن بدوية ، وإنما كانت أعجمية متحضرة ، قد بعد عهد أهلها وبلادها بالحضارة ، فرقت طبعها وصفا مزاجها ، وافتنت في تلطيف الحياة وترفيها ، وفي اختراع ضروب اللهو وصنوف النعيم ، ولم تكن جاهلة ، وإنما كانت متعلمة ، ومتعلمة تعليماً متقناً ، فقد وجدت في ذلك الوقت تجارة واسعة عظيمة الإنتاج ، وكان الرقيق موضوع هذه التجارة ، فكان يعلم أحسن تعليم ، ويدرب أحسن تدريب على فروع الحياة المختلفة ، ولم تكن هذه المرأة حرة ، محتفظة بكرامتها الشخصية ، حريصة على أن تكون لها منزلة السيدة ، وإنما كانت مبتذلة ممهنة ، تباع وتشترى ، كما يباع المتاع ويشترى .

وكان العرب مندفعين في هذا النوع من اللذة ، يستمتعون به في غير قصد ولا احتياط ؛ وإلى جانب هذه اللذة كانت توجد اللذات الأخرى ، لذات الطعام ، ولذات الشراب ، ولذات الأثاث ، ولذات اللباس ؛ ثم كانت توجد اللذات العقلية ، كانت تترجم لهم آثار الفرس وآثار اليونان ، فيقرءون

وفهمون ، ويتأثرون في حياتهم العملية بما يقرءون وما يفهمون ، ولم يكن من شأن هذه الآثار المترجمة أن تؤيد سلطان الحياة القديمة ، أو ترغب فيها ، وإنما كانت تصرف عنها ، وتنفر منها ، وتملا قلوب الناس لها بغضا ، وعليها سخطاً ، فلا جرم آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم ، على عيشة العرب وتفكيرهم ، ووُجد هؤلاء الشعراء والكتّاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ، ويحتفلون بكل جديد ، يجهرون بذلك حيناً ويسرّونه حيناً آخر ، يأمنون معه دهرأ ، ويلتقون في سبيله الموت من وقت إلى وقت . وُجد « مطيع بن إلياس » الذي كان لا يبالي أكان عفيفاً أم غير عفيف ، ولا يبالي أكان حرّاً كريماً نقيّ العرض ، أم ممتهناً مبتدلاً مرذول السيرة ، ووُجد « حماد عجرد » الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا ، وإنما كان يأخذ اللذة حيث وجدها ، وينوعها ما استطاع إلى تنوعها سبيلا ، والذي أسرف في المجون والتَهتك ، حتى لأمه أبو حنيفة وشهرّ به ، فلم يجد حماد رداً على ذلك إلا هذه الأبيات المشهورة التي يتهم فيها أبا حنيفة بأنه حديث النسك ، وأنه كثيراً ما شاركه في الإثم والمعصية :

إِنْ كَانَ نَسْكَكَ لَا يَتِيْمٌ مُّبَغِيْرٍ شَتِيٍّ وَأَنْتِقَاصِي
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِي حَيْثُ شِئْتِ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَّالِمًا زَكِيْنِي وَأَنَا الْمُتَمِيْمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ نَأْخُذُهَا وَتُعْطِي فِي أَبَارِيْقِ الرَّصَاصِ

ووُجد رفيقهما « يحيى بن زياد » الذي كان يقاسمهما حظهما من كل إثم في القول والعمل ، ثم أدركه الكِبَر ، فتاب وأناب . وظهر « بشار » الذي كان يؤثر النار على الطين ، أى كان يميل إلى دين الفرس القديم ، ويزدرى الإسلام ، والذي مهر في وصف الفسق والمجون ، حتى حبسه المهدي ، وحتى شكاه منه ، إلى الخليفة ، أشرف الناس ، لأنه كان يفسد عليهم نساءهم . ووُجد « والبة بن الحُبَابِ الأَسَدِي » الذي عرضت منادمته على الرشيد ، فأبى وأشفق ، وأعلن إبداءه وإشفاقه في ألفاظ لا تسمح بنشرها القوانين ولا الأخلاق ، ومصدر هذا الإبداء والإشفاق شعر لوالبة ، أعلن فيه بغيه وفجوره ، إعلاناً خاف

الرشيد عاقبتهم على نفسه ، فيما ذكر الرواة ، وكان الرشيد مازحاً من غير شك ، ولكنه كان يجلب مجلسه عن مثل هذا الشاعر ، الذي لا يسر فسقه . وكان أبو نواس تلميذاً لولبة بن الحباب هذا ، وعنه أخذ الفسق العملي واللفظي ، بل قل : إنه أخذ عنه الإباحة بأشنع معانيها .

ولقد وجدت بعد هذه الطبقة التي ذكرنا بعض أسمائها طبقة أخرى كانت أشد منها مجوناً ، وأكثر منها فجوراً ، وأقل منها حرصاً على الاستتار ، وكان « أبو نواس » من زعماء هذه الطبقة ، وكان معه « الرقاشي » و « العباس ابن الأحنف » و « مسلم بن الوليد » و « الحسين الخليل » وغيرهم من الشعراء ، كان هؤلاء الناس لا يسترون في معصية ، ولا يكفون عن فاحشة ، وكانوا ينتقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقبة ، كانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها ، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم ، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقاً ولا ديناً ، وربما أصابهم من وقت إلى وقت غضب الخليفة ، فاستتروا حيناً ، أو اضطروا إلى السجن ، حتى ينالهم العفو ، فما هي إلا أن يستأنفوا سيرتهم الأولى . ومن هذا قصة منتحلة - فيما أعتقد - ولكن لها قيمتها التاريخية لأنها تمثل رأى هذه الطبقة في الخلفاء .

روى عن أبي نواس أنه قال : لما حبسني الأمين رأيت بشاراً في المنام ، فقال لي : بماذا حبسك هذا الغلام ؟ (يعني الأمين) قلت : بقولي :

أَلَا قَاسَتْنِي حَمْرًا وَقُلَّ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا امْكَنَ الْجُهْرُ

فقال : أو يحظر عليك شيئاً وهو يجاهر به ؟ هلا بدأ بنفسه ! لعن الله من نقل إليهم الملك ، فقلت : فماذا حبسك جده المهدي ؟ قال بقولي :

قَاسِ الْهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجْحًا وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبْحًا
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يَسْلَسُ بَعْدَ مَا جَمَعَا

قلت : فم أفرج عنك ؟ قال بقولي :

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ

وَمُخَضَّبِ رَخِصِ الْبَنَّا نِ بَكِي عَلَيَّ وَمَا بَكَيْتُهُ
 بَعَثْتُ إِلَى تَسْؤُمِي بُرْدَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
 وَاللَّهِ رَبِّ سَرِيرَتِي مَا إِنْ صَبَوْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
 أَعْرَضْتُ عَنْكَ وَرُبَّمَا عَرَضَ الْبَلَاءِ وَمَا أَتَقَيْتُهُ
 إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبِي وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ
 وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهُمَاءُ مٌ عَنِ النِّسَاءِ فَمَا عَصَيْتُهُ
 لَا بَلْ وَفَيْتُ وَلَمْ أُضِغْ عَهْدًا وَلَا رَأْيًا رَأَيْتُهُ

وبقبولي أيضاً :

وَاللَّهِ لَوْ لَا رِضَا الْخَلِيفَةِ مَا أَحْتَمَلْتُ ضِيَاءَ عَلَيَّ فِي شَجَنِي
 قَدَعَشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالرَّاحِ وَالْمِزْ هَرِّ فِي كُلِّ مَجْلِسِ حَسَنِ
 مُمَّ نَهَانِي الْمَهْدِيَّ فَانصَرَفْتُ نَفْسِي صَنِيعَ الْمُوقِفِ اللَّقِينِ
 فانتبهت وقد حفظت الأبيات ، وبشار أمانى فقلت :

أَعَادِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبْنَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبْنَا
 وَقُلْتُ لِسَاقِهَا أَجْرَهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبْنَا
 وقلت أيضاً :

أَطِعِ الْخَلِيفَةَ وَأَعْصِ ذَا عَرَفِ وَتَنَحَّ عَنِ طَرْبٍ وَعَنْ قَصْفِ

فصارت هذه الأبيات إحدى منجياتي ، وكان الشيخ بشار سبها .
 ولا تنس أن الأمين الذي حبس أبا نواس كان ينادمه ، وكان أبو نواس
 به كلفاً . ويقال إن الرشيد كان قد كلف الكسائي تأديب الأمين ، وكان
 أبو نواس صديقاً للكسائي ، فقال له أبو نواس يوماً : أحب أن أقبل الأمين ،
 فجزع الكسائي لذلك ، وأشفق منه ، وألح فيه أبو نواس ، ولم يكتف
 بالإلحاح ، بل أنذر وصنع هذين البيتين ، وأظهر أنه سيرفعهما إلى
 الرشيد ، وهما :

قُلْ لِلْإِيمَانِ جَزَاءُ اللَّهِ صَالِحَةً لَا يَجْمَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ السَّخْلِ وَالذَّيْبِ
السَّخْلُ غِرٌّ وَهُمْ الذَّيْبُ غَفْلَةٌ وَالذَّيْبُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

فاشتمد جزع الكسائي ، واحتال لأبي نواس ، فقال له : أطل الغيبة ، ثم أقبل
كأنك قادم من سفر ، فأعانقك ، ويعانقك الأمين فتقبله ! ففعل أبو نواس
ثم خرج ، فقال في ذلك شعراً .

فهذا القليل الذي رويته لك ، والذي ليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى
ما تستطيع أن تقرأه في كتب الأدب المختلفة ، يبين لك إلى أي حد وصل
هؤلاء الناس في هذا العصر من المحون والتهتك والاندفاع في الحرية ، والاستمتاع
باللذة ، ولا يزرهم عن ذلك حياء ولا دين .

خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وربح الأدب ، فلم يعرف العرب
عصراً كثر فيه المحون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا
العصر . . . ثم كان من كثرة المحون ، أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق
في ذلك العصر والعصور التي تلته ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن
معروفاً في الجاهلية ، ولا في صدر الإسلام ، ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر
من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عند ما
خالطت العرب ، أو عند ما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم في
بغداد ، وهذا الفن الجديد هو « الغزل بالغلمان » الذي سنحدثك عن خصائصه
في غير هذا الفصل .

وإنما الذي يعيننا الآن أن نلاحظه ، أن هؤلاء الناس ، الذين وصفنا
لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء ، وعبث بكل شيء ، وإسراف في
المجون واللهو ، كانوا يجتمعون ، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ،
وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة ، فيها اللهو ، وفيها الترف ، كانوا لا يجتمعون
إلا على لذة ، إلا على كأس تدار ، أو إثم يقترف ، وكانت اللذة والآثام حديثهم
إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم
أيضاً ، ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات
يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديار ، وفي

بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة . فيلذون ويتحدثون .
 فأنت تستطيع أن تتكهن بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في
 الأدب العربي والعقل العربي ، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ،
 ولا ثقيلة الروح ، كانت تصدر عنهم عفواً ، فتمثل عقولهم وشعورهم ، وقوة
 حرصهم على اللذات ، وشدة شغفهم بالجليد أحسن تمثيل ، ولكننا لم نحدثك
 بعد عن هذه الأندية الغريبة ، وإنما وصلنا بك إلى باب من أبوابها ، فلتنتظر
 اليوم ، لتستمتع إليهم في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

تطور الشعر في العصر العباسي - الأندبة
الأدبية - الألفاظ والمعاني .

انتهى بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الأندبة الأدبية ، التي كان لها أيام بني العباس أثر في الأدب لا يمحي ، ويد على الشعر لن يناها النسيان . لم تكن هذه الأندبة تجتمع في أماكن معينة ، أو منازل معروفة ، وإنما كانت تجتمع حيث يتاح لها الاجتماع ، كانت تنتقل بأدبها وعلمها ، ويجدها وهزها بين مدن العراق المختلفة ، وبين ما كان في هذه المدن وضواحيها من الحدائق والبساتين ، ومن الأديرة والمساجد ، ومن الحانات وبيوت الإثم ، وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والوزراء والقادة وكبار الدولة . وكانت تتألف من هؤلاء الناس الذين سمينا لك بعضهم في الأحاديث الماضية ، وكان هؤلاء الناس الممتازون بالشك في كل شيء ، والعبث بكل شيء . يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء وفي المساجد طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبت ولا تتعاطى المحجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين ، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة ، فكانت أحاديثهم في هذه المجالس متأثرة بجهد هؤلاء العلماء ، وبمهارة الأمراء والوزراء ؛ فكانوا قلما يتجاوزون جد القول إلى هزله ، وقلما يمعنون فيما كانوا يمعنون فيه إذا خلوا إلى أنفسهم من الفحش الذي لا جد له ، والمحجون الذي لا يعده محجون . كانوا في هذه المجالس يتناولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فتراهم يروون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتناولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضروب الثناء ، فيخرجون وقد امتلأت أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهبوا بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب ، وفي اللذة والفسوق .

(١) نشرت بالسياسة في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤١ - ١٧ يناير سنة ١٩٢٣ .

فأنت ترى أن الإنصاف ، وحسن الوفاء للتاريخ ، يضطاراننا إلى أن نعترف بأن الشك والحجون لم يكونا كل شيء في ذلك العصر ، وإنما كان إلى جانب الشك يقين ، وإلى جانب الهزل جد . كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكّون ويعبثون ، وكان الفقهاء والمتكلمون والرواة مستيقنين ، يؤثرون الجحد ويغلون فيه .

ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة ، تحكم بها عليه حكماً صادقاً ، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب ، أكثر من رجوعك إلى هؤلاء الفقهاء والمتكلمين والرواة ؛ لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً ، ويعبرون عن أهوائها وميولها ، ويصفون ما تضرب فيه من ضروب الحياة . أفئظن أن شاعراً كأبي نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس في بغداد وغيرها من مدن العراق ، بل في الشام ومصر حين ذهب إلى الشام ومصر ، فيحفظون شعره ويتناشدونه ، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف ، ثم لا يكتفون بذلك ، بل يروون عنه الروايات ، وينتحلونه القصص ، ويتحدثون عنه في اللعب واللهو بالأعاجيب ، أفئظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحياة ، فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ، ومرآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء ، وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجم صادقين ، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر ، وما يضطرب في نفوسها من عواطف ، في حين كان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الكلام يحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يلتقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأي أحد ، ولا يمثّلون إلا العلم الذي يعنون به ، ويعكفون عليه .

بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك ، ونحتاط بعض الاحتياط ، حين نذكر ورع هؤلاء العلماء وإمعانهم في البر والتقوى ؛ فقد كان منهم الأبرار والأتقياء حقاً ، ولكن كان منهم أيضاً الذين يحجون الحياة ويتأقون لذاتها ، ويظهرون للناس برا وديناً من ورائهما شيء كثير !

ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « يحيى بن أكثم » الذى كان قاضى المأمون ونديمه ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار « أبى عبيدة معمر بن المثنى » ، وما كان بينه وبين الشعراء ، بل لعلك تذكر ما يروى من أخبار الخلفاء أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعه ذلك من أن يظهروا مظهر الأئمة الأتقياء . ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو ويسكر وكذلك ذكروا عن المأمون خللاً نقيّة ، وخصالاً طاهرة ، ربما صحت كلها ، ولكنّها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرب الخمر .

كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر الجلد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون ، الذى يلج فيه العذار ، وتترك فيه للشهوات حريتها المطلقة .

وإذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهرون بالشك ، ويعلمون الجون أصدق لهجة وأصح تمثيلاً للعصر الذى كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والوزراء وكبار الدولة ، وليس هذا مقصوداً على العرب ، ولا على العباسيين ، ولا على بغداد ، فقد عرفه اليونان والرومان والأوروبيون ، وعرفته أئمتنا وروما وباريس ، وما لنا نطيل فى هذا ! ويكفى أن تقرأ عصر بريكيليس وأغسطس ولويس الرابع عشر ، لتفهم عصر الرشيد والأمين والمأمون .

كان هؤلاء الشعراء إذن يمثلون عصرهم تمثيلاً صحيحاً ، فلنا أن نتخذهم مقياساً للحكم على هذا العصر . ولكن تغير الحياة أيام بنى العباس لم يحدث الشك والمجون وحدهما ، ولم يغير الشعر من هذه الناحية فحسب ، وإنما أحدث أيضاً شيئاً آخر ، وغيّر الشعر من ناحية أخرى : أحدث سهولة فى التعبير عما فى النفس ، لأنه أطلق للعواطف والأهواء حريتها ، فانطلقت الألسنة بوصف هذه العواطف والأهواء . ضعف رقيب الدين والأخلاق على الحياة ، وضعف رقيب السلطان السياسى أيضاً ، ففكر الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ،

ضی

، «

لفاء

أن

ندع

شید

،

كان

ربما

كان

نهر

سی

نون

70, 2

Taha Husin

X'3
3

Hadit al-arbiq

Causeries des mercredi

Tombe II

Le Caire - Dar al-Harif

1 d. 260 16,5 x 24,5

تاركين السياسة لأهل السياسة ، وتركهم السياسة أحراراً ، واستفادت من هذه الحرية ، فبينما كانوا يلهون ويلعبون ، وبينما كانوا يعبثون ويسرفون في الهزل ، كانت السياسة تقوى سلطانها ، وتبسط ظلها على جميع الأقاليم الإسلامية .

أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ، ونشأ من حرية العواطف تنافس في اللذة ، واستباق إليها ، فنشأ من هذا التنافس في اللذة العملية ، تنافس في وصفها ، واستباق إلى إجادة هذا الوصف ، وكان هؤلاء الشعراء إذا اجتمعوا إلى لذة تنافسوا أيهم يسبق صاحبه في الشرب وغير الشرب ، ثم يتنافسون أيهم يسبق صاحبه في وصف الشرب وغير الشرب ، ومن هنا كثر الافتنان في اللذات ، وكثر معه الافتنان في القول .

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ، فإن العاطفة التي أصبحت تستطيع أن تحيا من غير جناح ولا رقيب ، أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقييد بالقديم ، وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفى من الشرطة ، فإله لا يصف الخمر كما يجب دون أن يخشى سطوة الأصمعي أو أبي عبيدة !

نشأ عن هذا كله أن اشتد توقد الأذهان عند الشعراء ، وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل في هذا العصر منه في العصور الأخرى ، وكانت النتيجة الشعرية لهذا القرن الثاني من الهجرة أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية ، كان هؤلاء الناس إذا اجتمعوا تحدثوا أو كادوا يتحدثون شعراً لا نثراً ، وكثيراً ما كانوا يوقفون إلى القول البديع ، والشعر الطريف ، وكثيراً ما كانوا يستقنون إلى تخفيف اللفظ ومتكلفه ، وإلى ردىء المعنى وفاتره . ولم يكن ذلك يؤذيههم أو ينال منهم ، فهم كانوا لا يعنون في هذه المجالس بإجادة أو إتقان ، وإنما كانوا يعنون بوصف شعورهم وعواطفهم من جهة ، وبالتفوق والغلب من جهة أخرى .

فانظر إلى هذه الجماعة من الشعراء ، وقد اجتمعت مرة تتناشد وتتحدث ، حتى إذا كان الظهر سأل واحد منها : أين نحن العشيبة ؟ فأخذ كل واحد يدعو الجماعة إلى بيته ، وعرض عليهم أبو نواس أن تكون هذه الدعوة شعراً لا نثراً ، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة ، وأحسنهم كلاماً . فقال

داود بن رزين الواسطي :

قَوْمُوا لِمَنْزِلِ لَهْوٍ وَظِلُّ بَيْتِ كَنِينِ
 فِيهِ مِنَ الْوَرْدِ وَالنَّزْرِ جِسِّ وَالْيَاسَمِينِ
 وَرِيحِ مِسْكِ ذِكِّي وَفَائِحِ الْمَرْزُجُونِ
 وَقَيْنَةِ ذَاتِ غُنْجٍ وَذَاتِ عَقْلِ رَصِينِ
 تَشْدُو بِكُلِّ طَرِيفٍ مِنْ مُحْكَمِ «ابْنِ رَزِينِ»

وقال أبو نواس :

لَا، بَلْ إِلَى ثِقَاتِي قَوْمُوا بِنَا لِحَيَاتِي
 قَوْمُوا نَلَذَّ جَمِيعًا بِقَوْلِ هَاكَ وَهَاتِ

 فَتَأْوِرُوهُ مُجُونًا فِي وَقْتِ كُلِّ صَلَاةٍ

وقال الخليل :

إِلَى «الْخَلِيلِ» فَقَوْمُوا إِلَى شَرَابِ الْخَلِيلِ
 إِلَى شَرَابِ لَذِيذِ وَأَكْلِ جَدِي رَضِيعِ
 وَنَيْلِ أَحْوَى رَخِيمِ بِالْخَنْدَرِيسِ صَرِيعِ
 فِي رَوْضَةٍ جَادَهَا صَوٌّ بْ غَادِيَاتِ الرَّبِيعِ
 قَوْمُوا تَنَاوُوا وَشِيكًا مَنَالَ كُلِّ رَفِيعِ

وقال الرقاشي :

لِلَّهِ دَرُّ عُقَارِ حَلَّتْ بِبَيْتِ «الرَّقَاشِي»
 عَذْرَاءَ ذَاتِ أَحْمَرَارِ إِنِّي بِهَا لَا أَحَاشِي

قُومُوا نَدَامَى رَوْوَا مُشَاشِكُمْ وَمُشَاشِي
وَنَاطِحُونِي بِكَأْسٍ نَطَاحِ سُودِ الْكِبَاشِ
فَإِنْ نَكَلتُ فَجَلُّ لَكُمْ دَرِي وَمُشَاشِي

وقال عمرو الوراق :

عُوجُوا إِلَى بَيْتِ «عَمْرِ» إِلَى سَمَاعِ وَخَزْرِ
وَنَاشِجَاتِ عَلَيْنَا نَطَاعُ فِي كُلِّ أَمْرِ
فَهَاكَ أَحَلِي وَأُشْهَى مِنْ صَيْدِ بَازٍ وَصَفْرِ
هَذَا، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أُولَى وَلَا وَقْتُ عَصْرِ

وقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنَانُ عَلَيْنَا بَانَ نَزْرَ «حُسَيْنَا»
وَأَنْ نَقَرَ لَدَيْهِ بِاللَّهْوِ وَالْقَصْفِ عَيْنَا
فَمَارَأَيْنَا كَطَرْفِ «الْحُسَيْنِ» فِيمَا رَأَيْنَا
قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ زَيْنًا مِنْهُ وَبَاعَدَ شَيْنَا

وقالت عنان :

مَهْلًا أَفْدِيكَ مَهْلًا «عِنَانُ» أُخْرَى وَأُولَى
بَانَ تَنَالَ لَدَيْهَا أَشْهَى النَّعِيمِ وَأَخْلَى
فَإِنْ عِنْدِي حَرَامًا مِنَ الشَّرَابِ وَحِلًّا
لَا تَطْمَعُوا فِي سَوَائِي مِنَ الْبَرِّيَّةِ كَلًّا
يَا إِخْوَتِي خَبَرُونِي أَجَارَ حُكْمِي أَمْ لَا

ومضى كل واحد يقول كلاماً كهذا ، فيه ترغيب ، وفيه حث على اللذة ،
وفيه تفضيل لما عنده ، يقول ذلك كما قاله أصحابه في لفظ سهل رشيق غير

متكلف ، بل غير معنى به ، حتى يسقط في الخطأ اللفظي ، أو في الضرورة ،
فراى أبو نواس أن القوم قد استبقوا ، فلم يسبق أحد صاحبه ، فاقترح ألا
ينذهبوا إلى بيت أحد ، بل إلى حانة ، فقال :

أَلَا قَوْمُوا إِلَى الْكَرَّخِ إِلَى مَتَزِلِ خَمَّارِ
إِلَى صَهْبَاءِ كَالْمِسْكِ إِلَى جُونَةِ عَطَّارِ
وَبُسْتَانَ بِهِ تَحَلُّ لَه زَهْرُهُ بِأَشْجَارِ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَهْوَاؤَ أَتَيْنَاكُمْ بِمِزْمَارِ

أتريد أحسن من هذا الشعر دلالة على ما كان يمتاز به هذا العصر في
حياته المعنوية والمادية ، بل في تصوره وشعوره ، وتعبيره عن هذا التصور
والشعور ! عواطف حرة يصفها كلام حر ، ومعان سهلة مألوفة لم يبحث
عنها صاحبها ، ولم يطل البحث ، وإنما وجدها في نفسه ، فأظهرها في لفظ لم
يتكلف تخيره ولا نظمه ولا تنسيقه .

فأنت ترى أن هذا العصر إنما كان يمتاز في حياته الأدبية بخلال أربع :
الشك ، والحجون وحرية العواطف ، وسهولة اللفظ .
وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس ،
الذى سنتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس هذا العصر كله .

القدماء والمحدثون^(١)

أبو نواس

أنكر بعض الناس علينا وعلى السياسة حديث الأربعاء ، وألحوا في الإنكار ، وكتبوا في الصحف يعلنون إنكارهم ، ويطلبون إلينا وإلى السياسة أن نصلح هذا الحديث ، ونعدل به عن الشر إلى الخير ، وعن الهزل إلى الجدل ، وزعموا أن ما نرويه في هذا الحديث من شك الشعراء حيناً ، ومجونهم حيناً آخر ، مفسد لأخلاق الشباب ، مدنس لقلوبهم الطاهرة ، وتجاوزوا هذا إلى أكثر منه ، فزعموا أنا متكلفون مخطفون ، حين نصف القرن الثاني للهجرة بأنه كان عصر شك ومجون ، وأن الناس كانوا فيه أحراراً ، لا يكادون يأخذون أنفسهم في اللهو بخلق أو دين ، زعموا أننا مخطفون ، وأنا قد اتخذنا طائفة من الشعراء الماجنين ليس لهم وزن ، فجعلناهم مقياساً للعصر الذي عاشوا فيه ، وأعرضنا عن العلماء والفقهاء وأهل الجدل وأصحاب الحديث ، قالوا وليس هذا من الإنصاف في شيء .

كتبوا هذا كله ، وتجاوزوه إلى شتم نعرض عنه ، ونشكره لكاتبه ، ولعل حديث الأربعاء الماضي يغنيننا عن الرد على هؤلاء الكاتبين ، من بعض الوجوه ، فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد له تمثيلاً ، وأصدق لحياته تصويراً ، من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام ، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ، ومنازلهم الاجتماعية والسياسية ، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة ، لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء ، واستمتع بلذات الحياة في سره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم .

فلسنا إذن في حاجة إلى إعادة هذا الحديث والحوض فيه ، وإنما نلقت

(١) نشرت بالسياسة في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٤٣١ هـ - ٢٤ يناير سنة ١٩٢٣ م .

سادتنا المشفقين على أخلاق الشباب وطهارته ، إلى أنهم ليسوا أشد منا إشفاقاً على هذا الشباب ، أن يسوء خلقه ، أو يفسد قلبه ، ولكننا لسنا نرى رأيهم في هذا التخرج ، ولسنا نحب أن يكون شبابنا من الجهل والغفلة والضعف بحيث نخشى عليه بيتاً من الشعر ، ليس حظّه من المحبّون والفتنة شيئاً يذكر . فتحزن نتخير لهذا الشباب من هذا الشعر الدنس أقله من الإثم حظّاً ، وأنزروه من الفجور نصيباً ، ولسنا نرؤى لك ما يسمع وما لا يسمع ، ولسنا نحدثهم بما يقال وما لا يقال ، وإنما ننتظر في هذا كله إلى النوق والمنفعة جميعاً ، وأين يقع ما نرؤيه وما نتحدث به مما يقرأ الشبان ويسمعون ويرون من آداب الفرنجة وأحاديثهم ، وفي ملاحظهم وملاحظهم !

ولو أن ما نرؤيه وما نتحدث به هو الخطر الوحيد ، الذي نخشاه على أخلاق الشبان ، لكننا أسرع الناس إلى إجماله ، ولتحدثنا إلى قرائنا في الزهد والتقوى ، وفي الطاعة والنسك ، ولكن نخشى على الأخلاق أخطاراً أعظم وأسوأ وقعاً من هذا الحديث البريء الذي ننشره كل أسبوع . وهل يحب سادتنا أن يجهل الناس بشاراً وأباً نواس والرشيد والأمين؟ أم هل يحبون أن نعطيهم من هذا العصر صورة كاذبة كلها جده ، حين كان حظ هذا العصر من الهزل عظيماً ؟ على أن هؤلاء السادة الذين يتخرجون ويعتصمون بالدين ، يضيفون على الناس ما وسع الدين ، ويعسرون وقد أمرهم الدين أن ييسروا .

ونستطيع أن نؤكد لهم أن السلف الصالح من المسلمين ، كان أشد منهم بالله إيماناً ، وأكثر منهم لله طاعة ، وكان في الوقت نفسه أرحب منهم صدرًا ، وأشد احتمالاً ، فكان يسمع للجده ، وكان يسمع للهزل ، بل كان يجده وكان يهزل وإن أخلاقنا العامة وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس ما أنشد عبد الله بن عباس في المسجد الحرام ، وقد سئل عن الشعر « أينقض الوضوء » ؟ وإن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس ما أنشده عبد الله بن الزبير حين لقي الفرزدق بالمسجد الحرام أيضاً ، وكان عبد الله خليفة ، وكانت النوار زوج الفرزدق قد شكت زوجها . بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتاً قاله حسان ، يهجو به هنلاً زوج أبي سفيان ، فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به ، وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : « قل وروح القدس معك » .

نعم ! تمنعنا الأخلاق أن ننشر هذا الآن ؛ لأن العصر قد تبدل ، وقد تطورت نظم الحياة . ولكن هناك أشياء نستطيع نشرها دون أن نجنى على الأخلاق أو نعرضها للخطر . ونحن نستأذن السادة في أن نرغب في ألا تكون حياتنا خلافاً ، وإنما نريد ألا تخلو من الفكاهة واللذة . ولقد قال بعض الشعراء يمازح فقيهاً من فقهاء هذا العصر الأول :

سَأَلْتُ التَّقِيَّ الْمَسْكِيَّ ذَا الْعِلْمِ مَا أَلْدَى يَحِلُّ مِنَ التَّفْهِيلِ فِي رَمَضَانَ ؟
فَقَالَ لِي الْمَسْكِيُّ : أَمَا لِرَوْجَةِ فَسَمِعْ ، وَأَمَا خَلَّةِ فَمَانَ !
وقال شاعر آخر في مثل هذا المعنى :

سَأَلْتُ التَّقِيَّ الْمَسْكِيَّ هَلْ فِي تَمَاتِقِي وَضَمَّةٍ مُشْتَقِي الْفُرَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهِبَ التَّقِيَّ تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بَيْنَ جِرَاحُ ؟
ومثل هذا كثير كان يرويه العلماء والفقهاء ، ويعجبون به ويرتاحون له . وكان سفيان الثوري يقول ؛ إن أبا نواس أشعر الناس اتموله :

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْسِكِي فَيُذِرِي الدَّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْضَابِ

وقد انتهى بنا الحديث إلى أبي نواس . وأنا أريد أن أحدثك عن أبي نواس ، ولست أذكر لك أنه ولد سنة ١٤١ هـ ، ومات سنة ١٩٩ هـ ؛ فأنت تعلم ذلك ، وتستطيع أن تجده في أي كتاب من كتب الأدب . ولست أصف لك نشأته الأولى ، ففيها غموض كثير ، وفيها اختلاف واضطراب . وربما كان من الحق على ألا أنشر لك ما تحدث الناس به من شباب أبي نواس ؛ ففيه شيء من الإثم كثير ، قد يغضب ساداتنا المتحرجين ، وهو في الوقت نفسه يخالف أخلاقنا وذوقنا العام .

لا أحدثك إذن عن نشأة أبي نواس ، بل لا أريد أن أحدثك في هذا المكان عن سيرة أبي نواس وحياته ؛ فإن ذلك يحتاج من البحث والتحقيق العلميين إلى ما لا تحتمله الصحف السيارة . ولكني قلت : إن أبا نواس

كان مثالا صادقا لعصر الذي عاش فيه ، وإن العصر كان يمتاز بالشك
والحجون وإيثار اللذة ، وقلت في حديث آخر ، إن شعراء هذا العصر وأدباءه
كانوا قد اتخذوا لأنفسهم قاعدة ، هي أن يستمتعوا بلذات الحياة
ما استطاعوا ، فإذا أدركهم الشيب والضعف لجثوا إلى عفو الله ، ولا ذوا
به ، ولهذا كان أبو نواس يكره المعتزلة ، وينكر على النظام رأيه في الخطيئة
والتوبة .

قلت هذا كله ، وأريد في هذا الفصل أن أثبت لك أن أبا نواس لم يكن
قليل الخطار ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جداً ،
وأنه على هذه المكانة قد كان ماجناً ، مجاهراً بالهجون ، مستمتعاً باللذة ، لا يخشى
في ذلك سخط الأمراء ، ولا إنكار الفقهاء والمحدثين ، وإنما يعتمد على شيء
واحد ، هو عفو الله ، وأنه قد أخذ من الحياة لذاتها جميعاً ، فلما مرض وعلم
أنه ميت ، أنفق مرضه يتوب وينيب ، ويعتذر ويستغفر ، فلما مات رأى
بعض الرواة في المنام أن الله قد غفر له ، وأنه قد دخل الجنة .

ولست أروى لك ما سأرويه من كتب ليست موضع الثقة ، وإنما
أعتمد في حديث اليوم على كتاب واحد معروف لا أتجاوزه ، وهو « تاريخ
دمشق » للحافظ بن عساكر ، فانظر إلى الذين روى عنهم أبو نواس ،
وانظر إلى الذين روى عن أبي نواس من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث ،
فأما الذين روى عنهم — فيما ذكر ابن عساكر — فهم : حماد بن حماد ، وحماد
ابن يزيد ، وعبد الواحد بن زياد ، ومعتز بن سليمان ، ويحيى القطان ، وأزهر
ابن سعد السمان ، وأما الذين روى عنه فهم — فيما ذكر ابن عساكر أيضاً —
محمد بن إبراهيم ، وابن كثير الصيرفي ، وعبيد الله بن محمد العبسي ، ومحمد
ابن جعفر غندير ، وأحمد بن حمزة بن زياد الريفي ، وعمرو بن بحر الجاحظ ،
ويعقوب بن زيد الفارسي ، ومحمد بن إدريس الشافعي ، وجماعة سواهم .
فإذا أردت أن تعرف أقدار هؤلاء الفقهاء والمحدثين ، فارجع إلى طبقات
الفقهاء والمحدثين ، وستثق بأن شاعرنا لم يكن رجلا ما ، وإنما كان رجلا
يقدره أهل عصره ، ويكبرونه في كل ما عرض له من الفنون ، فكان أهل
اللغة يقولون : إنه أعلم الناس بالغريب ، وكان الأدباء يقولون : إنه أرق
الناس أدباً وأحسنهم شعراً ، وكان الخلفاء والوزراء والأمراء يعجبون بظرفه ،

وحسن حديثه ، وكان الشعراء يعترفون له بالزعامة والتفوق ، وكان الفقهاء والمحدثون لا يأنفون أن يحدثوه ، وأن يتحدثوا عنه ، ولو روينا لك الأدلة على هذا كله لأسرفنا في الإطالة .

لكننا ننتقل من هذا إلى ذكر شيء من دعاية أبي نواس ومجونه ، مع الفقهاء والمحدثين والخلفاء .

تحدث ابن عائشة أنه قال : كنا على باب عبد الواحد بن زياد ، ومعنا أبو نواس ، فقال : ليسأل كل واحد منكم . ثم قال : سل يا فتى ؛ فأنشأ أبو نواس يقول :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ
عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عَبْدِ
قَالَ : مَنْ مَاتَ مُجِبًّا فَلَهُ أَجْرُ شَهَادَةٍ

فالتفت إليه عبد الواحد بن زياد ، فقال اعزب عني يا خبيث ! والله لا أحدثك بشيء وأنا أعرفك ، فقام أبو نواس ، وقال : والله لا أتيت مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث !

وتحدث محمد بن جعفر قال : لقي شيبه أبا نواس ، فقال له : يا حسن ، حدثنا عن ظرفك فقال :

حَدَّثَنَا الْخُفَّافُ عَنْ وَائِلٍ وَخَالِدُ الْحِذَاءِ عَنْ جَابِرِ
عَنْ مِسْعَرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرٍ
قَالُوا جَمِيعًا : أَيُّمَا طِفْلَةٍ عَلَّقَهَا ذُو خُلُقٍ طَاهِرٍ
فَوَاصَلْتَهُ مُمَّ دَامَتْ لَهُ عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الْأَذَاكِرِ
كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةً تَرْتَعُ فِي مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ
وَأَيُّ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقًا بَعْدَ وَصَالٍ دَائِمٍ نَاصِرِ
فَفِي عَذَابِ اللَّهِ بُعْدًا لَهُ نَعْمَ وَسُخْقٍ دَائِمٍ دَاخِرِ

فقال له شيبه : إنك بلحميل الأخلاق !

فما رأى سادتنا المتخرجين ؟

وتحدثت سليم بن منصور قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي - وكان واعظاً - يبكي بكاء شديداً ، فقلت : إني لأرجو ألا يعدبك الله بعد هذا البكاء أبداً ، فأنشأ يقول :

لَمْ أَبْكِ فِي مَجْلِسِ مَنْصُورٍ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحُورِ
وَلَا مِنْ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ وَلَا مِنَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ
لَكِنْ بُكَايَ لُبْكَأِ شَادِنٍ تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورِ

ثم قال : أما ترى الأمر الذي عن يمين أبيك ! إنما بكيت رحمة لبكائه !

وتحدث ابن الزيات ، عن محمد بن ضوء بن الصلصال بن الملمس ، قال : كان أبو نواس يزورني في الكوفة ، فيأتي بيت خمار بالحيرة . يقال له جابر ، وكان نظيف الثوب ، يعتق الشراب ، فيكون عينده ما يأتي عليه سنون . قال فرأى في يده يوماً شيئاً عجيباً ، في نهاية الحسن وطيب الرائحة ، فقال لي : يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهم في صدر . قال : وكان معجباً بضرب الطنبور ، فكان إذا جاءني جمعت له ضرباً الطنابير ، ومعدنهم الكوفة ، فكان يسكر في الليلة سكرات . قال : فجاءني مرة من داره ، فقال : قد حدث أمر . قلت ما هو ؟ قال : نهاني أمير المؤمنين محمد عن شرب الخمر ، وأنشدني :

أُيْهَى الرَّائِحَانَ بِاللَّوْمِ لَوْمًا لَا أَذُوقُ الدُّمَامَ إِلَّا سَمِيمًا

القصيدة . . .

فقلت ماتريد أن تفعل ؟ قال : لا أشربها أخاف أن يبلغه أني شربتها . فأثناه بنبيذ ، وجلسنا في منزل جابر ، فلما دارت الكأس بيننا أنشأت أقول ، وأذكر قوله لي :

خَفِيَتْ عَلَيْكَ مَحَاسِنُ الْخَمْرِ أَمْ غَيَّرَتْكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ
فَصَرَفَتْ وَجْهَكَ عَنْ مُعْتَقَةٍ تَفْتَرُّ عَنْ خُلُقٍ مِنَ الْبَشْرِ

وَأَسَيْتَ قَوْلَكَ حِينَ تَمَزُّجُهَا فَتَرِيكَ مِثْلَ كَوَارِكِ النَّسْرِ
لَا تَحْسِبَنَّ عُمَارَ حَايِيَّةٍ وَالْهَمَّ يَجْتَمِعَانِ فِي صَدْرٍ

فأخذ يسبب الأمين في كلام لا نرويه . وشرب الخمر ، ثم شخص إلى محمد ؛ فقال له : أين كنت ؟ قال : عند صديق الكوفي ، وحدثه الحديث . قال فقال لي : ما صنعت حين أنشدك الشعر ؟ قال : شربتها يا أمير المؤمنين ، قال : أحسنت وأجملت ! ثم قال : اشخص حتى تحمل إلى صديقك هذا ، قال : فشخص فحملني إليه ، فلم أزل مع محمد حتى قتل .
ولكننا قد أكثرنا من رواية هذا المجون ، ونخشى أن نكون قد أنقلنا على المتحرجين ، فلنرو لهم شعراً لأبي نواس ملؤه البر والتقوى ، وفيه الزهد والموعظة .
نقل عن عبدوس رواية أبي نواس أنه قال : دخلت على أبي نواس الحسن بن هاني ، في علقته التي مات فيها ، فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ فقال أجدني قاتلاً :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْدَ قَ مِنْ ضَعِيفٍ مَهِينٍ
يَسُوقُهُ مِنْ قَرَارٍ إِلَى قَرَارٍ مَكِينٍ
يَحُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا فِي الْحُجْبِ دُونَ الْعُيُونِ
حَتَّى اسْتَوَتْ حَرَكَاتُ مَخْلُوقَةٍ مِنْ سُكُونِ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت . فلما كان من غد دخلت عليه ، فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلاً :

وَعَظَمْتَ أَجْدَاثُ صُمْتُ وَنَعَمْتَ أَزْمِنَةٌ خُفْتُ
وَسَكَلَمْتُ عَنْ أَوْجِهِ تَبَلَى وَعَنْ صُورِ سُبْتُ
وَأَرَنْتَ قَبْرَكَ فِي الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ
وَلَرَّبَّمَا انْقَلَبَ الشَّمَاتُ فَحَلَّ بِالْقَوْمِ الشُّمْتُ

ثم أطرق فتركته . فلما كان في اليوم الثالث دخلت عليه ، فقلت له : كيف تجددك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلاً :

يَا نُؤَاسِيُ تَفَكَّرْ وَتَعَزَّزْ وَتَصَبَّرْ
 سَاءَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ وَبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرَ
 يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفِّ وَاللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرَ
 أَكْثَرُ الْعِصْيَانِ فِي أَصْغَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْغُرُ

فلما كان في اليوم الرابع دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلاً :

كُنْ مَعَ اللَّهِ يَكُنْ لَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ لَعَلَّكَ
 لَا تَكُنْ إِلَّا مُعِدًّا لِلْمَنَآيَا فَكَلَّانَكَ
 إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْمًا وَاقِعًا دُونَكَ أَوْ بِكَ
 فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ وَبِتَقْوَاهُ تَمَسَّكَ
 نَحْنُ نُمِئِي بَيْنَ أَسْبَابِ سُكُونٍ وَتَحَرُّكَ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الخامس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلاً :

يَا نَاطِرًا يَرْتُو بِعَيْنِي رَاقِدٍ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْسِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ
 مَنَّكَ نَفْسِكَ ضَلَّةً فَأَبْحَثَهَا طَرِيقَ الْجِمَامِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُرَاصِدٍ
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَمِحِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَايِدِ
 وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

قال : ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم السادس دخلت عليه فقلت له : كيف تجدك يا أبا نواس ؟ قال أجدني قاتلاً :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلُوًا وَأَرَانِي أُمُوتُ عُضْوًا فَعُضُوًا
 لَيْسَ تَأْتِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا تَقْتَضِينِي بِمَرَّهَا بِي جُزُؤًا

ذَهَبْتُ جِدَّتِي بَطَاعَةَ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نَضْوَا
 قَدْ أَسَانَا كَيْلَ الْإِسَاءَةِ يَا رَبَّ فَصَفَحَا عَنَّا إِلَهِي وَعَفَوَا

ثم أطرق وانصرفت ، فلما كان في اليوم السابع دخلت عليه فقلت له :
 كيف تجددك يا أبا نواس : قال أجدني قائلا :

إِنِّي وَمَا جَعَمْتُ مِنْ صَفَدٍ وَحَوَيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمِنْ لَبَدٍ
 هَمُّهُمْ تَصَرَّفَتِ الْخَطُوبُ بِهَا فَغَدَوْتُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
 لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ مَتَّهَمًا لَمْ تُنْمَسِ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ

ثم أطرق فتركته وانصرفت ، فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل ،
 فلقيني الغلام في الطريق ومعه رقعة مخطومة ، فسألته عنه ، فقال : أعظم الله
 أجرك في أبي نواس ! فقد تُوفِّي ، وكان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته ؛
 فقرأتها فإذا فيها :

شِعْرٌ حَتَّى أَنَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقَفَا
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَأَبْصَرْتَ وَجْهِي لَمْ تَجِدْ مِنْ مِثَالِ رَسْمِي حَرْفَا
 نَفْسٌ خَافَتْ وَجِسْمٌ نَحِيلٌ أَرْمَضَتْهُ الْأَسْقَامُ حَتَّى تَعَفَى

فجئت معه إلى منزل أبي نواس ، فإذا به قد مات ، ونظرت فيما خلف ،
 فإذا مقدار ثلثائة درهم ، وإذا بين مخطوته رقعة فيها هذا الشعر :

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
 أَدْعُوكَ رَبُّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي مَن ذَا يَرْحَمُ
 إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَمَنِ الَّذِي يَرْجُو وَيَخْشَى الْمُجْرِمُ
 مَالِي إِلَيْكَ وَسَيْلَةٌ إِلَّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ مُمٌّ أُنَى مُسْلِمٌ

قال : فوقف حتى جهزناه وصلينا عليه ودفنناه وانصرفت .

أكثر هذا الشعر لأبي نواس من غير شك ، ولكن هذه القصة التي رويناها
 ج ٢ (٤)

متكلفة من غير شك أيضاً ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته ، وقال بعضه عند ما أحس الموت . ولسنا نأخ في هذا البحث ولا نفصله ، فقد أطلنا أكثر مما ينبغي ، وإن كان ذنب هذه الإطالة يقع على أبي نواس أكثر من وقوعه علينا . فقد رأيت مكانة شاعرنا ، ورأيت مذهبه في الدين والمجون والشك . فلنترك هذا كله ، ولنحدثك عن قيمة أبي نواس الشعرية في الأسبوع الآتي .

القدماء والمحدثون^(١)

أبو نواس - النقد في عصره - نقد
الفقهاء - نقد الأدباء - أشعر الشعراء .

زعمت لك في الأحاديث الماضية أن أبا نواس كان مثالا لعصره ، وأن الذين عاصروه كانوا يعجبون به الإعجاب كله ، ويقدمونه على شعراء عصره جميعاً إلا بشار بن بُرد . وأريد اليوم أن أؤيد هذا الزعم ، وأن أستوفي هذا الموضوع حقه من البحث ، ويخيل إلى أن بحثاً كهذا - على ما فيه من الرواية والنقد - لن يخلو من فائدة ، وإن خلا من لذة ، أو بعبارة أصح : وإن لم يحدث في نفسك هذه اللذة التي يحدثها الشعر الماجن الظريف .

لن يخلو هذا البحث من فائدة ؛ لأنه سيظهرك على ما كان للأدباء والشعراء والفقهاء وأصحاب الكلام وأئمة اللغة من رأى في هذا الشاعر ، الذي اخترت شعره موضوعاً لهذه الأحاديث ، ولأنه سيبين لك طريقة هؤلاء الناس جميعاً في نقد الشعر ، وفي فهمه ، وفي تصوره والحكم عليه .

وليس هذا بالشيء القليل ، ولقد أضطر إلى أن أستأذن رجال الأدب القديم ، من المعاصرين ، في أن أكون جريئاً وحرّاً في هذا البحث ، وأرجو ألا تغضبهم هذه الجرأة ، ولا تسوءهم هذه الحرية ، وأؤكد لهم أني لم أعمد إليهما عمداً ، وإنما اضطررت إليهما اضطراراً ، اضطرني إليهما بحث أعتقد أنه صحيح ، وصدق في التاريخ أعتقد أنه واجب على الباحثين .

إذن فأنا أستأذن أئمة الأدب ، وشيوخه المعاصرين في أن أكون حرّاً ، وفي أن أكون جريئاً ، وفي أن أزعم أن الذين عاصروا أبا نواس وجاءوا بعده من الأدباء والشعراء وأئمة اللغة ، لم يكن لهم في النقد مذهب معروف ، أو خطة واضحة ، وإن شئت فقل : إنهم قد كانوا يذهبون في النقد مذاهب

(١) نشرت بالسياسة في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ هـ - ٣١ يناير سنة ١٩٢٣ م .

لا ترضينا ، ولا تحقق ما أصبحنا نسمو إليه من مثل أعلى في النقد خاصة ،
وفي الأدب عامة .

واست أدري أكانت هذه المذاهب تحقق ما كان يسمو إليه أدباء
العصر العباسي أم لا . ولست أدري أكانت تظل حال النقد على ما كانت
عليه أيام الجاحظ والمبرد ، لو أن حياة العرب السياسية لم تفسد ، ولم تتغلب
أجناس أخرى أعجمية على السلطان العربي . ولكنني أستطيع أن أقول
إن هذه المذاهب التي نجدتها منبثة في كتب الأدب على اختلافها قبل
أن يصبح البيان علماً ذا قواعد وأصول ، ليس من شأنها أن ترضى باحثاً أو
تقنع أديباً . وإنما نستطيع أن نقول إن أدبنا العربي يخلو أو يكاد يخلو من النقد
الصحيح خلواً تاماً .

إلام تقصد إذا عرضت لشاعر من الشعراء وأردت أن تقر شعره وتفهمه
ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن إلى أشياء :

الأول : أن تصل إلى شخصية الشاعر ، فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه
ما استطعت ، فتعرف كيف أحس ما أحس ، وكيف شعر بما شعر به ،
ثم كيف وصف إحساسه ، وأعرب عن شعوره .

والثاني : أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء ،
وسيلة إلى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر ، والبيئة التي خضع لها هذا
الشاعر ، والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر ؛ فأنت لا تقصد إلى فهم الشاعر
لنفسه ، وإنما تقصد إلى فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة
التي يعيش فيها .

ومهما تكن مقتصداً ، ومهما تكن متواضعاً ، فأنت سواء شعرت بذلك
أم لم تشعر به ، لا تقنع بالأشخاص ، وإنما تطمع في الجماعات ،
لا ترضى بالجزئي ، وإنما تسمو إلى الكلي ، كما يقول أهل المنطق . فأبو نواس
وحده لا يعينك ، وإنما يعينك أبو نواس من حيث إنه كان يعيش ، لا أقول
مع فلان وفلان . وقل مثل ذلك في شوقي ، وقل مثله في حافظ .

فالشاعر ليس شاعراً لأنه يقول فيحسن ، وإنما هو شاعر لأن قوله
الحسن هذا يمثل عواطف الذين يسمعونه ويقرءونه ، يرضيهم ويقنع من
نفوسهم موقع الإعجاب . ولم يرضك البيت من الشعر إلا لأنه يوافق

هوى في نفسك ، ويلأثم عاطفة من عواطفك ، ويرضى حاجة من حاجاتك إلى الجمال .

إذن فأنت تنقد الشاعر لفهم شخصيته أولاً ، ثم جماعته أو عصره أو بيئته ، أو هذا كله ثانياً . وهناك شيء ثالث تقصد إليه حين تقرأ الشعر وتحاول نقده ، وهو اللذة : اللذة الفنية ، اللذة التي تجدها إذا نظرت إلى شكل جميل ، أو استمعت إلى قطعة من الموسيقى ، أو خضعت لمظهر من مظاهر الطبيعة الساحرة . عقلك وشعورك يعملان إذن حين تقرأ الشعر ، وحين تنقده ؛ لأنك تريد أن تفهم ، وتريد أن تلتذ .

ولا تقل إن في هذا شيئاً من التحرج ، أو إن فيه تضيقاً ومحاولة من هذه المحاولات التي أرادت غير مرة أن تجعل النقد علماً ذا قواعد وأصول فلم تفلح ، ولم توفق إلى شيء كثير . لا تقل هذا ؛ فإنني لا أتخرج ، ولا أضيق ، ولا أحاول أن أضع للنقد قواعد وأصولاً معينة ، وإنما أحاول أن أفهم معك معنى النقد ، وما يرمى إليه الناقد . ومهما تختلف مذاهب النقاد المحدثين ومسالكهم ، فهم يقصدون إلى هذا كله أو بعضه .

سل « سانت بوف » (Saincte-Beuve) ينبئك بأنه يعنى قبل كل شيء إذا قرأ قصيدة من الشعر ، أو فصلاً من النثر ، بأن يجد شخص الشاعر أو الكاتب ، وبأن يحلل هذا الشخص ، ويصل إلى دقائقه ودقائقه ، كما يفعل علماء التاريخ الطبيعي في معاملهم ، ولكن الشخص وحده لا يكفي ولا يعنيه ؛ وإنما هو يتخذ هذا الشخص وسيلة إلى النوع ، يتخذ هذا الجزئي وسيلة إلى الكلي .

ثم سل « تين » (Taine) ينبئك بأن شخص الشاعر ، أو الكاتب ومزاجه وعواطفه وكل ما يكون نفسه ، لا يعنيه إلا من حيث هو أثر من آثار العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي خضع لها ، والأمة التي نجم منها . فالشخص عنده أثر من آثار هذا العصر ، وهذه البيئة ، وهذه الأمة .

ثم سل « جول لمتر » (Jules Lemaitre) ينبئك بأن هذا كله لغو وثرثرة ، وأن الفن وحده هو الذي يعنيه ، ويعنيه من حيث إنه يؤثر في النفس ، فيبعث فيها العواطف على اختلافها ، ويبعث فيها الرضا والإعجاب .

وفي الحق أن الناقد لا يقنع بما كان يتنعم به « سانت بوف » أو « تين »

أو «جول لمر» أو غيرهم من النقاد ، وإنما يودّ لو استطاع أن يوفق لهذا كله ، ويستخلص منه غرضاً شاملاً يطلبه ويسمو إليه حين ينقد ، فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب ، وعصره ، وفنه .

ولست أريد أن أتعلم في تفصيل هذا كله ، فإن فصلا من فصول الصحف السيارة لا يتسع لمثل هذا التعمق ، وإنما أردت أن أنتهي بك إلى ما نطلبه الآن إلى النقد ، لأنقل من هذا إلى ما كان يطلبه المعاصرون لأبي نواس إلى هذا النقد . والحق أن الفرق بين الغرضين عظيم جدا : نطلب نحن كثيراً ، ولم يكن يطلب القوم إلا شيئاً قليلاً .

قلت في أول هذا الفصل ، إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة في النقد، أو إن مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا ، وكلا القولين صحيح ، فإننا لانعرف لأدباء القرن الثاني والثالث للهجرة مذهباً في النقد معروفاً ، أو خطة فيه واضحة .

ومع ذلك فقد نقدوا ، وحكموا على الشعر والنثر ، فاستحسنوهما وازدروهما ، ولم تكن أحكامهم متفكة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة ، وإنما كانوا يختلفون ، ويختلفون اختلافاً كثيراً . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن كل فريق من أهل ذلك العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذي غلب عليه مقياساً لنقده ، وميزاناً لرأيه ، في جودة الأثر الأدبي أو رداءته .

فالجيد عند أبي عبيدة ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، وابن الأعرابي : ما اشتمل على الألفاظ الجزلة المتينة ، والأساليب الفخمة الرصينة ، وما كان إلى لغة الأعراب أقرب منه إلى لغة أهل الحضرة .

والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ، ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ، وإنما تناولوا الأدب من حيث هو ، وعنوا بالمعاني عناية لا تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، وربما تفوقها : ما اشتمل على المعنى الطريف في اللفظ المستعذب ، الذي لم يمعن في الغرابة ، ولم يسفل إلى لغة السوق .

والجيد عند الفقهاء والمحدثين : ما لاعم أصلاً من أصول الدين ، أو غرضاً من أغراضه ، أو نزعة من نزعاته .

ومن هنا كان يونس بن حبيب وأبو عبيدة يؤثران الفرزدق على جرير ، وكان بشار وأبو نواس يؤثران جريراً على الفرزدق . ولما كُتِبَ بشار في ذلك قال : ليس ذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله إلخ . . . وروى مثل هذا في أمر أبي نواس ومسلم ، فقد كان الأدباء والشعراء يفضلون أبا نواس ، وكان ثعلب يفضل مسلماً . وسئل البحرى عن ذلك ففضل أبا نواس ، فلما ذكر له أمر ثعلب قال كلاماً كالذى قاله بشار .

ولعل مما يمثل لك هذا المعنى تمثيلاً حسناً ما كان بين المأمون وابن الأعرابي . فقد سأل المأمون هذا الإمام اللغوي عن أجود ما قيل في الخمر ، فأخذ يذكر له شعر الأعشى والأخطل ، وما رواه له قول الأعشى :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ فَوْقِهَا وَهِيَ فَوْقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مِنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ

فلم يحفل المأمون بشيء من ذلك ، بل آثر قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءِ فِي السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مَرَجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصُّبْحِ فِي الظُّلَمِ
فَاهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّمْرِ بِالْعَلَمِ

فانظر إلى هذين الدوقين المختلفين ، فأما المأمون فحضرى يؤثر المعنى الجيد في اللفظ السهل . وأما ابن الأعرابي فمحب للغريب ، مؤثر للفظ الجزل .

وكان أبو عمرو الشيباني يقول : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره . وكان كثير من أئمة اللغة والفقهاء والمحدثين والمتكلمين يعجبون بأبي نواس ، ولا يكرهون منه إلا هذا الرفث والحجون ؛ ذلك لأن مقامهم وصداعاتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ .

فأما الأدباء والشعراء ومن إليهم فكانوا يعجبون بأبي نواس إعجاباً لا حد له ، لا يصرفهم عنه أنه آثر السهل على الغريب ، أو الهزل على الجلد ، وربما رغبهم ذلك في شعره ، وحبب إليهم سيرته .

ولو أنى ذهبت أروى لك آراء هؤلاء العلماء ، والأدباء والشعراء في أبي نواس ، لأطلت عليك إطالة ثميلة مماولة ، ولكنك تستطيع أن تصدقنى ،

وأن ترجع إلى الكتب فترى أن إجماع هؤلاء منعقد على أن أبا نواس أشعر المحدثين ،
لا يستنون منهم إلا بشار بن بُرد .

ومع هذا فليست أرى لهذا الإجماع قيمة ولا خطراً ، لأن القوم حين استحسناوا
شعر أبي نواس لم يستحسنوه عن درس مفصل مستقصى ، وإنما كان يعجب
أحدهم البيت أو البيتان أو المقطوعة أو القصيدة ، فلا يأتي أن يقول
إن أبا نواس أشعر الناس . فانظر إلى من فضل أبا نواس على الشعراء جميعاً
لأنه قال :

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَرْبَابِ

القصيدة . . .

وانظر إلى الأصمعي يفضل أبا نواس لأنه قال :

أَمَا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتِ الْحَمَلَا وَقَامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَا

وانظر إلى ابن الأعرابي ، الذي كان يفضل أبا نواس على الشعراء
جميعاً لقوله :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيَّنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ نَسَّالُ الْأَيَّامُ مَا أَسْمِي لَمَا دَرَّتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِي

وانظر إلى أبي العتاهية والعتابي ، اللذين كانا يفضلان أبا نواس على
الشعراء جميعاً لقوله :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَأُنْثَى وَفَوْقَ الَّذِي نُثْنِي

وكان أبو نواس نفسه يفضل أبا العتاهية على الشعراء جميعاً لقوله :

النَّاسُ فِي غَفْلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ

وفضَّل المبرد أبا نواس على المحدثين جميعاً ؛ لأنه شبه ومدح في أربعة

أبيات ، فقال :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نِسَائِهِمْ لِي الْكَيْدُ الْحَرَّى فِسْرُ وَلَكَ الصَّبْرُ

وَقَدْ خَضَّبَتْهَا عِبْرَةٌ فَلِدْمِعِهَا عَلَى خَدَّهَا خَدٌّ وَفِي نَحْرِهَا نَحْرُ

وَقَالَتْ إِلَى الْعَبَّاسِ؟ قُلْتُ فَمَنْ إِذَنْ وَمَالِي عَنِ الْعَبَّاسِ مَعْدَى وَلَا قَصْرُ
فَهَلْ يَكْلَفُنْ إِلَّا بَرَاحَتِهِ النَّدَى وَهَلْ يَزْهُونُ إِلَّا بِأَوْصَافِهِ الشُّعْرُ

وأعجب من هذا أن هؤلاء الناس الذين كانوا يفضلون أبا نواس في هذه اللحظة ، كانوا يفضلون غير أبي نواس في لحظة أخرى . فلو أنك أردت أن تعرف من شعر الناس عند هؤلاء الأدباء والعلماء ، لكان الناس جميعاً أشعر الناس !

وما زال العرب يسأل بعضهم بعضاً من أشعر الناس ؟ فيجب المسئول أشعرهم من قال ، ثم يروى بيتاً أعجبه ، ولا يمنعه ذلك أن يروى غداً بيتاً آخر لشاعر آخر ، على أن هذا البيت أجمل الشعر ، وعلى أن هذا الشاعر أشعر الناس . وعلى هذه القاعدة وصل كل شاعر إلى هذه المنزلة ؛ لأن لكل شاعر بيتاً جيداً على أقل تقدير .

فأنت ترى أن مثل هذه الأحكام لا يمكن أن يطمئن إليها ناقد في نفسها ، ولا أن يطمئن إليها من حيث إنها تمثل آراء أصحابها ؛ فإن هؤلاء النقاد إنما كانوا يجيئون بما يحضرهم لا أكثر ولا أقل .

ومع هذا كله فما زلت أرى أن معاصري أبي نواس كانوا يقدمونه ويدينون له بالزعامة . وليس هذا الاقتناع عندي أثراً من آثار هذه الأحكام التي رويت لك طرفاً منها ، وإنما هو أثر القراءة الطويلة في الكتب الكثيرة ، وأثر الموازنة بين الشاعر ومن عاصره ومن جاء بعده .

كان القدماء يؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا في ذلك محقين ، ولكنهم لم يقولوا ، ولعلمهم لم يعلموا ، لماذا كانوا يؤثرون أبا نواس ؟ فن الحق أن نبحث نحن عن مصدر هذا الإيثار ، أو عن مصدر هذا التفوق الذي ليس فيه شك ، وأن نبحث عن هذا المصدر ، لا كما بحث المتقدمون في البيت أو البيتين أو القصيدة ، وإنما في الديوان كله . ومن الحق ألا يكون سبيلنا في هذا البحث جودة اللفظ والمعنى وحدهما ، إنما سبيلنا فيه اللفظ والمعنى ، وما بين اللفظ والمعنى ونفس الشاعر من صلة ، وما بين نفس الشاعر وعصره من صلة أيضاً ، وهذا هو الذي سنبدأ به في الأسبوع الآتي .

إلى الأستاذ طه حسين^(١)

سيدي الأستاذ !

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية عن أدب القدماء والمحدثين ،
أو «حديث الأربعاء» ، ومما يلفت النظر ، ويستدعي التمحيص والحذر في
ذلك الحديث ، حكمكم أن أبا نواس ومن في طبقتة أو على شاكلته من الشعراء
كانوا مثالا صادقا للعصر الذي عاشوا فيه ، وأن الرشيد والمأمون ذهبوا من الشك
والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر ، مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء
الحجون ، وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم ، واستنتجتم منها
ذلك الحكم الذي يحتاج إلى تمحيص كثير .

نعم ! إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة
لأول وهلة ، لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها
وقائلها ، وهم معروفون مشهورون في التاريخ . لكن هذا وحده لا يكفي لمثل
ذلك الاستنتاج ، ولا تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع ، كتاريخ
الرشيد والمأمون ومن عاصرهما من العلماء والفضلاء ، وأرى أن الأستاذ تعجل
في الحكم ، لتلقيه أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من شعره ، كأخبار صحيحة
لا غبار على نسبتها إليه ، وصدورها عنه ، وهذا لا يصح للمؤرخ المحمص
التسليم به ، والسكوت عليه .

إن الحقائق التاريخية ، ولا سيما في تاريخ الإسلام ، تشبه الدر الملقى بين
أشواك ، يحتاج مرید استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر
في وجوه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً في مذاهب
الشك التي ذهب إليها الأستاذ ، وإنما يكفي أن ننهب بما نقول - وهو العلم -
إلى ما عاناه رواة الحديث ، ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار
وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي

(١) نشرت بالسباسة في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هـ - ٧ فبراير سنة ١٩٢٣ م .

انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ، كانت تعمل للسياسة باسم الدين ، وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية ، وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له ، هذا فيما له صلة بأصل الشريعة ، وانتساب إلى صاحب الشرع ، فما بالك بأخبار الخلفاء ووقائع التاريخ وأخبار الناس !

نقرأ شيئاً في التاريخ وشيئاً في كتب القصاصين ، عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية والسياسية على الأصح ، في عصور الخنة التي مرت على المسلمين ، نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية ، وأخباراً نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس ، هي أخط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت ، كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أنزلهم إليها الوضعون ، ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الدائمة في التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص ، واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق ، لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى ، التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التي ينبغي أن تقال ، إن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء ، وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك ، أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة ، لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عرف عنه من بعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأمم ومنازعتها ، شأن كل مؤرخ بحث لا يلتقي الكلام على عواهنه ، ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ، ولا شك عندك منصف أن ابن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المحزونين ، هذا إذا صححت كل أخبار المحزون المنسوبة إلى هؤلاء .

أما القصص أو كتب القصاصين فلها شأن آخر ؛ لأن واضعها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية ، أو سياسية ، أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، وأما البواعث السياسية أو الدينية ، فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام ، والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن ؛ إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، وهم بالضرورة في حاجة إلى الاجتماع ، فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم ، تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ، ثم سياسة الخلفاء وحكامهم . وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما نقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة ، الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه ، بارعلم ينفع ، أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار ؛ فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات ، فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد ، فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ومن ذلك أخبار الفتوحات ، كفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح اليمن ، المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له ، وكتاب قصة عنزة العبسي وواضعها مجهول ، وكتاب ألف ليلة وليلة وكتابتها مجهول أيضاً ، وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك .

ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة ، لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس ، تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب ، كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك . . . فكان منها الغث والسمين ، ومنها المملق والقريب من الصحة .

وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المحبون والتهتك والانغماس في الشهوات ، مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق ، لما فيها من

العبث بالأخلاق ، والتجرد عن معنى الأدب ، الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ، ينفى ما ينسب إليهم من اطراح رداء الحشمة والمرورة . ولا أظننى مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر ، ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ، ويتخذة دليلاً على حكمه على أهل ذلك العصر ، إنما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهيات العامة إلى أمثال تلك القصص الخزية والروايات المفققة . على أنه لو صح شيء منه ، لما كان لنا أن نتخذة دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر ؛ لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تظاول إلى النيل من سواه باسم المجون .

على أنى أعتقد كما قلت أن ما نسب إلى أولئك الشعراء كأبى نواس وبشار ومن فى طبقتهم محل للشك ، ولا سيما إذا صح أن شعر أبى نواس لم يجمع فى كتاب (ديوان) على حدة فى حياته ، وإنما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون ، وتناولوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد . ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها ، لا يحتاج إلى تعريف بعد الذى قدمناه . وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردد فى قبول رواية عبدوس عن المقاطيع الشعرية التى قال إن أبى نواس أنشدها له قبيل وفاته فى أيام متتابعة فى التوبة والاستغفار ، تردد الأستاذ فى صحتها وقال : إنها قصة متكلفة من غير شك ، وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر فى أوقات مختلفة من حياته .

فالذى يجوز للأستاذ الشك فى صحة هذه القصة يجوز الشك فى صحة أكثر القصص ، والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء المجون ، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية ، فلا يصح أن تتخذ مثلاً صادقاً لذلك العصر ، وإذا قرئت فلنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جدّ لا هزل ، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات من السنين .

ولقد أحسن الأستاذ فى مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك فى قوله : إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً ، وإنما يريد ألا تخلو من الفكاهة

واللذة . فإن في قوله هذا دليلا على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبء الحمل الذي ألقاه على عاتقه ، وأن يستدرجنا ، ونعم ما فعل ، إلى الشك في صحة تلك القصص المخزية ، وأنه إنما أوردتها للفكاهة ، ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله « إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ، ولا رجلا لا يؤبه له ، وإنما كان ذا مكانة عالية ، وعالية جدا » ثم سرد عن تاريخ الحافظ ابن عساكر أسماء من رووا عن أبي نواس ، وروى عنهم أبو نواس .

ولا جرم أن المهاجرة بالمجون ، والاستمتاع باللذات ، ثم رواية الحديث ، نقيضان لا يجتمعان ، وهذا ما يؤيد رأينا في أن أكثر ما نقل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء المجون ، إنما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة ، وأنه لا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر . وفوق كل ذي علم عليم .

رفيق العظم

رد على نقد (١)

كيف تفهم التاريخ؟ - المؤرخون في عصور
المجد - المؤرخون في عصور الانحطاط .

ما زلت أذكر هذا المقال الرائع الذي نشرته « السياسة » للأستاذ رفيق بك العظم منذ أسبوعين ، ووعدت بالرد عليه ، ثم حالت حوائل بيني وبين هذا الرد إلى الآن . ما زلت أذكر هذا المقال ، وأريد أن أرد عليه ؛ فإن الخلاف بين هذا العالم الجليل وبينى لا يتناول أشياء مفصلة فحسب ، وإنما يتناول أيضاً مبدأ عاماً قبل كل شيء .

وقد عرف الناس رأى هذا العالم الجليل في هذا المبدأ ، وأريد أن يعرف رأى فيه ، ولست أدري أأطمع في إقناع هذا العالم الجليل أم أياش منه ؟ لأن الخلاف بينه وبينى جوهرى جداً ، وشديداً جداً ، يذهب مذهباً في التاريخ وفهمه ، وأذهب مذهباً آخر في التاريخ وفهمه ، ويخيل إلى أن ليس إلى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .

لا يزال العالم الجليل رفيق بك العظم ، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق ، يسبغون على التاريخ الإسلامى صفة من الجلال والتقديس الدينى ، أو الذى يشبه الدينى . تحول بين العقل وبين النخل فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمى الصحيح ، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجمال خطرهم وتقديس مكانتهم ، وهم يضيفون إليهم كل خير ، وينزهونهم عن كل شر ، وهم يصنفونهم بجلال الأعمال ، ويرفعونهم عن صغائرهما ، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث ، ومقياساً من مقاييس النقد ، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً إلا إذا كان فى نفسه خليقاً بالرشيد ،

(١) نشرت بالسياسة فى ٦ رجب سنة ١٣٤١ هـ - ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ م .

يليق به وبمكانته . وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها ، وإنما هي المكانة التي خلعها عليه القدم ، وبعد العهد ، وجلال الخلافة ، وكرامة الدين ، وسطاوة الأمة العربية .

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي ، فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ، ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس ، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم ، والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات ، وما اكتنفها من الثلوف والأحوال ، فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه .

ولست أغض من هؤلاء العلماء ، وإنما أجلبهم وأكرمهم ؛ وحسبك أن إمامهم في هذا المذهب هو ابن خلدون . ولعلك تعلم أني أجلب ابن خلدون وأكبره ، ولكني أخالفهم في الرأي ، وأرى أن مذهبهم في التاريخ غير مستقيم ، وأنه خليق بأن يتغير ، وأنه سيتغير بدون شك . بل أنا أرى أكثر من هذا ، أرى أن هذا المذهب — مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، مذهب إسباغ الدين على التاريخ — طور من أطوار التاريخ لا بد من أن يمر به ، بل طور من أطوار الحياة العقلية والسياسية للناس ، لا بد من أن يمروا به . وقد خضعت لهذا الطور أمم أخرى غير العرب ، فكتب مؤرخوها كما يكتب الأستاذ رفيق بك العظم ، ورأوا في الآباء والأجداد ما يرى في قدماء العرب .

ذلك أن هذه الأمم إذا اضطرتها ظروف الحياة إلى أن تنزل عن مجدها ، وتنحط عن مكانتها العالية ، فتخضع لخطوب الدهر حيناً ، وتنام عن العزة والسلطان ، ثم استفاقت من هذا النوم ، وتنبهت بعد الغفلة ، وطمحت إلى أن تسترد مجد القديم ، وتستأنف سيرها في سبيل العلياء ، فأول شعور تجده في نفسها إنما هو الشعور بهذا المجد القديم ، والحاجة إلى إجلال أصحابه وإكبارهم واتخاذهم مثلاً علياً .

فأنت لا تنظر إلى هؤلاء الناس نظراً علمياً مجرداً بريئاً ، وإنما تنظر إليهم نظراً متهماً ، ملؤه الإعجاب والإكبار ؛ لأنك تتأثرهم ، وتحتذى على مثالهم . وإذن فأريك فيهم غير صحيح ، وحكمك لهم أو عليهم متهم . وكيف تستطيع أن تجمع بين الإعجاب الذي لا حد له ، وبين النقد العلمي الذي لا يعرف الهوى ، ولا يتأثر بالمبول والعواطف ! ومن هنا يتأثر بحثك ونقدك بهذا الإعجاب ، وهذا الميل إلى الاحتذاء والتقليد ، فتصرف همتك إلى أن تبرئ

موضع إعجابك من كل عيب ، وتدفع عنه كل مكروه ، وتبذل ما تستطيع من قوة وجهد ، لتوجد فناً من النقد التاريخي له قيمته وخطره .

ولكن الغاية التي يسمو إليها ليست علمية بالمعنى الصحيح ، لأنه يسمو إلى التنزيه والتمجيد ، لا إلى التحقيق الذي لا يسمو إلى مدح ولا إلى ذم ، والذي لا يحفل بحمد أو هجاء .

انظر إلى مقدمة ابن خلدون ، وإلى القسم الأول من هذه المقدمة ، انظر بنوع خاص إلى منهجه التاريخي ، وإلى هذا النقد الذي بسطه ليبين أغلاط المؤرخين وتورطهم في ضروب من الخطأ في الحكم ، تجده قد تصور قواعد علمية لا بأس بها ، فهو يكره الغرض والهوى ، ويحذر من أخطار كثيرة تحيط بكاتب التاريخ ، ويجب عليك ، أو يحتم عليك ، تحكيم العقل فيما يروى لك من الحوادث ، وهو يصل من هذا كله إلى استكشاف قوانين قيمة في النقد التاريخي ، ولكنه لا يكاد يعرض لتطبيق هذه القوانين كما يتولون ، حتى يتورط في مثل ما تورط فيه المؤرخون من قبل ، لأنه متأثر بمجد القدماء ، وصلاح القدماء ، وطهارة القدماء ، وانحطاط المعاصرين ، وفساد أخلاقهم وأحوالهم .

فهو إذا أراد مثلاً أن يصحح نسب الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى لم يعتمد على بحث تاريخي ، وإنما استدل على صحة هذا النسب بحديث شريف ، فيه أن الولد للفراس وللعاشر الحجر ، وهو إذا أراد أن يدفع عن الرشيد ما اتهم به من العبث والحجون ، لم يذهب مذهب المؤرخين في ذلك ، وإنما تحدث إليك بأن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ، وإذا كان هذا شأنه فليس من الممكن أن يعبث ، ولا أن يلهو .

ولم يفكر ابن خلدون في أن من حق مؤرخ آخر ، أن ينكر عليه أن الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم ، أو أن يزعم له أن الرشيد كان يجمع بين الصلاة وبين العبث ، ولم ينظر ذلك لابن خلدون ، لأن ابن خلدون كان يعجب بالرشيد ويكبره ، ويريد أن يضعه هو وأمثاله من الخلفاء موضع القدوة الصالحة والمثل الأعلى .

ولقد أذكر رسالة صغيرة قرأتها للمؤرخ اليوناني « بلوتارك »

« Plutarque » قصده بها إلى نقد « هيرودوت » « Hérodote » واتهمه فيها بالكذب والافتراء ، وكان لهذه الرسالة في العصر القديم شهرة أساءت إلى « أبي التاريخ » فظن فيه الناس الظنون ، لأنه اتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحرب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة ، فوصف بعضهم بالخيانة ، وبعضهم بالغدر ، وبعضهم بالخبث ، وبعضهم بالرشوة . ونهض « بلوتارك » للدفاع عن هؤلاء الأبطال فزعم أن « أبا التاريخ » كاذب ، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة ، وأعلى منزلة ، وأجل خطراً ، من أن يقعوا في مثل هذه الآثام .

وقتن اليونان بهذا النقد لأنه يبرئ الآباء والأجداد من هذه النقائص ، فلما كان العصر الحديث ، وكان استكشاف الآثار اليونانية ، وكان استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ ، ظهر أن « هيرودوت » لم يكذب ولم يتكلف ، وأن « بلوتارك » هو الذي تكلف تقديس الناس وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس .

وليس هذا بغريب ، فقد عاش « أبو التاريخ » في أيام مجد اليونان وعزتهم ، فلم يكن يؤذيه ، ولم يكن يؤذي اليونان ، أن يصف أبطالهم بما لا يسلم منه الناس من العيوب ، وعاش « بلوتارك » أيام ذلة اليونان ، وانحطاطهم السياسي ، فكانت هذه النقائص تؤذيهم ، وكانوا محتاجين إلى المبالغ في مجدهم التليد حين أعوزهم المجد الطريف .

هذه حالنا ليس لنا مجد ولا مآثرة ؛ فنحن نتحل مجد الآباء ، والأسلاف زينة لنا وافتخاراً ، ويخيل إلينا أن وصف هذا المجد بأوصافه الطبيعية لا يغض من الأسلاف وحدهم ، وإنما يغض منهم ومنا . أليس كذلك وإلا فما مفاخرتنا بالعرب ؟ وما مفاخرتنا بالفراعنة ؟ وما مفاخرتنا بآثار العرب والفراعنة ؟ ضرب من الغرور ، نخفي به ما نحن فيه من جهل وانحطاط وضعف .

لقد كان رواة العرب ومؤرخوهم الذين عاشوا أيام مجد العرب وعزتهم ، لا يكرهون أن يصفوا خلفاء العرب وأمراءهم ، بما يتصف به الناس من نقص ، لأن هذا الوصف لم يكن يؤذيهم ، ولا يؤذي العرب في أيامهم ، وحسبك أن تقرأ ، لا أقول كتاباً بعينه ، وإنما أقول في أي كتاب من كتب الأدب

والتاريخ ، لترى خلفاء العرب وأمراءهم وذوى المكانة فيهم ، يوصفون بالخير والشر ، وبالرفعة والضعفة ، بما هو مشرف وبما هو مزر ؛ ذلك لأن هؤلاء الناس كانوا ناساً لا ملائكة .

يقول الأستاذ وأصحابه : إن هذه الأخبار مختلفة متحولة ، وأنا أول من يعترف بأن كثيراً من الأخبار مختلف منحول ، ولكنى لا أستطيع أن أومن بأن كل خبر يصف القدماء بما لا يرضى منحول ، وأن كل خبر يصفهم بما يرضى صحيح .

هذا إسراف ، وإسراف كثير ، وإنما القصد والإنصاف هو أن تعرض لهذه الأخبار المختلفة بالنقد والتحجيص ، فتبين بقدر ما تستطيع ما كان منها صادقاً ، وما كان منحولاً ، وأنا أزعم أن كثيراً جداً من هذه الأخبار صادق ، وأزعم أن كثيراً جداً من خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا كما يقول الرواة يعبثون ويصطنعون ضروب اللهو ، ويستمتعون بفتون من اللذات كان يكرهها الدين . لقد كان « أغسطس » و « نيريوس » و « نيرون » كبار الكهنة في روما ، ولكنهم كانوا قياصرة أيضاً ، فكانوا يؤدون للدين حقّه ، وكانوا يؤدون للدنيا حقها .

ولقد كان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهراً لقوة المسيح في فرنسا ، ولكنهما كانا في الوقت نفسه مظهراً لسلطان الفرنسيين ، وثررة الفرنسيين ومجون الفرنسيين ، فكانا يصليان ، وكانا يعبثان ، وكانا يسمعان وعظ آباء الكنيسة وخطبائها ، وكان هذا الوعظ يوجه إليهما عنيماً خفيفاً كأنه الصواعق ، فيعجبان ويفزعان من سخط الله ، ثم ينصرفان إلى القصر فما هي إلا أن يتورطا في الموبقات .

ولا تقل كان هذان مسيحيين ، وكان قياصرة الرومان وثنيين ، وكان خلفاؤنا مسلمين ، فقد تختلف الديانات في جواهرها ، ولكن الأثر الدينى في نفوس الناس واحد لا يكاد يختلف ، فن المسيحيين والوثنيين أتقياء ورعون ، كما أن من المسلمين والإسرائيليين أتقياء ورعين ، ولا تقل إن مجد العرب وما كانوا يأتون من جلائل الأعمال وما كانوا يقومون به من فتح وبتسط للسلطان ، كان يحول بينهم وبين اللهو والعبث ، فأنا أؤكد لك أن « أغسطس » لم يكن خاملاً ولا عاجزاً ، وأن لويس الرابع عشر لم يكن كسلاً ولا مغرقاً في النوم .

وما رأيك في أن عصر الثورة الفرنسية ، وهو عصر هذا الجلد المفزع الخفيف ، كان أشد العصور الفرنسية دعابة ومجوناً ، وكانت تجرى فيه أنهار الدماء وأنهار الخمر !

وما رأيك في هذا العصر الذي نعيش فيه ؟ وما رأيك في الحرب الكبرى ، وما جرّت على أوروبا من هول ؟ أتظن أن الأوربيين انصرفوا إلى جده هذه الحرب وأخطارها ، عما في الحياة من عبث ولهو ؟ كلا ! لقد ازداد سلطان اللهو في أوروبا ، ولقد كان الجندي يقتتل ويتعرض لألوان الهول ، حتى إذا ظفر باليوم أو الأيام بعيداً عن ساحة القتال ، اندفع في لذاته وشهوته اندفاعاً لم يكن يعرفه قبل الحرب . ماذا أقول ! لقد كانت تحمل إليهم اللذات في ميدان القتال ، فكانت أصوات المدافع ودويها لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات أن تصل إلى آذان الجنود ، وكانت المنايا ترقص أمام هؤلاء الجنود فتروعهم ، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت الراحة ، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات ، ولم يمنعهما هذا كله أن يظفروا بالحجود سواء منهم الغالب والمغلوب .

فلم يكن إذن ليمنع الأمويين والعباسيين أن يستمتعوا بلذات الحياة ، ولم يكن الفتح يمنعهما أن يستمتعوا بهذه اللذات ، ولم يكن العلم ليحول بينهم وبين ذلك ، فما كان حظهم من العلم ، بأكثر من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا ، ولقد كان حظهم من اللذة أقل من حظ المعاصرين من أهل أوروبا وأمريكا .

خليق بنا أن نتدبر حين نقرأ التاريخ ، ونحاول فهمه وتفسيره ، خليق بنا أن نفهم قانونين وضعهما ابن خلدون ، ولكن على أن نفهمهما أحسن مما فهمهما ابن خلدون ، وهما : أن الناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمتهنهم وأمكنتهنهم ، وأن الناس جميعاً مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

يجب أن نفهم هذين القانونين ، وأن نحسن الملاءمة بينهما ، وأن نعرف فيم يختلف الناس ، وفيم يتشابهون ، وما أثر هذا الاختلاف وهذا التشابه . ونحن إذا فهمنا هذين القانونين عرفنا أن العصر العباسي قد كان كغيره من عصور الحجد والحضارة ، فيه جد وهزل ، وفيه شك ويقين .

وأنا أزعم — وأعتقد أني قادر على إثبات ما أزعم — أن القرن الثاني للهجرة

قد كان عصر هو ولعب ، وقد كان عصر شك وجمون ، وكل شيء يثبت صحة هذا الرأي ، فقد كان هذا العصر عصر انتقال من بدوارة إلى حضارة ، ومن سداجة إلى تعقيد ، ومن فطرة خالصة إلى علم وفلسفة ، وقد كان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمم مختلفة ، وشعوب متباينة ، منها البدوي والحضري ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغنى والفقير .

أفتريد أن تختلط هذه الأمم وتمتزج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ إنك لا تستطيع أن تمزج طائفة من عناصر الكيمياء المختلفة دون أن يحدث لهذا الامتزاج اضطراب وانقلاب جديدان ، أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي ، وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس إليه من سبيل .

ها نحن أولاء عاشرنا الأوربيين معاشرًا ليست بالقوية ولا المتصلة ، فانظر إلى أثرها القوي العميق في حياتنا العامة والخاصة ، ثم حدثني عما يمكن أن يحدث لو أن الاتصال بيننا وبين الأوربيين كان من القوة والعمق مثل الاتصال بين العرب والفرس والروم ، لست أدري لم تفرق بين هذه العصور والأجيال المتشابهة وإن اختلفت ، المتفقة وإن افرقت . يجب أن نفهم قانوني ابن خلدون . فالناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمتهم وأمكنتهم ، مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .

أنا أزعم إذن أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك وجمون ، وأزعم أن كل شيء في هذا العصر يؤيدني في هذا الرأي ، وحسبي أن ألفت الأستاذ رفيق بك إلى أن هذا القرن قد بدأ بخلافة الوليد بن يزيد ، وختم بخلافة الأمين ابن الرشيد ، وأحب أن يقارن بين هذين الخليفتين ، ثم ألفت الأستاذ إلى بشار ، ومطيع ، وأبي نواس ، والرقاشي ، والعباس بن الأحنف ، ومسلم ابن الوليد ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، وابن المقفع ، وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهم من الشعراء والكتاب والمفكرين ، ولا أريد أن أذكر الفقهاء وأصحاب الكلام مخافة أن يغضب المتحرجون .

ألفت الأستاذ إلى هؤلاء جميعاً ، وأحب أن يقرأهم ويدرس حياتهم على

هذه القاعدة وهي أنهم ناس لا ملائكة . ولكني أخشى ألا يفعل الأستاذ
 لأنه اتخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء . أما أنا فلا أقدم القدماء ، وإنما
 أنظر إليهم كما أنظر إليك وإلى نفسي ، وأعلم أنهم مثلك ومثلي يجدون ،
 ويمزحون ، يحسنون ويسئون . وعلى هذه القاعدة وحدها حدثتك فيما
 مضى ، وعلى هذه القاعدة نفسها سأحدثك في الأسبوع الآتي عن الخمر
 عند أبي نواس .

الخمير قبل أبي نواس^(١)

الأعشى - عدي بن زيد العبادي -
المنخل اليشكري - عصر الخلفاء -
عصر الأمويين - الأخطل - الوليد بن يزيد.

لا يمتاز أبو نواس من معاصريه بالمدح ولا بالهجاء ، ولا بالفخر ، ولا بالوصف ، ولا بغير هذه الفنون مما ألف الشعراء المتقدمون أن يخوضوا فيه ، وإن كانت شخصية أبي نواس ظاهرة محبة إليك وإلى في هذه الفنون نفسها ، كما سنرى ذلك عند ما نعرض لهذا النحو من شعره ، وإنما يمتاز أبو نواس بشعره في الخمير ، وبافتنانه في المحجون كما يمتاز بغزله وحسن مداعبته للنساء والعلمان .

ومع هذا فأبو نواس لم يخترع هذه الفنون ، ولم يسبق إليها ، بل هو لم ينفرد بها في عصره ، وإنما سبقه إليها كثير من الشعراء في الجاهلية وفي الإسلام وناقسه فيها كثير من معاصريه إن لم نقل جميع معاصريه ، سبقه إليها كثيرون ، وناقسه فيها كثيرون ، ولكنه امتاز ممن سبقه ومن عاصره ومن لحقه ، وظل زعيم القدماء ، وزعيم المحدثين في الخمير والغزل والمحجون .

ولو أننا نعني في هذه الأحاديث بالتمعق في البحث العلمي ، لكان من الحق علينا قبل أن نصف خمريات أبي نواس أن ندرس مع شيء من التفصيل خمريات الشعراء الذين سبقوا أبا نواس ، وأن نجهد في أن نتبين المقدر الذي سبق إليه أبو نواس ، لنعرف ما اخترع وما استحدث ، وليكون حكمنا له أو عليه صحيحاً من كل وجه ، ولكنك تذكر أنا لا نزعم لهذه الأحاديث صفة البحث العلمي المستقصى ، لأن هذا البحث لا يليق بالصحف السيارة ، ولا بالأحاديث التي تقرأ ، أو تسمع في أي مكان وعلى أي حال ، دون أن يختصها

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رجب سنة ١٣٤١ هـ - ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٣ م .

القارئ أو السامع بعناية أشد من عنايته بما ينشر في هذه الصحف من ضروب الكلام .
 قليل من شعراء الجاهلية من لم يعرض للخمر في شعره ؛ فأكثر هؤلاء
 الشعراء كانوا يشربون الخمر ، ومنهم من كان شربه لها متصلاً ، ومنهم من
 كان يلم بها إماماً ، وكانوا يصفون الخمر وأقداحها وآتيها المختلفة ، ولم في
 ذلك الكلام الجيد الكثير ، لا سيما « الأعشى » الذي أكثر في الخمر وأطال ،
 واشتهر بأنه من وصفها المجيدين ، واستطاع ابن الأعرابي أن يزعم للمؤمن أنه
 أشعر من وصف الخمر لقوله :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ قَوْقِهَاءِ وَهَى قَوْقَهْ إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ

بل ربما كان لنا أن نقول : إن أبا نواس نفسه قد عدا على الأعشى فأخذ
 منه شيئاً ليس بالقليل ، وأخذ منه بنوع خاص نصف هذا البيت المشهور :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاهُ وَدَاوِي بَالِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فالصلة ظاهرة بين هذا الشطر الأخير « ودأوني بالتي كانت هي الداء »
 وبين قول الأعشى :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

فليس من شك في أن أبا نواس قد ذكر هذا البيت حين قال شطره
 السابق ، ولكن أبا نواس لم يأخذ اللفظ ، بل ولم يأخذ المعنى دون أن يصلح
 ويغير ويضيف ؛ فإن قوله « دع عنك لومي فإن اللوم إغراء » ليس في شعر
 الأعشى ، وهو يكتفي لأن يحتفظ لأبي نواس بالبيت كله ، وقوله « ودأوني
 بالتي كانت هي الداء » يذكر بقول الأعشى ، ولكنه ليس إياه ؛ لأن
 الأعشى لم يرد أن يقول إلا أنه كان يشرب كأساً ويتداوى بكأس أخرى ،
 فعناه ضيق محدود ، في حين قد مدّ أبو نواس هذا المعنى وبسط أطرافه ، فأصبح
 لا حد له ، أصبح يرافق الحياة ، أصبحت الخمر داء ملازماً لمن يشربها ،
 وأصبحت هي دواء لهذا الداء ؛ فهو يتداوى طول حياته من الخمر بالخمر . أما
 الأعشى فكان يتداوى من كأس بكأس ، كان لا يذكر الداء والدواء
 إلا إذا شرب ، في حين كان أبو نواس لا ينفك يذكرها ؛ لأنه لا ينفك في داء ودواء .

وللأعشى غير هذا كثير ، ولكننا لا نعرض له ، لما قدمنا .
وهناك شاعر آخر جاهلي ، يظهر أنه قد عنى بالخمير وأجاد فيها إجادة لا بأس
بها ، وكان مسيحياً عاش قبل الإسلام ، ولم يكن بادياً بمعنى الكلمة ، وإنما
كان حاضراً أو كالحاضر ، وكان يعيش في هذا الإقليم الذي عاش فيه أبو نواس ،
وكان يختلف إلى الأديرة ومساكن الرهبان التي ربما اختلف إليها أبو نواس بعده
بنحو قرنين ، وكان هذا الشاعر يجيد في معان أجاد فيها شعراء العراق ، كان
يجيد في الخمر ، وكان يجيد في الزهد ، والنسك ، وضرب الأمثال ، وإطلاق
الحكم البالغة ، كان يجيد حيث أجاد أبو نواس ، وكان يحسن حيث أحسن
أبو العتاهية ، ويروي له غزل لا بأس به ، وهو « عدى بن زيد العبادي »
الذي عاش في الحيرة في أواخر العصر الجاهلي . لم يرو الرواة له كثيراً في الخمر ،
ولكن ما يروي عنه يدل على أنه كان بها كلفاً ، وفي وصفها مجيداً ، وانظر إلى
هذه الأبيات القليلة التي يختلف فيها الرواة اختلافاً كثيراً ، والتي كانت
تغني للوليد بن يزيد فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبِّ	حَحَّ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بَنَةَ عَبْدِ اللَّهِ	وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ
لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرَ وَالْعَذْلُ فِيهَا	أَعْدُوْ يُلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ
ثُمَّ تَارُوا إِلَى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ	قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
قَدَمَتُهُ عَلَى عِقَارِ كَعْبَيْنِ	مَدِيكَ صَفَى سَلَفَهَا الرَّأْوُوقُ
مِزَّةٌ قَبْلَ مَرْجِهَا فَإِذَا مَا	مُرِجَتْ لَدَّا طَعَمَهَا مِنْ يَدُوقُ
وَطَفَتْ فَوْقَهَا فَقَاعِيعُ كَالدُّ	رَّ صِغَارُ يُبْثِرُهَا التَّصْفِيْقُ

ففي هذه الأبيات على جاهليتها رقة الحضارة ، دون أن تخلو من رصانة
البدو . ولا بأس بهذا البيت الأخير الذي يوصف ما يبدو على الخمر حين
تمزج ، فيذكر على بعد بقول أبي نواس :

كَانَ صُغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فِقَاعِمِهَا
حَصْبَاهُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

ولا بأس بهذه الصورة التي يظهرها قوله :

مَمَّ نَارُوا إِلَى الصَّبُوحِ فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا بِإِبْرِيْقُ

ولو أن لدينا شيئاً كثيراً من شعر هذا الشاعر في الخمر وغير الخمر ،
لاستطعنا أن نتبين شيئاً من الصلة القوية بينه وبين شعراء العراق في العصر
العباسي ، وأن نستخلص من هذا بوضوح أثر الإقليم العراقي ، والبيئة العراقية
في الشعراء على اختلاف عصورهم وأحوالهم الاجتماعية ، ولكن ما يروى
عن هذا الشاعر قليل جداً ، وأكثره مشكوك فيه . وأحسب أن الحظ الموفور
منه - ولا سيما الزهد والحكم - قد نحل في العصر الإسلامي وأضيف إلى
هذا الشاعر ؛ لأن ذاكرة الرواة حفظت عنه قليلاً من الزهد ، فأضاف
المنتحلون إلى هذا القليل ما يجعله كثيراً ، وهذا الانتحال على الجاهليين معروف
مشهور .

فالجاهليون إذن وصفوا الخمر ، وأجادوا فيها بعض الإجابة ، ولكن
وصفهم لم يكن عميقاً ، ولم يصطنع فيه التدقيق ، وإنما كانوا يقتنعون بالظواهر
فيصفون لون الخمر ومنهاتها ، ويصفون أقداحها وأباريقها وصفاً مجملاً ،
ويصفون طعمها ، ويصفون ما تحدث من نشوة ، غير مباليين في هذا الوصف
ولا مسرفين في البحث عن الدقائق ، بل إنما كانوا يتصدون ، حين يصفون
الخمر ، إلى الفخر والتمدح بالمحاسن وكرام الخلال ؛ فكثير جداً في ذلك العصر
ما يشبه قول عنبرة :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُسْكَمْ

وكثيراً جداً ما يشبه هذه الأبيات التي قالها « المنخل اليشكري » في
وجهها ، وهي الفخر ، لا في معانيها . وهي من أبدع ما يروى عن الشعراء
الجاهليين . ولكن لا تنس أن المنخل اليشكري شاعر من شعراء العراق أيضاً ،
كان يعيش في الحيرة ، وينادم النعمان ، ويعاصر النابغة ، وهذه هي الأبيات :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخَدْرَ فِي الْيَوْمِ الْعَطِيرِ

الْكَاعِبِ الْحَسَنَاءِ تَرَّ فُلٌ فِي الدَّمَقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ

فَدَفَعَتْهَا فَتَدَا فَعَتُ مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ
 فَلَمَّ مَتَهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَّسَ الظُّبْيُ الْبَهِيرِ
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمَدَا مَةَ بِالصَّغِيرِ وَبِالْكَبِيرِ
 فَإِذَا سَكَّرْتُ فَإِنِّي رَبُّ الْخَوَزَنَقِ وَالسَّدِيرِ
 وَإِذَا صَحَّوْتُ فَإِنِّي رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَالْبَعِيرِ
 يَا هِنْدُ مَنْ لِمَتَيْمٍ يَا هِنْدُ لِلْعَانِي الْأَسِيرِ

فانظر إلى أول هذا الشعر ، كيف أحسن تصوير هذه الفتاة ، وكيف ذكر يوم لوه . ثم انظر إلى هذين البيتين ، أحدهما يشبه تدافع الفتاة بمشى القطاة إلى الغدير ، والآخر يصور رغبة الفتاة ورهبها ، ويتخذ اضطراب تنفسها صورة لانخلاع قلبها . ثم انظر إليه كيف عرض للخمر ، فلم يزد على أنه قد شرب منها بالكأس ، وشرب منها بالقدح ، وعلى أنه قد يسكر فيخيل إليه أنه الملك ذو القصر ، وينسى حياته الحقيقية فلا يذكرها ، إلا إذا صحا فرأى الشاة ورأى البعير .

وانظر إلى قول الآخر ، من شعراء الجاهلية :

وَمُعَرَّسٍ عَرَضِ الرَّدَى عَرَسَتْهُ وَالصَّبْحُ سَاطِعٌ لَوْنُهُ لَمْ يَنْجَلِ
 فَأَتَيْتُ حَانُوتًا بِهِ فَصَبَحْتُهُ مِنْ عَارِقٍ بِمَزَاجِهَا لَمْ تُقْتَلِ
 صُهْبَاءَ صَافِيَةِ الْقَدَى أَعْلَى بِهَا يَسْرُ كَرِيمُ الْخِيَمِ غَيْرُ مُبَخَّلِ

فالجاهليون كانوا يصفون الخمر ، ولكنهم لم يكونوا يمعنون في هذا الوصف إمعانهم في وصف الخيل والإبل ، وما إلى الخيل والإبل ؛ لأنهم لم يكونوا من النعمة ولين العيش بحيث يستطيعون أن يعكفوا عليها ، ويعاشروها معاشرة متصلة ، كما كانوا يعاشرون الإبل والشاة ، وإنما كانت تسنح للكثير منهم فرصة اليوم أو الساعة ، يشرب فيها ويلهو ، فإذا فرغ من شربه وطوه تحدث بذلك متأخراً ، وربما وصف الخمر وذكر اللهو وهو لم يشرب ، ولم يأخذ من اللهو بحظ ، وإنما دعاه إلى ذلك الفخر والفن ؛ فقد دخل وصف

الخمر والإمام بها في فن الفخر ، والتحدث بما يمتاز به المفاخر من الكرم والسخاء ، ومن العفة حين يدعو كل شيء إلى اطراح العفة إلى غير ذلك من هذه المعاني الشائقة ، التي تجدها عند الجاهليين جميعاً .

فإذا أردت أن تذكر هذا الفن عند الجاهليين بشيء يشخصه ، وجدت صفتين اثنتين : الأولى أن الشعراء كانوا يلمون بالخمر إماماً ، ولا يلحون في وصفها ولا يكثرون منه ولا يدققون فيه ، وإنما كانوا يعرضون له مع شيء من الاحتياط . الثانية أنهم لم يتخذوا وصف الخمر فناً مستقلاً من فنون الشعر ، كما اتخذوا المدح والهجاء والفخر وما يشبه هذه الفنون .

ولم يكن من الممكن أن يستقل وصف الخمر في هذا العصر ، ويصبح فناً قائماً بنفسه يقصد من حيث هو ؛ لأن الحياة الجاهلية لم تكن تسمح بذلك ولا تدعو إليه ، ولهذا اشهر الأعشى ، وعدى بن زيد بإكثارهما في وصف الخمر ؛ لأن ذلك لم يكن شيئاً مألوفاً . فلما جاء الإسلام سكت الناس عن الخمر حيناً ، صرفهم عنها الدين ، وصرفهم عنها جد الخلفاء ، وصرفهم عنها الفتح والاستعمار . ومع ذلك فيظهر أن الشعر وحده هو الذي سكت عن الخمر خوفاً وإشفاقاً ، وأن كثيراً من العرب ، البادين والمتحضرين ، كانوا لا يضمنون على أنفسهم باللهو ، يختلسونه اختلاساً ويسترقونه استرقاقاً . وللرواة في ذلك أحاديث منها الصحيح ، ومنها المتكلف المنحول . فهناك بيت يحضرنى ولست أدري لمن هو ، ولكني أعلم أنه قيل أيام عمر رضى الله عنه ، وأنه موجه إليه ، وهو :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادُمُنَا فِي الْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

وقصة الوليد بن عقبة — عامل عثمان رضى الله عنه على الكوفة — شائعة معروفة ، والرواة يزعمون أنه كان يدمن على الشراب ، وأنه صلى بالناس الصبح مرة وهو سكران ، فركع ثلاثاً ، ثم التفت إلى المصلين وقال : « إن شئتم زدناكم ! » . ويروى الرواة أن عثمان أمر بحده ، وأن علياً رضى الله عنه هو الذى ضربه ، والرواة يتحدثون بشيء كهذا عن عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فيزعمون أنه كان يحب الخمر ، ويعكف عليها ، وكأنه كلم في ذلك ، وذكر آيات الله ، فقال كلاماً لا نرويه ! . .

وما كاد ينتهي عصر الخلفاء ، ويثبت سلطان بنى أمية ، حتى ضعف سلطان

الدين ، وانصرف الخلفاء وولاتهم عن الحدود والشرائع ، إلى الخصومة السياسية والجهاد بين الأحزاب والعصبيات ، وكثرت الغنائم ، وعظمت الثروة ، واضطر أفراد كثيرون من أحفاد المهاجرين والأنصار وأشراف قريش ، إلى أن يقيموا في الحجاز مستمتعين بثروة ضخمة وغنى كثير ، وقد حيل بينهم وبين العمل السياسي خوفاً منهم أو عقاباً لهم ، فانصرفوا إلى اللهو ، وعكفوا على اللذة وأسرفوا فيهما وتغيرت الآية . . . فكانت مكة والمدينة وطن الشعراء الغزليين وموطن المغنين ومجتمع طلاب اللهو ، وكانت لهؤلاء الناس جميعاً مجالس معروفة مشهورة ، كثر ذكرها في كتب الأدب والتاريخ ، وكثرت حولها الأخبار والشائعات ؛ واضطر الخلفاء من بني أمية إلى أن يظهرُوا في بعض الأحيان ضرورياً من القسوة ، فنكلوا ببعض هؤلاء الناس ، وعذبوا بعضهم ثم نفوه . وخبر الأحوص بن محمد الأنصاري معروف ، وخبر الخثين في المدينة معروف أيضاً ، وشعر عمر بن أبي ربيعة ، وأخبار الدلال ، أكثر وأشهر من أن نلح في ذكرها .

ومع هذا فقد كان المسلمون يشربون ويلهون ، ولكنهم كانوا يحتشمون فلا يكادون يذكرون ذلك في الشعر إلا إماماً . كانوا يحتشمون إشفاقاً ووقاراً . ولم يكن المسيحيون مكلفين أن يحتشموا ، ولا أن يخافوا ، بل كانوا يجهرون بلذاتهم ؛ وظهر في ذلك وبرع فيه الأخطل شاعر بني أمية ، ولسانهم الناطق بسياساتهم ، المناضل عن حزبهم ، كان مسيحياً ، وكان كلفاً بالخمير مشغولاً بها ، حتى كره ذلك منه القسس ، ويقال : إنهم عذبوه وضربوه ؛ لأنه كان شديد الخضوع للدين ، وكان يقبل من رؤساء دينه ما لم يكن يقبل من خلفاء المسلمين .

أكثر الأخطل من الشرب ، وأكثر من وصف الخمر ، وأجاد فيه ، وجاهر بشربه ، ولهوه ، واستخدمه في السياسة . فيروى أنه دخل ذات يوم على عبد الملك بن مروان وهو سكران يترنج ، فأنشده هذين البيتين :

إِذَا مَا نَدَيْتَنِي عَلَّيْنِي مُمَّ عَلَّنِي ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ لَهَنَّ هَدِيرُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلِ تَيْهًا كَأَنَّي عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِيرُ

وكان زُفَر بن الحارث جالساً مع عبد الملك على السرير ، وقد كان

عادي بنى أمية ، وكلّفهم ضرراً من العناء ، فلما أنزلوه على حكمهم ، قربه
عبد الملك وأخذ يحبه ؛ فاغتاظ لذلك الزعماء ، وأغروا به الأخطل ، فدخل على
الخليفة في هذه الحال ، وأنشده البيتين ، ثم روى من شعر زفرهذين البيتين :

أرِني سِلاحِي لاَ أَبالِكَ إِنِّني أَرى الحَرْبَ لاَ تَزْدادُ إِلاَّ تَمادِيًا
فَقَدَّ يَنْدَبُ العَرَعى عَلى دَمِ النَّرى وَتَبقى حَزَزاتُ الصُّدُورِ كَما هِيًا

فيقال : إن عبد الملك ضرب برجله في صدر زفر ، فألقاه على السرير ،
وكاد يقتله .

ولسنا نريد أن نطيل في شعر الأخطل ووصفه للخمر ؛ فشعر الأخطل
معروف ، وديوانه مطبوع ، ولكننا نستطيع أن نقول بالإجمال : إن الأخطل
على إكثاره في وصف الخمر ، لم يكد يتجاوز ما سبقه إليه الأعشى وغيره من
شعراء الجاهلية ؛ فهو أكثر في وصف الخمر ، ولكنه لم يخترع شيئاً كثيراً .
ثم أخذ الزمن يتقدم ، وأخذ الناس يترفون ، وأخذ الاحتشام يقل ويضعف
في الطبقات المختلفة ، وأخذ الميل إلى اللذة والإسراف فيها ينتقلان من مكة
والمدينة إلى دمشق . ولسنا نذكر يزيد بن معاوية ؛ فقد كان الإنكار عليه
شديداً ، وكان نخط الناس عليه يدل على أن عهدهم بالاحتشام لم يزل قريباً ،
وحرصهم عليه لم يزل قويا ، بل لا نذكر أبناء عبد الملك ؛ فقد كانوا يمتاطون
في اللهو ويتسترون .

ولكن القرن الأول للهجرة لم يكد ينتهي ، حتى كان الجيل قد تغير ،
والعهد قد تبدل ، وحتى كان الاختلاط بين العرب ، والفرس ، وهذه الأمم
الكثيرة المتباينة في الشأم ، قد عمل عمله ، وأخذ يظهر آثاره الكثيرة المختلفة ؛
ومن أعظمتها وأشدها خطراً ، المحجون ، وحب اللهو ، وحرية الفكر والسيرة .
ولقد أشرنا في الحديث الماضي إلى أن هذا القرن الثاني للهجرة قد كان عصر
مجون وشك ، وقلنا يكفي أن يكون هذا القرن قد بدى بالوليد بن يزيد ، وختم
بالأمين بن الرشيد .

ولقد كنا نود لو أتيج لنا البحث عن حياة الوليد بن يزيد ، وعمما سلك
من طرق الهزل ، وما ابتدع من ألوان المحجون ، حين كان ولياً للعهد ، وحين كان

أميراً للمؤمنين . ولسنا نود ذلك حباً فيه ، أو كلفاً به ، بل لأن الوليد بن يزيد أثراً قوياً جداً عرفه المتقدمون أنفسهم في شعر أبي نواس ، فإن صاحب الأغاني مثلاً يتحدث بأن الشعراء العباسيين أخذوا كثيراً عن الوليد في الحمر ، ويختص منهم أبا نواس ؛ لأنه أكثر الانتفاع بشعر الوليد .

وليس في هذا شيء من الغرابة ، فقد كان الوليد سيء الحظ في حياته وبعد موته ، ولم يجمع شعره بل تفرق وضاع أكثره ، فعدا عليه الشعراء ، وأمنوا أن يتهموا بالسرقة . كان الوليد سيء الحظ ؛ فقد كان عمه هشام يكرهه ويحقد عليه ، ويريد أن يخلعه من ولاية العهد ، ويضع ابنه مكانه ، فكان لذلك يضطهده ، ويضطهد أوليائه . فلما مات هشام واستخلف الوليد ، لم يطل عهده بالخلافة ، وما أسرع ما ثار الناس به وقتلوه ! .

وليس يعنينا أن يكون الوليد ظالماً أو مظلوماً ، وليس يعنينا أن نحكم في أمر الوليد من جهة الدين والسياسة ، وإنما الذي يعنينا الآن ، هو أن نقول : إن الوليد كان شاعراً مجيداً ، وماجناً ماهراً في الحجون ، مفضولاً عليه ، وإنه هو الذي فتح هذا الباب لمن جاء بعده من الشعراء . وهو من هذه الجهة سيء الحظ ؛ لأن شعره ضاع ولم يحفظ ، وتفرقت شخصيته بين الشعراء ، فلم يبق منها إلا خيال ضئيل تم به أخباره في الأغاني .

نقول : إن الوليد هو الذي فتح للشعراء باب الحجون ، ونريد مع هذا أن نتحفظ ونحتاط ، حتى لا يغضب الأستاذ رفيق بك العظم وأصحابه ؛ فنحن نعلم أن الوليد كان مضطهداً في حياته أيام عمه هشام ، وأنه اضطهد بعد موته ، ولا سيما أيام بنى العباس ، وأن خصومه وأعداءه من الأمويين والعباسيين قد أضافوا إليه من الشعر والحوادث ما لم يقل ، ولم يعمل . وإذن فيجب الاقتصاد والحذر عند قراءة ما يضاف إليه . ومع هذا الاقتصاد والحذر فليس من شك في أن الوليد كان ماجناً خليعاً ، وكان مسرفاً في الخلاعة والحجون .

ولم يكن إسرافه في الخلاعة والحجون أثراً من آثار اللذة والكلف بها فحسب ، وإنما كان فيما يظهر أثراً من آثار اضطراب الدين ، وفساد العقيدة في نفسه ، كان أثراً من آثار البدع الحديد ، الذي نشأ من اختلاط المسلمين بأهل النحل المختلفة ، فأحدثت الشك والإلحاد في نفوس نفر منهم غير قليل ؛ فلم يكن مؤمناً بالبعث ، ولا بالعقاب والثواب ، وكان مع هذا يؤدي فرائضه

الدينية ، فيصلى ويصوم لأن الناس كانوا يصلون ويصومون ، ولأنه كان ولياً لعهد الناس ، أو خليفة على الناس . وانظر إلى هذه الأبيات :

أَدِرِ السَّكَّاسَ يَمِينًا لَا تُدْرِهَا لِبَسَارِ
 إِنْسِقِ هَذَا مُمَّ هَذَا صَاحِبَ الْعُودِ النَّصَّارِ
 مِنْ كَمِيَّتِ عَتَمُوهَا مُنْذُ دَهْرٍ فِي جِرَارِ
 حَتَمُوهَا بِالْأَفَاوِيهِ وَكَافُورٍ وَقَارِ
 فَلَقَدْ أَيقَنْتُ أَيْ غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ

 وَذَرُّوا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى لِنَبَارِ

في هذا الشعر شيء من روح أبي نواس ، ولكنه لم يبلغ من الصقل ، وصفاء الأديم ، ما بلغه أبو نواس . والوليد يعترف فيه بأنه لن يبعث ولن يعذب ؛ وإذن فليستمتع باللذات ، وليدع الأتقياء يشقون بخيال الجنة الذي يسعون إليه ، بل هو لا يريد أن يدع هؤلاء الناس ، وما يسعون إليه من نعيم ، حتى أو باطل ، وإنما يريد أن يروضهم ، حتى يصل بهم إلى ما يريد من إنكار كل شيء ، والعبث بكل شيء ، سواء في ذلك الدين والخلق والعادة .

ولقد تحدثت بعض الرواة أنه حضر الوليد وهو خليفة ، فلما كانت العصر نهض فصلاها ، ثم جلس يتحدث ، فلما كانت المغرب نهض فصلاها ، ثم تعشى ، ثم صلى العشاء ، وأخذ يتحدث ، ثم قال : اسقيني ، فأقبلت جوار ، فقمن بينه وبين الراوى ، فسقينه ، وأخذ يقول : اسقيني ، وأخذ الجوارى يسقينه ، حتى أقبل الفجر . قال الراوى : فأحصيت له سبعين قدحاً .

ومثل هذا كثير في أخبار الوليد . والناس يروون أنه سكر يوماً ، فأمر جارية له ، فصلت بالناس . ولم يكن الوليد مغرقاً ، ولا مندفعاً في اللذات اندفاعاً غير منظم ، لم يكن سكيراً معربداً ، وإنما كان في قلبه مكان للحب ، وللحب القوى المتين ؛ فقد كلف بسلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ،

وكان قد تزوج أختها فطلقها وأراد أن يتزوج سلمى ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فأنطقه هذا الحب بشيء من الغزل كثير ، فيه نقاء وجودة ، وفيه رقة ووفاء ، فلما ولي الخلافة وصل إلى ما أراد . ولكن سلمى لم تقم عنده إلا أربعين يوماً ، ثم ماتت فجزع الوليد ، ورثاها بالشئ الكثير . وأكثر ما قال الوليد في سلمى غُشِيَّ فيه ، وروى أبو الفرج منه طائفة لا بأس بها . فإذا أردت أن تتعرف روح الوليد وشخصيته الشعرية ، فاقرأ هذا الشعر في الأغاني ، ولكنني أروى لك أبياتاً له في الخمر لا تشك ، حين تقرؤها ، في أنك تقرأ أبا نواس :

إِصْدَعْ نَجِيَّ الْهُمُومِ بِالطَّرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعَيْبِ
وَأَسْتَقْبِلِ الْعَيْشِ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمَهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلُوبِهَا مِنْ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقٌ جَوْهَرُهَا حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بَغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرِ وَهِيَ لَدَى الْمِزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ تَذْكَو ضِيَاءَ فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةِ أَهْلِ الْمَجْدِ وَالْمَأْتِرَاتِ وَالْحَسَبِ
مَا فِي الْوَرَى مِثْلَهُمْ وَلَا بِهِمْ مِثْلِي وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبِي

فانظر إلى هذا الشعر البعيد السهل ، وانظر إلى ما فيه من تشبيه بديع ينم عن حضارة وترف :

فَهِيَ بَغَيْرِ الْمِزَاجِ مِنْ شَرَرِ وَهِيَ لَدَى الْمِزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ

ثم ألتست تحس في هذا الشعر كله رقة أبي نواس ، وخفة روحه ! ومع هذا ، فالوليد محتفظ بالسنة القديمة ، يتخذ الخمر وسيلة إلى الفخر ...

لم يكدهم يتبدى القرن الثاني إذن حتى ظهر الحجون ، وانتشر ، ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فم انتصار الفرس على العرب ،
ج ٢ (٦)

وانتقل مركز الخلافة من الشام إلى العراق ، وأصبح الأدب عراقياً ، لا شامياً
 ولا بدوياً ، أي أصبح خاضعاً من كُتُب لتأثير الفرس ، وحضارة الفرس .
 فتم انتصار العُثْب والحِمْيَر ، وتمت استحالة الطبع العربي ، وانقطع — أو كاد
 ينقطع — العهد بين هذا الطبع وبين بداوة العصر الأموي ؛ وأقبل أبو نواس
 وأصحاب أبي نواس ، فوجدوا سنةً موروثة وطريقاً ممهدة ، فأحيوا السنة ،
 وسلكوا الطريق ، ورثوا الوليد وأصحاب الوليد ، فلم يضعوا الميراث ، ولم يفسدوه .
 وإنما نسَّوه ورقَّوه ، وكان هذا الشعر العباسي الذي نزع من أبانواس يمثله ،
 والذي سنحدثك عنه في الأسبوع الآتي .

الخمير عند أبي نواس^(١)

سحر الشعر - إدمان الخمر - وعبادتها - المذهب
السياسي - تفضيل الفرس على العرب .

رأيت في الأسبوع الماضي أن الخمير قد وصفت قبل أبي نواس بنحو قرنين ، فأحسن وصفها ، وأن الشعراء قد كلفوا بها وتهالكوا عليها ، وأن الوليد ابن يزيد كان أول من اتخذ وصف الخمير وسيلة إلى إعلان المحبون فيما نعلم ، وأن شعراء آخرين قد تبعوا الوليد واقتفوا أثره ، فأحسنوا وأجادوا ، ولكن أبا نواس هو زعيم هذا الفن كما قلنا .

والناس مجمعون على ذلك ، فلا نعرف من يقدم أحداً على أبي نواس في وصف الخمير ، والافتنان فيها . ولقد كان بعض الرواة يغلون في ذلك ، فيزعم أن أبا نواس قد وصف الخمير وصفاً لو سمعه الحسّان لهاجراً إليها ، ولعكفا عليها (يريد الحسن البصري وابن سيرين) . ولسنا ندرى إلى أي حد تصح هذه الرواية ، ولكننا نعلم أن أبا نواس قد أحسن وصف الخمير إحساناً لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه . ونعلم أيضاً أن هذه الأوصاف التي نستحسنها ونستعذبها ، ليست من الجودة أو الحسن بحيث ترغبتنا في الخمر ، أو تحملنا على أن نهاجر إليها . ونعكف عليها ، بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، فنزعم أن كثيراً من هذا الإحسان وهذه الإجابة ، قد يمر بنا دون أن نلاحظه أو نلتفت إليه ، إلا إذا كنا قد أتقنا درس هذا العصر الذي عاش فيه أبو نواس ، وتبيننا ذوق أهله ، وما كانوا يحبون ويكرهون . ففي هذا الإحسان والإجابة شيء كثير إضافي ، أي أنه إحسان وإجابة بالقياس إلى العصر الذي قيل فيه ، وإلى الناس الذين سمعوه ؛ فإذا تغير الزمان واستحال الذوق ، فليس بالإحسان ولا بالإجابة ، وربما كان أدنى إلى الثرثرة ولغو الكلام . ولهذا الملاحظة خطرهما ؛ فهي تدل على شيئين قيمين .

(١) نشرت بالسياسة في ١٩ رجب سنة ١٣٤١ هـ - ٧ مارس سنة ١٩٢٣ م .

أحدهما : أن الحكم على شعر القدماء - ولا سيما الشعر الغنائي - لا ينبغي أن يتخذ فيه الذوق العصري وحده مقياساً للجودة والرداءة ، وإنما ينبغي أن يكون مقياس ذلك ذوق العصر الذي عاش فيه الشاعر ؛ فإن الشعر الغنائي بطبعه مرآة لعواطف الشاعر ومعاصريه ، ممثل لما كان يحس الشاعر وقومه وما كانوا يشعرون به . وواضح أن هذه العواطف ليست متحدة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وأن أهل بغداد كانوا يحبون ما لا نحب ، ويكفون بما لا نكلف به ، ويميلون إلى ما لا نميل إليه ؛ فليس غريباً أن يستعذبوا من الشعر ما لا نستعذب ، وأن يُفْتَنُوا منه بما نقرؤه نحن غير مكثرين .

والآخر : أن قليلاً جداً من هذا الشعر الغنائي ما يبقى على الدهر ، ويخلد على مر الأيام ، وأن قليلاً جداً من الشعراء المغنين من يظفرون بإعجاب الجيل الذي يعيشون فيه ، والأجيال التي تليه ؛ فإذا ظفر أحدهم بهذا الإعجاب المتصل فذلك آية نبوغه ، وقدرته على وصف العواطف التي تهز قلوب الناس من حيث هم ناس ، لا من حيث إنهم بغداديون أو مصريون ، ولا من حيث إنهم من أهل القرن الثاني أو الرابع عشر للهجرة .

ولأبي نواس حظ غير قليل من هذا الإعجاب ، كما رأينا فيما مضى ، وكما سرى فيما نعرض له من شعره ، ولكن لأبي نواس شعراً كثيراً عجب به الناس في عصره ولا نحفل به نحن الآن ، وهذا الشعر كثير في الخمر . وربما كان أحسن مثال له هذه القصائد الطوال ، التي قالها أبو نواس وغير أبي نواس في قدم الخمر وتعتيقها ، وأنها قد شهدت عصر نوح ، ثم عاد وثمود ، وأنها تستطيع أن تتحدث إليك بأخبار الأولين ، إلى آخر ما هناك ، مما هو كثير يملأ شعر القدماء ولا نعجب به نحن إلا إعجاباً إضافياً ؛ لأننا نعلم أن القدماء كانوا يعجبون به ويتنافسون فيه . ومن ذلك أيضاً هذا الشعر الكثير الذي يصف الشعراء فيه بحمهم عن الخمر ، وارتياحهم إياها ، ومغالاتهم في ثمنها ، فيشبهونها بالعدراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، ويغالي هذا الدهقان في مهرها ، ويتمتع في تزويجها لشاربيها ؛ لأنه يريد أن يتخذ لها الأكفاء ، ومن ذلك أيضاً الإكثار في وصف طعم الخمر وريحها ، وأنها تقطب الجبين ، وتزِيل

الزكام ، إلى آخر ما هناك مما لا نحفل به الآن . ثم هذا الكلام الكثير في أن الخمر لا تطبخ على النار ولم ترها الشمس ، وإنما عتقت وتخمرت في جوف الأرض بمعزل عن حر الشمس والنار . وقد نقرأ الشعر الذي يتناول هذه المعاني فنعجب ؛ به لأن لفظه جيد ، أو لأن فيه مغالاة تدهشنا وتخالف ما ألفنا ، أو لأن فيه شيئاً من الإحالة والبعد عن معقول الناس .

فإذا أردنا أن نحلل هذا الشعر ونلتمس ما فيه من الجمال الصحيح ، ونلائم بينه وبين ميولنا وأهوائنا وعواطفنا وأذواقنا ، لم نجد شيئاً . وأغرب من هذا أن الشعراء المعاصرين الذين يخذون القدماء ، ويقتفون آثارهم قد يبلغون منا هذه المنزلة ، ويسحروننا بكلام نسمعه فنعجب به ، حتى إذا حاولنا فهمه واستقصاء ما فيه لم نجد شيئاً ، أو وجدنا ما لا يروق . فأى الناس سمع هذا الشعر من قول حافظ ثم لم يُفتمّن به .

يَا غُلَامُ الْمُدَامَ وَالْكَاسَ وَالطَّلَا سَ وَهَيَّ لَنَا مَكَانًا كَأَمْسِ
واسقنا يا غلامُ حتى ترانا لا نطبق الكلام إلا بهمس
خَمْرَةَ قِيلَ لَهُمْ عَصْرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمَلَّاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ

فانظر إلى هذا البيت الأخير كيف يفتنك لفظه ويسحرك ؟ وكيف لا تفتنك خدود الملاح في يوم عرس ؟ ولكن تكلف أن تبين هذه الخمر التي تعصر من خدود الملاح ، وحدثنى أتستطيع أن تشرها ، أو تستطيع أن تنظر إليها دون أن تتأذى وينالك شيء من الألم غير قليل ؟ إذن فينبغي أن نحسب ونقتصد في الإعجاب بالشعر عامة ، وبشعر القدماء خاصة ؛ فإن سحر الشعر كثير قوى ، مختلفة أسبابه وبواعثه .

والآن وقد بسطنا هذه المقدمة التي لم يكن منها بد ، نستطيع أن نعرض لوصف الخمر في شعر أبي نواس ، وأول ما نذكر من ذلك هذه القصيدة التي نستطيع أن نعتبرها مقياساً لذوق الشعراء في ذلك العصر ، وللموضوعات التي كانوا يلمون بها ، ويقصدون إليها ، وهي :

يَا حَاطِبَ الْقَهْوَةِ الصَّهْبَاءَ يَمْهَرُهَا بِالرَّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلْثَهُ ذَهَبًا

قَصَّرْتَ بِالرَّاحِ فَاحْذَرُ أَنْ تُسَمِّعَهَا
 إِنِّي بَدَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
 فَاسْتَوْحَشَتْ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً
 فَقُلْتُ لَا تَحْذَرِيهِ عِنْدَنَا أَبَدًا
 قَالَتْ فَمَنْ خَاطِبِي هَذَا؟ فَقُلْتُ أَنَا
 قَالَتْ لِقَاحِي؟ فَقُلْتُ التَّلْجُ أُبْرَدُهُ
 قُلْتُ الْقَنَانِي وَالْأَفْدَاحُ وَلَدَهَا
 لَا تُمَكِّنِي مِنَ الْعَرَبِيِّدِ يَشْرُبُنِي
 وَلَا الْمَجُوسِ فَإِنَّ النَّارَ رُبُّهُمْ
 وَلَا السَّقَالِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا
 وَلَا الْأَرَاذِلِ إِلَّا مَنْ يُوقِرُنِي
 يَا قَهْوَةَ حُرِّمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ

فَيَخْلِفَ الْكَرْمُ إِلَّا يَجْمَلُ الْعِنَبَا
 صَاعًا مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا نُقِبَا
 يَا أُمَّ وَيَحْكِي! أَحْسَى النَّارَ وَاللَّهَبَا
 قَالَتْ وَلَا الشَّمْسُ؟ قُلْتُ الْحَرُّ قَدْ ذَهَبَا
 قَالَتْ قَبْعَلِي؟ قُلْتُ الْمَاءُ إِنْ عَذَبَا
 قَالَتْ قَبَيْتِي؟ فَمَا اسْتَحْسِنُ الْخَشْبَا
 فِرْعَوْنُ قَالَتْ لَقَدْ هَيَّجَتْ لِي طَرَبَا
 وَلَا اللَّثِيمِ الَّذِي إِنْ سَمَّنِي قَطَبَا
 وَلَا الْيَهُودِ وَلَا مَنْ يَبْعُدُ الصُّلْبَا
 غِرُّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدَّ
 مِنَ السَّقَاةِ وَلَكِنْ اسْتَقْنِي الْعَرَبَا
 أُثْرِي فَأَتَلَفَ فِيهَا الْعَمَالَ وَالنَّشْبَا

فانظر إلى هذه القصيدة ، فلن تجد فيها معنى يخلبك ، أو شيئاً يستهويك .
 ومع ذلك ، فأستطيع أن أؤكد لك أن القدماء كانوا يكلفون بهذه المعاني ،
 ويستعدون الشعر الذي ترد فيه ، وكانوا يحبون هذا التشبيه : « تشبيه الخمر
 بالعروس تخطب ويغالى في مهرها » . وكانوا يحبون هذا الحوار يجري بين
 الخمر ومن يرتادها ، وكانوا يحبون هذه الأبيات الأخيرة التي تقص عن
 الخمر من ليس لشربها أهلا ، وكانوا يعجبون بنوع خاص بهذا البيت
 الأخير الذي يحل الخمر للغنى يتلف ثروته فيها . أما نحن فلعلنا لا نحب من
 هذا كله شيئاً . ولعلنا نقرأ هذه القصيدة ، فلا نجد فيها ما يستخف ، ولا
 ما يرغب في الخمر . . .

ولكن أبا نواس كان يحب الخمر حباً ربما كان أشبه بالدين ، كان
 يعبدها ويقديسها تقديساً . فانظر إلى هذه الأبيات ، ولست أشك في أنك

ستمسحسبها ، وتعجب بها الإعجاب الكثير ، وتشعر بأنها ليست مدحاً للخمر ، وإنما هي صلاة إلى الخمر :

أُنِّ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَيِّهَا وَسَمَّيَا أَحْسَنَ أَسْمَائِيهَا
لَا تَجْعَلِ الْمَاءَ لَهَا قَاهِرًا وَلَا تُسَلِّطْهَا عَلَى مَائِيهَا
كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِيهَا
فَلَمْ يَكْدُ يُدْرِكُ سَمَّارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِيهَا
دَارَتْ فَأَحْيَتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نُفُوسَ حَرَّاهَا وَأَنْضَائِيهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُوا بِأَكْفَائِيهَا

فانظر إلى هذا البيت :

أُنِّ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَيِّهَا وَسَمَّيَا أَحْسَنَ أَسْمَائِيهَا

أليس الشطر الأول منه تسييحاً للخمر ! أليس الشطر الثاني منه تقديساً للخمر ! أليس في هذا البيت على سهولته وبراءته من ألفاظ المحون أشد ألوان المحون ! أليس فيه الاستهزاء بالدين والسخرية منه ! أليس يذكرك القرآن ! أليس يذكرك قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا ﴾ . ثم انظر ما جاء بعد هذا البيت . انظر إلى سهولة اللفظ ، وخلوه من التكلف . انظر إلى هذا النظم يكاد يكون نثراً . وانظر إلى دقة هذا المعنى الذي قد لا يعجبك في نفسه ، ولكنه على هذا جميل دقيق ، يمثل عقل أبي نواس ، واصطبغاه بالصبغة الفلسفية التي كانت عامة في عصره :

كَرْخِيَّةٌ قَدْ عُنُقَتْ حِقْبَةً حَتَّى مَضَى أَكْثَرُ أَجْزَائِيهَا
فَلَمْ يَكْدُ يُدْرِكُ سَمَّارُهَا مِنْهَا سِوَى آخِرِ حَوْبَائِيهَا

فهذه الدقة لا تسهويك ولا ترغبتك في الخمر ، ولا تنزع بك إلى حب الشراب ، ولكنها في نفسها جميلة محببة . وانظر إلى استئناف الثناء على الخمر ، في لفظ حلو سهل غير متكلف ولا متصنع :

دَارَتْ فَأَحَيْتْ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ نَفُوسَ حَرَاهَا وَأَنْضَاهَا
وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعَشَرَ لَيْسُوا إِذَا عَدُّوا بِأَكْفَاهَا

فقد رأيت في هاتين القصيدتين شيئين مختلفين :

رأيت في الأولى معاني لا تعجبك ولا تروقك ، وكانت تعجب القدماء وتروقه . ورأيت في الثانية معاني ليست جميلة لأنها تصف الخمر وتحت عليها ، وإنما هي جميلة في نفسها ؛ لأنها تدل على قدرة الشاعر ودقته ، وحسن غوصه على المعاني ، وهي تعجبك كما كانت تعجب المتقدمين .

وانظر إلى هذه الأبيات التي تجمع بين إعجابك وإعجاب القدماء ؛ لأنها تصف شيئاً ترغب أنت كما كان يرغب القدماء في وصفه :

كَمْ مُتَرَفٍ عَقَلَ الْحَيَاءُ لِسَانَهُ فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيمَاءِ
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرَى فِي عَيْنِهِ قَدْ عَقَلَ الْجَفْنَيْنِ بِالْإِعْتَاءِ
حَرَ كَتُهُ بِيَدِي وَقُلْتُ لَهُ انْدَبِهِ يَا سَيِّدَ الْخَلَطَاءِ وَالنَّدْمَاءِ
حَتَّى أَرْيَحَ الْهَمَّ عَنْكَ بِشْرَبَةٍ تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلِيَاءِ
فَأَجَابَنِي وَالشُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظَّلْمَاءِ
إِنِّي لَأَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَإِنَّمَا رَدَّ التَّعَا فِي سَوْرَةِ الصَّهْبَاءِ

ومع ذلك فانت لا توقظ نديمك من نومه ، ولا تحركه بيدك ، ولا تستأنف الشراب إذا أقبيل الصباح كما كان يفعل القدماء . ولكن انظر إلى هذا البيت بنوع خاص :

فَأَجَابَنِي وَالشُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظَّلْمَاءِ

كان أبو نواس إذن يعبد الخمر ويدمن شربها ، فيشربها إذا أمسى ، ويشربها إذا أصبح ، وربما عكف عليها ليله ويومه . وربما عكف عليها الأسبوع كله ، لا ينصرف عنها إلا حين يثقله النوم ، كما ترى ذلك في قصيدته التي مطلعها :

يَا طَيْبِنَا بِقُصُورِ الْقَفْصِ مُشْرِقَةً فِيهَا الدَّسَاكِرُ وَالْأَنْهَارُ تَطَّرِدُ

وقد اشتهر ذلك عنه وعن مولاه الأمين الذي كان ينادمه ويساقبه ،
واتخذ أنصار المأمون في خراسان هذا سلاحاً يحاربون به الأمين ؛ فكان ينشد
مجون أبي نواس في المسجد الجامع عند الصلاة ، ويلعن من قاله ، ومن أحبه .
وكان هذا قد وصل إلى الأمين في بغداد فأشفق منه ، وأراد أن يحتاط ويصطنع
الوقار ، فنهى أبا نواس عن شرب الخمر ، وأظهر أبو نواس الطاعة ، ولكن
ذلك شق عليه ، فقال فيه شعراً كثيراً جداً ، منه هذه الأبيات :

أَعَذِلَ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا
وَقُلْتُ لِسَاقِبِهَا أَجْزُهَا فَلَمْ أَكُنْ لِيَأْبَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَشْرَبَا
فَجَوَّزَهَا عَنِّي سَلَاقًا تَرَى لَهَا إِلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى شُعَاعًا مُطَنَّبَا
إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خِلْتَهُ يُقَبَّلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا

وقال هذه القصيدة الأخرى التي تبين مقدار ما يعاني من الألم والحрман
لطاعة الأمين :

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيئَا
نَالَتَنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمَا
فَاصْرِفَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمَا
كَبُرُ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيمَا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعْدِي يُزِينُ التَّحَكِيمَا
كَلَّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِ فَأَوْصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يُقِيمَا

وليس كل الناس قادراً على أن يفهم هذين البيتين الأخيرين ، على أنهما
لا يخلوان من جمال ، فهو يشبه نفسه في وصفه للخمر وحثه الناس على شربها ،
دون أن يستطيع لها مذاقاً ، بالخارجي الذي عجز عن الحرب ، فقعده وأخذ
يحث الناس عليها .

على أن أبا نواس لم يتب قط عن الخمر ، ولم يكن يستطيع أن يتوب .
ولعل التوبة لم تدركه إلا حين أدركه الموت . وقد ذكرنا لك في غير هذا الفصل

ما كان من أمر صديقه الكوفي الذي ما زال به حتى حمله على خلاف الأمين ، فشرب الخمر ، وسب زبيدة ، وعاد إلى الأمين فأخبره أنه قد خرج عن طاعته ؛ فلم يغضب لذلك الأمين ، بل حمده ورضى عنه ، وأمر أبا نواس فحمل إليه صديقه الكوفي ، فاتخذه نديماً ! .

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئاً غير هذا الفسق والإغراق في الخجون ، وهو أنه كان يريد أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - في الشعر مذهباً جديداً ، وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تمثل فيها الحياة . ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء ؛ لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء ، وما ألفوا من ضروب العيش . فإذا تغيرت ضروب العيش هذه ، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها . فليس يليق بساكن بغداد ، المستمتع بالحضارة ولذاتها ، أن يصف الخيام والأطلال ، أو يتغنى بالإبل والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمر والقيان ، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب متكلف .

أراد أبو نواس أن يشرع للناس هذا المذهب ، فجد فيه ووفق التوفيق كله ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلة إلى مدح طريقته الحديثة ، وذم طريقة القدماء .

ولولا ما نعرفه من سيرته وإدمانه ، لكان من الحق أن نشك في أنه من اللهو والخجون بحيث يصف نفسه ، وأن نتساءل : أليس هذا الغلو والإسراف أثراً من آثار التعصب لمذهبه الجديد ؟

على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكنا من أن نفهم بغض الناس له ، ونعيبهم عليه ؛ فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً .

يذم القديم - لا لأنه قديم - بل لأنه قديم ، ولأنه عربي ، ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث ، ولأنه فارسي . فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور .

ومن هنا نفهم بخط كثير من العرب وأنصار العربية ، على هذا المذهب الجليد ، ونفهم أيضاً أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب . ومهما يكن من شيء ، فالخمريات التي عرض أبو نواس فيها لتأييد مذهبه الجليد ، وضم المذهب القديم ، هي أجود ما يروى عن أبي نواس ولا بد من أن نلم بكل هذه القصائد ، لنستطيع أن نستخلص أصول هذا المذهب الجليد ، كما كان يتصوره أبو نواس ، ولكننا نرجى هذا إلى الأسبوع الآتي ونحتم حديث اليوم بهذه الأبيات في هذا الموضوع :

لَا تَبْكِ لَيْلِي وَلَا تَطْرَبِي إِلَى هِنْدِي وَأَشْرَبِ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ
كَأَسَا إِذَا أُحْدَرَتْ مِنْ حَلْقِي شَارِبِيهَا أَجْدَتُهُ حُمْرَتَهَا فِي الْعَيْنِ وَالتَّحْدِ
فَالْخَمْرُ يَا قُوْتَهُ وَالْكَأْسُ لَوُؤُوْتَهُ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةٍ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ يَدِهَا حَمْرًا وَمِنْ فَمِهَا حَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي

ويتحدث الرواة أن أبا نواس أنشد هذه الأبيات طائفة من أصحابه ، فخرؤا له سجداً ؛ فقال : فعلتموها ! أعجمية ! والله لا كلمتكم ثلاثاً وثلاثاً وثلاثاً . ثم ندم وقال : تسعة أيام في هجر الإخوان كثير ! وربما كان أصحاب أبي نواس مسرفين حين سجدوا له إعجاباً به .

ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، هو أن هذه الأبيات من أحسن شعره وأجوده . وليس من السهل أن تقول لماذا حسنت هذه الأبيات ، ولكنك تشعر فيها بجمال يجذبك ويستهوئك ، دون أن تستطيع له تحديداً ، جمال في اللفظ وجمال في المعنى ؛ فليس في اللفظ كلمة غريبة أو حرف ينبو على السمع ، بل هي ألفاظ متخيرة ليست بالمتبدلة ، ولا التي لا يفهمها عامة الناس . وليس في المعنى شيء مستغلق أو شيء مبتذل ، بل هي معان مألوفة ، ولكن استطاع الشاعر أن يقارب بينها ، فيحدث من هذه المقاربة جمالا ولذة ما كنت لتحسبهما ، لولا أن قرن لك الشاعر هذه المعاني بعضها إلى بعض . انظر إلى قوله « واشرب على الورد من حمراء كالورد » وانظر إلى قوله :

فَالْخَمْرُ يَا قُوتَهُ وَالسَّكَّاسُ لُؤْلُؤَهُ فِي كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةٍ الْقَدِّ
تَسْمِيكَ مِنْ يَدَيْهَا خَمْرًا وَمِنْ فِيهَا خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ مُسْكِرِينَ مِنْ بُدِّ

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ، هي التي تُحدث في نفسك اللذة ، وتبعثها على الإعجاب . وانظر إلى هذا البيت الأخير ، وإلى شطره الثاني بوجه خاص ، تجده حضرياً ، فانياً في الحضارة ، ومترفاً مغرقاً في الترف ، يعبر عن حضارته وترفه بلفظ يكاد يصل إلى قلبك ، دون أن تسمعه :

لِي نَشْوَتَانِ وَلَلنُدْمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ خُصِّصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

ولست أدري لماذا لم أسمع هذا البيت مرة ، إلا وددت لو سمعته من فم مغن يجيد الغناء !

الخمير عند أبي نواس^(١)

الشعر لسان الحياة - تجديد في الأساليب
والمعاني - صعوبة الاعتراف بالتطور -
المجون من مظاهر الحياة - الحنين إلى الفرس .

بعد العهد بيننا وبين أبي نواس ؛ فقد مضت أشهر بيننا وبين آخر مقال كتبناه عن وصف الخمر في شعره ، وما إخالك إلا قد نسيت هذا المقال ، كما هو شأن القارئ لما يكتب في صحيفة سيارة ، مهما يكن هذا الذي يكتب ، سياسة أو أدباً أو غير السياسة والأدب ، وما إخالك إلا نسيت هذا المقال ، على أنه لم يكن إلا مقدمة لما نريد أن نقوله موجزين عن خمريات أبي نواس .

فقد رأينا أن أبا نواس كان - بعد الوليد بن يزيد - أشد الشعراء عناية بالخمر وأكثرهم افتناناً فيها ، وأن الناس جميعاً شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم ، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء الذين جاءوا قبله أو بعده ، ورأينا أن الناس يحقون في هذا ، ولكننا رأينا أن معاني أبي نواس في الخمر - على أنها كثيرة مختلفة - يكاد يناها الإحصاء ، ونستطيع أن نقسمها إلى قسمين إثنين :

القسم الأول : هذه المعاني الكثيرة ، التي كانت تعجب القدماء ، وتفتن النقاد منهم ، ثم أصبحت لا تعجبنا ، أولاً تفتننا على أقل تقدير ، كتشبيه الخمر بالعذراء تخطب إلى أبيها الدهقان ، وكالإسراف في وصف قدم الخمر وما مر عليها من الأجيال والعصور ، وكالافتنان في وصف طعم الخمر وريحها .

القسم الثاني : هذه المعاني التي أعجبت القدماء وفتنتهم ، وما زالت تعجبنا وتفتننا ؛ لأنها لامت ذوق القدماء وحياتهم ، وما زالت تلائم ذوقنا وحياتنا ، ولأنها حبيبت إلى القدماء شرب الخمر ، وما زالت تحبب إلى المحدثين شرب

(١) نشرت بالسياسة في ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ هـ - ١١ يولية سنة ١٩٢٣ م .

الخمر . وهذه المعاني قليلة في شعر أبي نواس ، وقليلة في شعر غيره من الشعراء وقليلة في الخمريات قلبها في غير الخمريات . ذلك لأن المعاني التي تنفق على استحسانها العصور المتباعدة ، والأجيال المتباينة ، قليلة بطبعها في كل فن من فنون الشعر والأدب .

ثم مثلنا في ذلك المقال لهذه المعاني وتلك ، وأشرنا إلى أن شعر أبي نواس في الخمر لم يكن هزلاً كله ، ولم يكن الغرض منه المحجون وحده ، أو الإسراف في وصف اللذات ، وإنما كان أبو نواس يتخذ الخمر وسيلة إلى شيء من الجدل له خطره في الأدب ، ووسيلة إلى شيء آخر من الجدل ، له خطره في غير الأدب .

كان أبو نواس إذن حين يصف الخمر ، أو حين يتغزل ، يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء المحيدون من وصف الحس والشعور ، وتمثيل العاطفة تمثيلاً صحيحاً . ولكنه كان يقصد - مع هذا الشيء المشترك بينه وبين الشعراء - إلى شيئين آخرين ، أشرنا إليهما فيما مضى ونعود إليهما اليوم .

كان أبو نواس يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً لم ينهجه المتقدمون ، أو قل إنهم نهجوه ، ولكنهم لم يشعروا بذلك ، ولم يتخذوه عقيدة أو مذهباً في الأدب . كان يريد أن ينهج بالشعر منهجاً يشبه المنهج الذي نريد نحن وأصحابنا أن نهجه بالكتابة . كان يريد أن يتخذ الشعر لساناً للحياة الحاضرة ، وأن يلائم بين الشعر وبين ذوق الشعراء والذين يسمعون للشعراء . كان يريد - بعبارة جملة - أن يعدل عن أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها ، وفي تغني الإبل والنساء ، إلى وصف الحياة التي يحياها الشعراء والمستمعون لهم ، إثارة للصدق وبعداً عن الكذب .

كان أبو نواس إذن في هذا الشعر المخالف للأخلاق وأصول الفضيلة ، محباً للأخلاق وأصول الفضيلة ، كان يؤثر الصدق وينكر الكذب . ولكن يجب أن نفهم هذا على وجهه ؛ فلم يكن أبو نواس مؤثراً للصدق لأنه صدق ، لم يكن واعظاً ولا ناسكاً ، لم يكن حكماً يبشر بالحكمة ، أو فيلسوفاً يدعو إلى الفلسفة ، وإنما كان شاعراً يصدق في شعره ، ويجب أن يتحدث إلى الناس بما يفهمونه ، فينال منهم موضع الإعجاب والفتنة . كان يحب الصدق حباً عملياً ، أو قل كان يحب الصدق حباً فنياً . ولم يكن يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه ، لأن الدعوة إليه

ترضى الذوق ، وترضى الجمال الفنى .

وهو لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، لم يكن يدعو إلى تجنب أساليب القدماء فى المعانى فحسب ، وإنما كان يدعو إلى تجنب سنة القدماء فى المعانى ، وفى الألفاظ جميعاً . كان يريد ألا يستعير المحدثون معانى القدماء ، لأن لهم معانيهم ، ولم حياتهم . وكان يريد ألا يسرف المحدثون فى استعارة ألفاظ القدماء ؛ لأن لهم ألفاظهم ، أى لأن لغتهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت ، فيجب أن تتطور اللغة لتلائم هذه الحياة .

حدثت معان لم يكن يألفها القدماء ، فيجب أن تحدث لهذه المعانى ألفاظ غير الألفاظ التى ألفها القدماء ، رقت حاشية الحياة الحديثة ، وظهر فيها الرف ولين العيش ، فيجب أن تصطنع الألفاظ الرقيقة لهذه الحياة الرقيقة .

ويجب أن نلاحظ هنا شيئين : (الأول) أن هذا التطور فى اللغة واقع على كل حال ، سواء أراد الشعراء والكتاب أم لم يريدوه . وآية ذلك ظاهرة فى اللغة العربية وغير العربية ؛ ف شعر الأمويين ليس كشعر الجاهليين ، وإن كان الشبه بين هذين النوعين من الشعر قوياً ، وشعر العباسيين ليس كشعر الأمويين ؛ وقيل مثل ذلك فى النثر أيام بنى أمية وأيام بنى العباس . التطور إذن واقع ، لأنه قانون لا منصرف عنه لأى جماعة من الجماعات ، والناس خاضعون لهذا التطور ، راضون عنه . ولكن المشقة كل المشقة ليست فى خضوعهم له ورضاهم عنه ، وإنما هى فى « اعترافهم » به ، واتخاذهم مذهباً وطريقاً . وهذا هو الشيء (الثانى) الذى نريد أن نلاحظه ، وهو أن الخلاف بين القدماء والمحدثين ، يكاد يكون فى « الاعتراف » بالحديث لافى « قبول » الحديث ؛ فالحديث مقبول بطبعه ، لأنه الحياة ، ولكن الاعتراف به شاق ، لأننا فطرنا على المحافظة والاتصال بالسنن الموروثة .

ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشد الناس إلحاحاً فى تغيير الأسلوب الشعرى ، وتجديد اللفظ والمعنى ، ونفهم أنه لم يكن وحده مغير الأسلوب الشعرى ولا مجدد اللفظ والمعنى . وإنما كان الشعراء المعاصرون له — سواء منهم أنصاره وخصومه — يغيرون الأسلوب الشعرى ، ويجددون اللفظ والمعنى أيضاً ، وكان منهم من يعترف بهذا التغيير ، ويرى أنه مشروع ، فيمضى فيه ، ويحرص

عليه ، وكان منهم من ينكر هذا التغيير ، ويتكلف الفرار منه .
 وقع هذا أيام أبي نواس ، ووقع هذا في القرن السابع عشر الفرنسي ،
 ووقع هذا في كل عصر من العصور التي تطورت فيها الأمم ، وتطورت فيها
 اللغات أيضاً .

كان أبو نواس إذن يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين ، غير
 منافقين مع أنفسهم . وانظر إلى طريقته في الدفاع عن رأيه ، وأخذ الناس
 بهذا الرأي :

عَاجَ الشَّقِيَّ عَلَى رَسْمِهِ يُسَائِلُهُ وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ
 يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرُّكَ قُلُوبِي مِنْ بَنُو أَسَدِ
 وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قَيْسٌ وَلَفْهَمًا لَيْسَ الْأَعْرَابُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدِ
 لَاجِفٌ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صَمًا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتِدِ
 كَمْ بَيْنَ نَاعَتِ خَمْرِ فِي دَسَاكِرِهَا وَيَبِينُ بِأَكْبَعِ عَلَى نُؤْيٍ وَمُنْتَصِدِ
 دَعَا ذَا عَدِمْتِكَ وَأَشْرَبَهَا مُعْتَقَةً صَفْرَاءَ تَفْرُقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 مِنْ كَفِّ مُضْطَمِرِ الزُّنَارِ مُعْتَدِلِ كَأَنَّهُ غَضْنُ بَانَ غَيْرُ ذِي أَوْدِ
 أَمَارَيْتَ وَجُوهَ الْأَرْضِ قَدْ نَضْرَتْ وَأَلْبَسْتَهَا الزَّرَائِي نَثْرَةَ الْأَسَدِ
 حَاكَ الرَّبِيعُ بِهَا وَشَيْئًا وَجَلَّهَا بَيَانَعِ الزَّهْرِ مِنْ مَشْنَى وَمِنْ وَحْدِ

فانظر إليه : كيف آثر العنف في خطاب خصمه ، فأسرف في ذم القديم ،
 والنعمى على من يتكلفه ، وأسرف في مدح الجديد ، والحث عليه . وانظر إلى
 تبرُّمه بأسد ، ومن يبكي على أسد ، وإلى ذمه تميم وقيس والعرب كافة . ثم
 انظر إليه كيف يحقر هذا القديم ، ويرفع من شأن الجديد ، ويأخذ الناس بأن
 ينظروا إلى ما حولهم ، من جمال الطبيعة ، فيألفوه ويصفوه ، ولا يشغلوا عن
 رياض العراق وجناته ، بطلول الجزيرة العربية وصحاريها ؛ ومثل هذا الشعر
 كثير في خمريات أبي نواس ، كثير في غير الخمريات أيضاً ، يكفي أن ترجع
 إلى ديوانه ، لتتقنع منه بما تريد .

هذا أحد الشينيين اللذين كان يقصد إليهما أبو نواس حين يَمْتَنُّ في وصف الخمر واللذة .

والشئىء الآخر مذهبه فى الحياة لا فى الأدب ، وقد ذكرناه كثيراً ، فسخط الناس وأشفقوا ، وغلا بعضهم فى السخط والإشفاق ، حتى ظن بنا أنا نأتمر بالدين والعادة والخلق ، حين لم نكن نفكر إلا فى شئىء واحد ، هو التاريخ ، هذا الشئىء الذى نريد اليوم أن نمر به مسرعين ، هو المحجون . فقد كان أبو نواس مجدداً فى كل شئىء ، مجدداً فى الشعر ، ومجدداً فى الحياة . وبقيتنا نحن أن أبا نواس لم يكن مجدداً وحده ، وإنما كان أهل عصره كلهم مجددين أيضاً .

والفرق بين أبى نواس وغيره من معاصريه ، أنه كان يريد أن يحمل هؤلاء المعاصرين على أن يعترفوا بجيايتهم ، ولا يكذبوا على أنفسهم . فإذا كانوا قد نبذوا القديم واجتنبوه فى واقع الأمر ، فمن الحق عليهم ألا يخفوا هذا ولا يفروا منه . فهو إذن فى قضية المحجون ، يسلك نفس الطريق التى يسلكها فى قضية الأسلوب الأدبى ، يرى أن هناك تطوراً واقعاً ، وأنا خاضعون لهذا التطور ، وأنا ننكر هذا التطور ، ولا ننكر خصوصاً له ، وإنما نؤمن به إيماناً ، ونعترف به اعترافاً . وحجته فى ذلك أن هذا سبيل الصادقين ، وأنتك قد تستطيع أن تخفى ما تشاء على من تشاء ، ولكنك لن تستطيع أن تخفى على الله شيئاً والله وحده هو الذى يجب أن تصدقه فى سرك وجهرك ، فإذا اجترأت على معصية الله ومخالفة حدوده ، فما يعينك أن يقول الناس فيك ! وانظر هذه الأبيات :

لَا تَسْفِنِي إِنْ كُنْتَ بِي عَالِمًا
 إِلَّا التى أَضْمَرْتُ فى صَدْرِى
 هَاتِ التى تَعْرِفُ وَجِدْرِى بِهَا
 وَأَكُنْ بِمَا شِئْتَ عَنِ الخَمْرِ
 يَا حَبِّدًا الجَهْرُ بِأَمْرِ الصَّبَا
 مَا كُنْتُ مِنْ رَبِّكَ فى سِتْرِ

هو إذن مقتنع بوجود العدل عن القديم والاعتراف بالجديد ، وهو شديد الاقتناع ، قد يتكلف فى سبيله ما يتكلفه المقتنعون ، من الإسراف والتعصب والخروج عن الطور . وانظر إلى هذه الأبيات التى لم يخفل فيها ج ٢ (٧)

أبو نواس بقاعدة دينية أو خلقية ، وإنما اتخذ الإباحة والصرحة مذهباً وسبيلاً :
 أَلَا فَاسْتَفِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْفِنِي سِرًّا إِذَا أُمِّكُنَ الْجَهْرُ
 فَعَيْشُ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصَرَ الدَّهْرُ
 وَمَا الْعَيْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبِيًّا وَلَا الْعُمُ إِلَّا أَنْ يُتَعْتَعَنِي السُّكْرُ
 فَبِخْ بِاسْمٍ مِنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
 وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكِ بَغِيرِ مَجَانَةِ وَلَا فِي مُجُونٍ لَيْسَ يَتَّبِعُهُ كُفْرُ
 ولا تحسبن أبا نواس شاذاً في هذا أو منتحلاً إياه انتحالاً ، وإنما هو أثر

البيئة فيه ، وهو نفسه يحدثنا بهذا ، فيقول :

وَقَائِلُ هَلْ تُرِيدُ الْحَجَّ قُلْتُ لَهُ نَعَمْ إِذَا فَنَيْتَ لَذَاتُ بَعْدَ إِذِ
 أَمَّا وَقَطْرُ بِلٍ مِنْهَا بِحَيْثُ أَرَى قَمَنَةُ الْفَرَكِ مِنْ أَكْنَافِ كَلَوَازِ
 فَالصَّالِحِيَّةُ فَالْكَرْخُ الَّتِي جَمَعْتُ شَذَاذَ بَعْدَادَ مَا هُمْ لِي بِشَذَاذِ
 فَكَيْفَ بِالْحَجِّ لِي مَا دُمْتُ مُنْقَسِمًا
 وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بَعْدَادِ تَحْلَضُنِي كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِي مِنْ طَيْرِ نَابَازِ

ويقول بعد أن حج :

قَالُوا تَدْسُكَ بَعْدَ الْحَجِّ قُلْتُ لَهُمْ أَرَى وَأَرْجُو وَأُخْشَى طَيْرَ نَابَازَا
 أُخْشَى قُضَيْبَ كَرَمٍ أَنْ يُنَازِعَنِي رَأْسَ الْقِطَارِ وَإِنْ أَسْرَعْتُ إِغْدَاذَا
 مَا أَبَعَدَ النَّسْكَ مِنْ قَلْبِ تَقْسَمُهُ قَطْرُ بِلٍ فَفَرَمَى بُنَى فَسَكَلُواذَا
 فَإِنْ سَلِمْتُ ، وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ السَّلَامَةِ لَمْ أُسَلِّمْ بِبَعْدَادَا
 مَا شَأْنُ مِنْ بَلَدٍ دَانَ مَنَازِهِهُ
 وَقَعَا تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبِرِّ بَيْنَهُمْ تَقُولُذَا شَرُّهُمْ بَلْ ذَاكَ بَلْ هَذَا
 لَيْدُ وَآكِقَوْمٍ إِذَا حَادَيْتَ مَجْلِسَهُمْ أَنْفَذْتَ بِالتَّرْكِ وَالْأَرْكَانِ إِنْغَادَا
 هُنَاكَ لَا تَتَخَطَّى الْأُذُنَ لَا لِمَمَّةٍ وَلَا تَرَى قَانِلًا مِنْ ذَا وَلَا مَادَا

فقد رأيت مما روينا ، أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ، ولا في
 المحجون ابتداءً ، ولم يتكلفه تكلفاً ، وإنما عاش في عصر وبيئة ، كانا يضطرانه
 إلى أن يرى هذا الرأي ، وينهج هذا المنهج . وكل الفرق بينه وبين خصومه وأنصاره
 — كما قلنا — أنه كان صريحاً يؤثر الاعتراف بحياته التي يحياها ، على
 التستر والتكتم . ولسنا نقول إنه مصيب ، ولسنا نقول إنه مخطئ ؛ فقد
 يختلف الناس في أن الصراحة خير أو شر ، إذا كان موضوعها الإثم والمحجون .
 وليس يعنينا أن تكون صراحة أبي نواس شرّاً أو خيراً ، وليس يعنينا الآن
 إثم أبي نواس أو مجونه ، أو بغضه للقديم وحبّه للحديث ، ليس يعنينا شيء
 من هذا في نفسه ؛ فنحن لا نتخذ أبا نواس قدوة ولا إماماً ، ولا نعتقد أن
 أبا نواس يصلح قدوة أو إماماً في ضروب الحياة المختلفة ، وإنما نحن نذهب
 مذهب المؤرخ . ونحيل إلينا أن هذا البحث على إيجازه ، ينتج لنا أن شعر
 أبي نواس في الخمر على ما فيه من جمال ففي يعجب الأدباء والنقاد ، كان يرمى إلى
 غرضين اثنين : الاعتراف بالجلديد في الأدب ، والاعتراف بالجلديد في الحياة .
 بل نستطيع أن نوجز فنقول : كان شعر أبي نواس كله رفضاً للقديم في كل
 شيء ، وكلفاً بالجلديد في كل شيء .

والآن وقد عرفنا فلسفة أبي نواس في الخمر ، لا ينبغي أن ننصرف عن
 هذا الباب من شعره ، دون أن نشير إلى ما له من المقطوعات والقصائد
 التي تنظر إليها في نفسها النظر الفني الخالص ، فلا تستطيع إلا أن تعجب
 بها وترضى عنها ، فتقرأها ، وتقرأها ، وتميل إلى حفظها ، وتميل إلى أن تسمعها
 في الغناء .

كثير جداً هذا النوع من شعر أبي نواس في الخمر ، وكأنه كان يريد
 حين يضع هذه المقطوعات أن تتخذ للغناء والتلحين ، تمجيداً للخمر ، وتأييداً
 لمذهبيه في الأدب والمحجون . فأنت تذكر همزيتة المشهورة :

« دَعَّ عَنكَ لَوْمَى فَإِنِ اللُّومُ إِغْرَاءُ »

وتذكر أني قد حللتها في غير هذا المكان ، وتذكر قصيدته الأخرى :

أَعَاذِلُ أَعْتَبْتُ الْإِمَامَ وَأَعْتَبَا وَأَعْرَبْتُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ وَأَعْرَبَا

وانظر إلى هذه القصيدة ، وقد كان فيها جدال بينه وبين مسلم بن الوليد :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتاحَا
 أَوْفَى عَلَى شَرْفِ الْجِدَارِ بِسُدْفَةٍ
 بَادِرٌ صَبَاحَكَ بِالصُّبُوحِ وَلَا تَكُنْ
 وَخَدَيْنِ لَذَاتِ مُعَلَّلِ صَاحِبِ
 نَهْتُهُ وَاللَّيْلُ مُلْتَبِسٌ بِهِ
 قَالَ أَيُّنِي الْمِصْبَاحُ قُلْتُ لَهُ أَنْتِذُ
 فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الرَّجَاجَةِ شَرِبَةً
 مِنْ قَهْوَةٍ جَاءَتْكَ قَبْلَ مِزَاجِهَا
 شَكَّ الْبِزَالُ فُوَادَهَا فَكَأَنَّهَا
 صَهْبَاءُ تَقْتَرِسُ النُّفُوسَ فَمَا تَرَى
 عِمْرَتٌ يُكَاتِمُكَ الزَّمَانُ حَدِيثَهَا
 وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَاخَا
 غَرْدًا يُصْفَقُ بِالْجِنَاحِ جَنَاحَا
 كَمُسُوفِينَ غَدَوَا عَلَيْكَ شِحَاخَا
 يَقْتَاتُ مِنْهُ فُكَاهَةٌ وَمُزَاحَا
 وَأَرْحَتُ عَنْهُ نِقَابَهُ فَانزَاحَا
 حَسْبِي وَحَسْبُكَ ضَوْهَهَا مِصْبَاحَا
 كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحَا
 عَطَلَا فَالْبَسَمَا الْمِزَاجُ وَشَاحَا
 أَهَدَتْ إِلَيْكَ بَرِيحَهَا تُفَاحَا
 مِنْهَا بَيْنَ سِوَى السُّبَاتِ جِرَاحَا
 حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّامَةَ بَاحَا

وانظر إلى هذه المقطوعة التي تكلف أبو نواس فيها البديع ، فأحسن التكلف :

عَادِلِي فِي الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحِ
 لَا تَلْمَنِي عَلَى الَّتِي فَتَنَّتْنِي
 قَهْوَةٌ تَتْرُكُ الصَّحِيحَ سَقِيًّا
 إِنْ بَدَلِي لَهَا لَبْدَلُ جَوَادِ
 لَا تَلْمَنِي عَلَى شَقِيقَةٍ رُوحِي
 وَأُرْسِنِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحِ
 وَتُعِيرُ السَّقِيمَ ثُوبَ الصَّحِيحِ
 وَاقْتِنَانِي لَهَا اقْتِنَانَهُ شَحِيحِ

وانظر إلى هذه الأبيات التي لا يشك قارئها أنها قيلت أمس أو اليوم ؛ لأنها تصف شيئاً مما نحن فيه ، وأحسب أنها ستظل جديدة على الدهر :

تَقْتِيرُ عَيْنَيْكَ دَلِيلٌ عَلَى
 عَلَيْكَ وَجْهُ سَيِّءٍ حَالُهُ
 أَنْكَ تَشْكُو سَهْرَ الْبَارِحَةِ
 مِنْ لَيْلَةٍ بَتَّ بِهَا صَالِحُهُ

وَنَمَحَّةُ الْخَمْرِ وَأَنْفَاسُهَا وَالْخَمْرُ لَا تَخْفَى لَهَا رَائِحَةٌ
وَعَادَةٌ هَارُوتُ فِي طَرْفِهَا وَالشَّمْسُ فِي مَفْرِقِهَا جَانِحَةٌ
تَسْتَقْدِحُ الْعُودَ بِأَطْرَفِهَا وَنَعْمُهُ فِي كَبِدِي قَادِحَةٌ

وانظر إلى هذه الأبيات أيضاً وحدثنى ، أليست وضعت لتغنى :

أَلَهُ بِالْبَيْضِ الْمِالَاحِ وَبِقَيْنَاتٍ وَرَاحٍ
لَا يَصُدُّكَ لَاحٍ هُوَ عَن سُكْرِكَ صَاحٍ
لَيْسَ لِلَّهِمْ دَوَاءٌ كَأَغْتَبَاقٍ وَاضْطَبَاحٍ
فَلَعَمْرِي مَا يُدَاوِي أَلَهُمْ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحِ

ولو أنى أردت أن أروى لك كل ما يعجب من هذا الشعر لما فرغت ،
ولكنى أريد أن أختم هذا الفصل بقصيدة كلها جدد ، وقد أعجب بها العلماء
والنقاد في القرن الثالث ؛ لأن أبا نواس عرض فيها للوصف فأجاده ، وأحسنه
إحساناً عظيماً . وأعجب بها أنا ؛ لأن أبا نواس أراد أن يبكى الأطلال والديار
فيكافها ، ولكنه لم يبك أطلال البادية ، وإنما بكى أطلال الحاضرة . لم يبك
أطلال حتى ارتحل ، وإنما بكى أطلال الشرب وأصحاب اللهو ، بعد أن فرغوا
من طهيم ، وانصرفوا عن ملهاهم ، فتركوا فيه ما ترك أمثالهم من الآثار .
فأبو نواس لا يذكر الخيمة ولا النوى ولا الوتد ، وإنما يذكر ما ستمتع :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَلُوهَا وَأُدْجُوا
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الرَّاقِ عَلَى التَّرَى
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ
وَلَمْ أُدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ
أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ
بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
وَأَضْعَاثُ رِيحَانِ جَنِيٍّ وَيَابِسُ
وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَايِسُ
بِشَرْقِي سَابَاطِ الدِّيَارِ الْبَسَابِسُ
وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسُ
حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كَسْرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا مَعَى تَدْرِيبِهَا بِالْقَيْسِ الْفَوَارِسُ
فَلَاخَمَرٍ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَاللِّمَاءُ مَا دَارَاتُ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

أرأيت إلى هذه الآثار التي تركها جر الدنان ؟ أرأيت إلى هذا الريحان جنيه
ويابسه ؟ هذه هي أطلال أبي نواس . ثم أتجس في هذه القصيدة شيئاً من
الميل إلى الفرس والإعجاب بهم ، والحنين إلى عهدهم القديم ! ثم أتري وصف
الكأس وما فيها من صورة ، وتقسيم هذه الصورة بين الخمر ومزاجها !
ثم انظر إلى هذا البيت الذي يبتدىء به أبو نواس إحدى قصائده ، وانظر
إلى ما فيه من هذه السخرية العصرية بأصحاب الأطلال والباكين عليها ، بامرئ
القيس وأصحابه :

قُلْ لِعَنْ يَبِيكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ وَأَقِفَا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسٍ
نَصِفُ الرَّبْعَ وَمَنْ كَانَ بِهِ مِثْلَ سَلْمَى وَلُبَيْتِي وَخَنَّسٍ
أَتْرُكُ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جَانِبًا وَاصْطَبِخْ كَرِّخِيَّةً مِثْلَ الْقَبَسِ

هذه طائفة من شعر أبي نواس في الخمر ، لم نتكلف اختيارها ، ولا نشك
في أن لأبي نواس خيراً منها . ولكننا أطلنا في هذا الباب ، فلننتقل منه إلى
الغزل في الأسبوع الآتي .

الغزل في شعر أبي نواس^(١)

غزله بالنساء - غزله بالغلمان -
الإمام في بغداد - الحرائر في العصر
العباسي - حبه لجنان .

رأينا مذهب أبي نواس في وصف الخمر وتمجيدها ، وعرفنا أنه لم يصف الخمر عبثاً ، وإنما وصفها وسيلة إلى إعلان رأيه في تجديد الأدب ، وإعلان مذهبه في المحبون ، وإعلان ما يكن للخمر من حب ، وما يختصها به من كلف .

ونريد اليوم أن نعرف مذهب أبي نواس في الغزل . ولكني أتعجل فألفتك إلى أن هذا غير ميسور ؛ لأن أبا نواس لم يتغزل كغيرة من الشعراء الذين سبقوه ، ولم يسلك السبيل التي مهدت من قبله ، وإنما سلك سبلاً أخرى ليس يباح لنا ، في صحيفة سياره ، أن نسلكها معه ، أو نتبعه فيها .

لأبي نواس غزلان : غزله بالنساء ، وغزله بالغلمان ، وهو مجيد في الثاني ، محسن الإحسان الفني كله ، صادق أيضاً أشد الصدق ، ولكنك تقرنا على أننا لا نستطيع أن نطرق هذا الباب ، إلا في كتاب مخصص لأبي نواس ، يقرؤه الخاصة ، ولا تصل إليه يد العامة إلا مصادفة وبعد مشقة .

أما غزله بالنساء فكثير ، وفيه الجيد ، ولكن فيه الرديء . ولعلك إذا أردت أن تميز هذا الغزل ، أو تصفه بوصفه الصحيح ، لم تستطع أن تعدل عن هذا الحكم ، وهو أن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين كان يتغزل بالنساء ، وإنما كان مازحاً ، أو بعبارة أصح كان مخادعاً وكان كذاباً ، وكان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً ، يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ، ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن ، حتى لا يفوته هذا الفن . وفي الحق أنه لم يقصّر في هذا الفن ؛ فقد وصف النساء فأحسن وصفهن ،

(١) نشرت بالسياسة في ١٨ من ذي الحجة سنة ١٣٤١ هـ - أول أغسطس سنة ١٩٢٣ م .

وقد وصف ما بين النساء والرجال من صلة ، فأجاد الوصف ، وأتقن التصوير . ولكنه لم يصف النساء جميعاً ، وإنما وصف منهن طائفة خاصة ، ولم تكن هذه الطائفة أقرب النساء إلى الطهر والعفاف ، ولا إلى البر والصون ، وإنما كانت طائفة مبدلة ممتنة ، حظها من الطهر والعفاف قليل . لم يعرض أبو نواس أو لم يكده يعرض للمحصنات من النساء ، ولا للحرائر منهن ، وإنما عرض للإماء ، فأحسن وصفهن ، وترك لنا منهن صورة إن لم تكن صحيحة صادقة كل الصدق ، فهي قريبة جداً من الحقيقة الواقعة . عرض للإماء ولطائفة بعينها من الإماء ، لهذه الطائفة التي كانت تتألف من إماء مهذبات ، قد أحسن تأديبهن ، فروين الشعر وقرضنه ، وأحسن الموسيقى ، ونبغن فيها ، وأخذن من العلم والأدب المعروفين حيثنذ بطرف لا بأس به ، فكان يثبئن لمناظرة الشعراء والعلماء وأئمة اللغة ، وكن يمتزن بذلك ، ويتقدمن على الحرائر والمحصنات ؛ لأن حرية هؤلاء وإحصانهن كانا يحولان بينهما وبين التحدث إلى الرجال ، والتبذل في هذا الحديث .

كان الإماء إذن مظهر المرأة في بغداد ، ولكنه كان مظهرًا سيئاً جداً من جهة ، وحسناً جداً من جهة أخرى ، كان مظهرًا سيئاً ، لأنهن كن مبتذلات خليعات ، يتهاكن على الخلاعة ، ويسرفن في الحجون ، ويتخذن من تهاكن على الخلاعة ، وإسرافهن في الحجون سلاحاً قوياً ، يتملقن به لذة الرجال وشهواتهم ، ويحاربن به الحرائر المحصنات حرباً غير متكافئة . وكن مظهرًا حسناً لأنهن كن أديبات عالِمات ، يتصرفن في فنون الأدب والعلم على اختلافها .

ومن هنا وجب القصد والاحتياط في الحكم على نساء هذا العصر ، بما نرى في شعر أبي نواس وغير أبي نواس ، وبما نرى في الأغاني وغير الأغاني ، مما يشهد بتفوقهن العقلي من جهة ، وانحطاطهن الخلقى من جهة أخرى . يجب القصد والاحتياط ؛ لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة ، بل لا تمثل المرأة المسلمة الحرة ، وإنما تمثل هذا الرقيق الذي كان يجلب إلى بغداد وغير بغداد من حواضر المسلمين ، فيتخذ فيها تجارة وطواً ، كما يتخذ تجارة وطواً فاخر الأثاث وحسن الرياش .

هؤلاء النساء لا يمثلن المرأة الحرة ، وإنما يمثلن الرجل الحر ، فقد كن

له لذة وطهراً ، وكن لأخلاقه وحياته خارج البيت مرآة مجلوة ، تمثلها أحسن تمثيل . فلو أن هؤلاء الإمام اللاتي ذكرهن أبو نواس ما كن يجبن اللهو ، ويتهاككن على المحبون ، ويقبلن فيه من ضرور الخلاعة والابتذال ما لا يقبله الحرائر ، لما استطاع أبو نواس وغير أبي نواس أن يقولوا فيهن ما قالوا ، أو أن يصنفوهن بمثل ما وصفوهن به .

كان في جاهلية العرب وصدر الإسلام وأيام بني أمية شعراء يجبون الفتك ويتحدثون به ؛ فلامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة في ذلك شعر كثير ، ولكن هؤلاء الشعراء كانوا يؤثرون العفة وحسن القول ، حتى في الفتك والفحش ، وكان شعرهم الفاحش قليلاً جداً ، بالقياس إلى شعرهم العفيف . وكان الشعراء الصادقون في الحب ، المؤثرون للعفة والطهارة في كل ما يقولون ، كثيرين جداً بالقياس إلى هؤلاء الشعراء الفاتكين ، ذلك لأن سلطان الإمام كان ضعيفاً جداً ، أو لم يكن موجوداً في هذه العصور ، ولأن الرجال الأحرار كانوا يؤثرون كرامتهم على لذاتهم ، فكانوا يؤثرون نساءهم على إمامهم . أما في أيام بني العباس فقد تغيرت الحال تغيراً شديداً ، كثر الإمام كثرة فاحشة ، وتفوقن تفوقاً فاحشاً ، في الأدب والشعر والغناء ، وفي ضرور الزينة واستهواء الرجال . وتغيرت أخلاق الرجال ، فهالكوا على اللذة ، واستبتموا إلى الشهوات ، فاعتقلوا الحرائر المحصنات ، وكلفوهن ما تتكلفه المرأة الحرة المحصنة ، من الإشراف على حياة الأسرة في عفة وكرامة ، ولكن من وراء حجاب . ثم أسرفوا في اتخاذ الرقيق ، وأباحوا لأنفسهم مع هذا الرقيق من ضرور اللذات ، ما تأبى الكرامة وإكبار الحرائر اتخاذه مع الزوجات ؛ فكان هذا الفساد العظيم ، الذي يمثله غزل أبي نواس بالنساء والغلمان . . . أتظن أن أبا نواس كان يستطبع أن يقول في حرة محصنة مثل هذه القصيدة :

وَنَابِهِ فِي الْهَوَى لَنَا نَاسِي قَطَعَ بِالْهَجْرَانِ أَنْفَاسِي
لَسْتُ لَهَا وَاصِفًا مَخَافَةَ أَنْ يَعْرِفَ مَا بِي جَمَاعَةُ النَّاسِ
أَكْثَرُ وَصْفِي لَهَا شِكَايَةً مَا فِيهَا قَضَى اللَّهُ لِي عَلَى رَاسِي

يُطْمِعُنِي لِحَظَهَا وَيُوْنِسُنِي
فَصِرْتُ بِاللَّحْظِ مِنْ مُعَذِّبَتِي
أَسْعَدُ يَوْمَ لَهَا حَظِيْتُ بِهِ
لِذَلِكَ الْيَوْمِ مَا حَيَّيْتُ وَمَا
تَقُولُ لِي وَالْمُدَامُ مُرْسَلَةٌ
هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النَّمَّاسَ فَقَدْ
قُلْتُ لَهَا فَا بْتَدِي وَهَاتِي فَمَا
وَعَايَتِي أَنْ أَنْالَ فَضْلَتَهَا
مُمْ أَظُنُّ الْحِذَارَ نَبَّهَهَا
قَالَتْ فَدَعِ عَنْكَ الْاِخْتِيَالَ لِمَا
أَعْرَضْتُ عَنْهَا وَقَدْ فَهِمْتُ لِي
مُمْ دَعَتْهَا الْمُدَامُ مِنْ كَثْبِ
فَا حْتَلَبْتُ زِقْنًا فَمَجَّجَ بِهَا
مُمْ تَحَسَّتُ حَتَّى إِذَا شَرِبْتُ
نَارَعْتُهَا الْكَأْسَ فِيهِ فَضْلَتَهَا
فَكَادَتْ النَّفْسُ لِلشَّرُورِ بِهَا
بِالْلَفْظِ مِنْهَا فَوَادَهَا الْقَاسِي
وَاللَّفْظِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْيَاسِ
مَقَالَهَا لِي وَلَسْتُ بِالنَّاسِي
تَرْجَمَ قَوْلِي سَوَادَ أَنْفَاسِي
تَفِيضُ حَوْلِي نَفُوسُ جُلَاسِي
طَابَ انضِوَاعُ الْمُدَامِ وَالْأَسِ
حَسَوْتُ مِنْهَا فَإِنِّي حَاسِي
فِي الْكَأْسِ مِنْ شُرْبِهَا أَوِ الطَّاسِ
وَمَا بِهَا قَدْ أَرَدْتُ مِنْ بَاسِ
أَرَدْتُ سُكْرِي لَهُ وَإِنْعَاسِي
تَحَسَّبَ أَنِّي لِقَوْلِهَا نَاسِي
وَاللَّيْلُ ذُو سُدُفَةٍ وَإِدْمَاسِ
فِي الْكَأْسِ رَاحًا كَضْوِ مِقْبَاسِ
نِصْفًا كَمَا قَيْسَ لِي بِمِقْيَاسِ
فَفَزْتُ بِالْكَأْسِ بَعْدَ إِمْرَاسِ
تَخْرُجُ بَيْنَ الْمُدَامِ وَالْكَأْسِ

أترى إلى امرأة حرة محصنة تستحث أبا نواس على المنادمة ومنازعة
الكَأْسِ ؟ أترى إليها تذهب هذه المذاهب الملتوية في اجتنابه إليها ، وترغيبه
فيها ، تطمعه حيناً ، وتؤيسه حيناً آخر ؟ بل أترى إلى امرأة حرة محصنة
تبتذل نفسها ، فتنزل إلى المنادمة والمداعبة ؟ كلا ! وإنما هي أمة من
الإماء ، وامرأة من هؤلاء النساء اللاتي بذلن أنفسهن ، فابتذلن الرجال .
ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقاً ، ومتحدثاً عن عاطفة قوية متقدمة في أكثر
الأحيان ، حينما كان يذكر هؤلاء النساء ، أو يتغزل بهن ، وإنما كان يترضاهن

ترضياً ، ويتملقهن تملقاً ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى .

أضف إلى هذا أن أبا نواس كان معتدلاً جداً في الميل إلى النساء ، وكان مسرفاً جداً في ميل آخر . . . فمن المعقول ألا يتحدث عن نفسه وعواطفه حين يتغزل بالنساء . ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل ، إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لا أريد التكلف اللفظي ، وإنما أريد تكلف المعنى ، وانتحال الحب .

وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره في «جنان» ؛ فقد يظهر أنه كلف بها حقاً ، وهام بها بعض الهيام ، وتجشم في سبيلها مالا يتجشمه الماجن المداعب ، ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصداً ولا عفيفاً في كل ما قال في «جنان» ، وإنما أسرف وورط نفسه في شيء من الإثم . فانظر إلى هذه الأبيات :

وَعَاشِقِينَ التَّفَّ خَدَاهُمَا عِنْدَ التِّثَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ
فَالْتَقِيَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَا كَأَنَّمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدِ
لَوْ لَا دِفَاعُ النَّاسِ إِيَّاهُمَا لَمَا اسْتَفَاقَا آخِرَ الْمُسْنَدِ
قُلْنَا كِلَانَا سَاتِرٌ وَجْهَهُ مِمَّا بِيَلِي جَانِبَهُ بِالْيَدِ
نَفَعَلُ فِي الْمَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ الْأَبْرَارُ فِي الْمَسْجِدِ

وليس من شك في أنهما كانا على موعد ، فانظر إلى هذه الأبيات :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَفْنَيْتُ مُعْرِي بِمَطْلَبِهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَبًا إِلَيْهَا يُقَرِّبُنِي وَأَعْيَتْنِي الْأُمُورُ
حَبَّجْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَبَّجْتُ جِنَانُ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

وأنا أحسب أن حب أبي نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف ، وإنما كان نوعاً من الأمل ، يتحرق الرجل لتحقيقه ، ويعسر عليه هذا التحقيق ؛ فأما إيثارها بالخير ، وتقديم لذتها على لذته ، وأمنها على أمنه ،

ازعة
غيبه
صنة
من
ك
كث
اهن

فعاطفة أحسب أنها لم تجد إلى نفسه سبيلا ؛ وهذه الآيات أصدق دليل على ذلك :

يَا قَمَرًا أَبْصَرْتُ فِي مَائَتِمِ
يَبْكِي فَيُذْرِي الدُّرَّ مِنْ نَرَجِسِ
أُبْرَزَهُ الْمَائِمُ لِي كَارَهَا
لَا زَالَ مَوْتًا دَابُّ أَحْبَابِهِ
يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَرْابِ
وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بَعْنَابِ
بِرَّغْمِ بَوَابِ وَحُجَّابِ
وَكَانَ أَنْ أَبْصِرَهُ دَائِي

أتظن أنه يحبها حقاً حين يتمنى أن يموت أحبابها في كل يوم ، لتظهر معولة ، نادية ، وليستطيع هو أن يراها ؟ أليست ترى في هذا أن الرجل كان أثراً مسرفاً في حب نفسه ولذته ، يريد أن يستمتع بمنظر هذه المرأة ، مهما تكلفت هذه المرأة في هذا من شر ، واحتملت من خطوب ! لم يكن أبو نواس إذن صادقاً في حب النساء ، وليس شعره صادقاً في تمثيل النساء كما هو صادق في تمثيل الرجال ، ولكنه على هذا كله يظهرنا على وجه من وجوه الحياة الأدبية والعادية في بغداد أيام بني العباس .

ومن الحق أن نتبين هذا الوجه ونحسن درسه ؛ فقد يعيننا ذلك على فهم أشياء كثيرة لم نفهمها بعد من أمر هذا العصر . وإذن فننحاول أن نتناول هذا الفن من شعر أبي نواس بشيء من البحث المفصل الدقيق ، وأن نعرض في شيء من التفصيل لمن عُرِفَ من هؤلاء الإماء اللاتي تعشقهن أبو نواس . ونرجو أن نفي بذلك في مقال آخر .

الغزل عند أبي نواس^(١)

صدق الغزل الأموي - تكلف الغزل

العباسي - الغزل بالعلماء .

بعيد جداً ما بين هذا الغزل النُواسي العباسي ، الذي أشرت في الفصل الماضي إلى أنه ضعيف متكلف ، وذلك الغزل الأموي العربي ، الذي أشرت في فصل مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته .

نعم ! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النُواسي ، وبين ذلك الغزل الذي كان ينشره جميل أو كُشَيْرٌ أو عمر بن أبي ربيعة الفرق عظيم جداً ، وليس عظيم هذا الفرق شيئاً غريباً في نفسه ، فيكفي أن تنظر إلى العصر الأموي والعصر العباسي من جهة ، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين ونفسية أبي نواس من جهة أخرى ، لتتضح بأن هذا الفرق لا ينبغي أن يكون غريباً ، بل ينبغي أن يكون واجباً محتوماً . يجب أن تنظر إلى العصرين ، لترى في أولهما ، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة ، سداجة ظاهرة ، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد ، ولم ينته إلى نتائجه المعقولة ؛ ولترى في ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرأ قليلاً قليلاً من عريبتها ، وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس التي كانت تفتد على العراق ، وعلى بغداد بنوع خاص ، فتحمل أمزجتها وأهواءها ولذاتها ، وكل ما فيها من خير وشر بعيد ، ما بينه وبين ما في نفس الأجناس العربية من صلة .

يكفي أن تنظر إلى هذا كله لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسي عامة ، وبين الغزل الأموي عامة . فإذا فهمت هذا ، وعرفت له أثره في نفس أبي نواس ، وجب عليك أن تنظر إلى أبي نواس نفسه ، وإلى ما قدّمت من حياته وميوله وأهوائه ، وأن تنظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموي ،

(١) نشرت بالسياسة في ٨ صفر سنة ١٣٤٢ هـ - ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ م .

وإلى نفسياتهم المختلفة ، فتزداد بهذا الفرق إيماناً ، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحاً .

كان « جميل » وأمثال « جميل » قوماً غزلين بطبيعتهم ، غزلين لأنهم يحبون النساء ، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء ، يحبونها ويكلفون بها ، فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم ، حتى لا يعيشون إلا به وله ، وحتى لا يصدرون إلا عنه ، ولا يردون إلا عليه . وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة ، سهلة لم تعقدتها حاجات المدنية ، فكانوا إذا ذكروا النساء ، أو تغنوا بحبهن ، وصفوا عواطف قوية صادقة ، فصدقوا في الوصف ، وكانوا فيه أقوياء .

ثم كان « كثير » وأمثال « كثير » يحبون النساء ، ويحبون ذكر النساء يتخذونه فناً ، ويحاولون الإجابة فيه ، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل ، ولكنهم كانوا قريبين منهم ؛ لأنهم كانوا يتأثرونهم ، ويسلكون سبيلهم ، ويريدون أن يخذعوا الناس عن أنفسهم ، وأن يمثلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقاً . كان الأولون صادقين ، وكان الآخرون يريدون أن ينهروا مظهر الصادقين ، وربما لم يجرموا الصدق حرماناً تاماً .

أما عمر بن أبي ربيعة ، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية ، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية ، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرية . لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل الأعلى للجمال والحب ، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة ، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم . كان ابن أبي ربيعة رجلاً يحب الحياة ، ويحب المرأة ؛ لأنها زينة الحياة ، أو لأنها اللذة في الحياة ، وكان صادقاً في حب المرأة ، من حيث هي لذة الحياة ؛ فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية ، كما يقول المحدثون ، مؤثراً ، لأنه كان صادقاً ، ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة ، تؤثر في نفس الشاعر ، وتؤثر في حياته العملية أيضاً . . . كذلك كان شعراء بني أمية ، سواء منهم العذريون حقاً ، ومن تكلفوا العذرية ، ومن أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إلا إلى اللذات ، وضروب اللهو بالنساء .

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً ؛ وما كان يستطيع

أن يكون عذرياً ، وهو الرجل الذى شك فى كل شىء ، أو قل أنكرك كل شىء ، ولم يؤمن إلا بالحقون واللذة ، يلتمسهما حيث يجدهما ، لا يتقيد فى ذلك بخرج أو جناح . لم يكن عذرياً ، ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً ، وإنما كان يسخر من العرب ، ومسا كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية ، وإنما كان يهيم باللذة ، وبلذة غير التى كان يهيم بها عمر بن أبي ربيعة . لم يكن أبو نواس يحب النساء ، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً ، حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج ، على رغم إلحاحهم عليه ، وتوسلهم إليه . لم يفلحوا ؛ لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية ، ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة .

لم يكن إذن يحب النساء ؛ فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن ، أو يحسن الغزل فيهن ، ومع ذلك فقد تغزل ، تغزل لأنه شاعر ، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل ؛ فالغزل فن من فنون الشعر ، يجب على الشعراء المحيدين أن يطرقوه ، ويأخذوا منه بنصيب . وقد طرقه أبو نواس ، وأخذ منه بنصيب . ولكننا نذلم أبا نواس إن قلنا : إنه لم يكن قط صادقاً فى غزله ، نذلمه لأنه كان صادقاً فى غزله ، بل كان شديد الصدق فيه ، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة فى صدق العاطفة ، وإجادة الوصف ، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين : أحدهما الفرق بين العصر العباسى والعصر الأموى . والآخر أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء ، وإنما كان يجيد الغزل بالغلمان . . . فلأبى نواس فى هذا الباب ما لابن أبى ربيعة فى الغزل بالنساء ، بل أنا أزعم أن أبا نواس فى هذا الباب أشعر من أبى ربيعة فى الغزل بالنساء . ولست أستدل على هذا إلا بشىء واحد ، وهو أن أبا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلان على أن تعجب بهذا الغزل ، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين . أما ابن أبى ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله ، بل كل شىء يحملك على أن تعجب بغزله ، فطابعتك تحب إليك ذكر النساء والتغزل بهن . وإذا أسرف ابن أبى ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين ، فليس فى هذا الإسراف خروج عن الطبيعة ، أو تجاوز لها ، وإنما هو جزء من الطبيعة ، أو قل إنه الطبيعة بنفسها ، جاء الدين والأخلاق لتقيدها وإصلاحها .

أبو نواس إذن مجيد حين يتغزل بالغلان ، ولكنه فاطر أو كاذب أو

متكلف حين يتغزل بالنساء ، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية في نفسه ، أو حباً صحيحاً ، وإنما يصف ضروباً من اللهو ، وفنوناً من المحجون . وقد يصف أحدنا الحب فيحسن الوصف ، لا لأنه يشعر به ، بل لأنه شاعر مجيد ، يتكلف الشيء فيحسنه أحياناً .

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيء فسره في الفصل الماضي ، وهو أنه لم يتغزل بحرة ، وإنما وقف غزله كله على الإمام ، وذلك واضح ؛ فقد عرفنا أنه يكره الزواج ، وعرفنا أنه كان ماجناً مسرفاً في المحجون ؛ فلم يكن من السهل عليه ، ولا من الميسور له ، أن يخالط الحرائر ، أو يتحدث إليهن ، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإمام ، ويسرف في مداعبتهن ، ولا سيما بعد ما قدمت لك في الفصل الماضي من رقى الأمة في هذا العصر ، وتفوقها على الحرة ، وبها الكها على اللهو والمحجون . فإذا عرفنا هذا كله ، وأنزلنا غزل أبي نواس منزله الصحيحة ، كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى ، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فإذا أردنا أن نبحث عن مقياس لنبوغ أبي نواس في الشعر ، أو لصدقه في الحب ، فليس أمامنا إلا وصفه للخمر ، وغزله بالغللمان ، وإنما نبحث عن غزله بالنساء ، لنعرف شيئاً من أخلاق العصر ، ومن أخلاق الإمام فيه ، ولنعرف أيضاً شيئاً من ظرف النساء في بغداد ، وإن شئت فقل : من ظرف الغزل بالنساء في بغداد ، وهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ .

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية ، حياة المحجون والدعابة

تمثيلاً صحيحاً :

أرسلَ منْ أهوى رسولاَ لهُ إلىَ والمُنسُوبُ محبُوبُ
 قُلتُ أهلاً بكِ منْ مرسلِ ومنْ حبيبِ زانهُ طيبُ
 جمشتهُ في كلمةٍ فأنسى وقالَ هذا منك تجريبُ
 مثلكَ لا يعشقُ مثلي وقد هامَ بهِ بيضاءَ رغبوبُ
 وجاءتْ الرسلُ بأن اتنا فجمتها والقلبُ مرغبوبُ

قالت : تعشمت رسولي لقد
 ذاك وهذا لك يا غادراً
 من يامن الذئب على معزة
 أهل لأن يخفّره الذئب
 فقلت في رفي وفي توادة
 مقالة قد قال يعقوب
 الذئب لا يؤمن لكنه
 عليه في يوسف مكذوب
 هم طرحوا يوسف في جبه
 عمداً وقالوا خانهُ الذئب

أترى إليه كيف كان يجب صاحبه حباً قوياً صادقاً ، حتى خانها في
 رسوطها ، فداعب هذا الرسول ، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك ،
 ولكنه حين يلتقي حبيته ، ويريد أن يدافع عن نفسه ، يضع نفسه موضع
 الذئب في قصة يوسف . ولكن أعجب من هذا أن تكفي صاحبه منه بهذا
 الدفاع ، بل أن تلومه في هذا الرفق واللين ، ولكننا في بغداد ، وبين قوم
 يلهون لا أكثر ولا أقل .

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي يسخر فيها من نفسه ، فيحسن
 السخرية :

وقضرية أبصرتُها فهويتها
 هوى عروة العذري والعاشق النهدي
 فلما تمادى هجرها قلت واصل
 فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
 فقلت لها لو كان في الشوق أوجه
 تباع بنقد حاضر وسوى نقد
 لغيرت وجهي واشتريت مكانه
 لعلك أن تهوى وصالى من بعد
 وإن كنت ذا قبح فإني شاعر
 فقالت ولو أصبحت نايغة الجعدي
 ثم انظر إلى هذا الظرف :

سألها قبلة ففرت بها
 بعد امتناع وشدة التعب
 فقلت بالله يا معذبتى
 جودي بأخرى أقضي بها ربي
 فابتسمت ثم أرسلت مثلاً
 يعرفه العجم ليس بالكذب

لَا تُعْطِينَ الصَّيِّءَ وَاحِدَةً ۖ يَطْلُبُ أُخْرَىٰ بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

وانظر إلى هذه القصيدة ، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية ؛ لأنها تمثل رقة بغداد ، وتمثل هذه النزعة الدينية التي تجدها في العامة ، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن ، وسور القرآن ، وبالحنج ، ومناسك الحنج ، حين ينبغي أن يقسموا بشيء آخر :

مَالِي	وَالْعَادِلَاتِ	زَوْقَنَ	لِي	تُرَهَاتِ
سَعِينِ	مِنْ كُلِّ فَبَجٍّ	يَلْمَنَ	فِي	مَوْلَاتِي
يَأْمُرَنِي	أَنْ أُخَلِّيَ	مِنْ رَاحَتِي	حَيَاتِي	
وَذَاكَ	مَالًا وَلَا لَا	يَكُونُ	حَتَّى	الْمَمَاتِ
و «الله»	مُنْزِلِ «طَه»	و «الطور»	و «الذَّارِيَاتِ»	
و «الر»	و «صَادٍ» و «قَاف»	و «الحشر»	و «الْمُرْسَلَاتِ» ^(١)	
وَرَبِّ «هُودٍ»	و «نُونٍ»	و «النور»	و «الْمَازِعَاتِ»	
لَا رُمْتُ	هَجْرَكَ حَبِي	حَتَّى وَإِنْ لَمْ	تُوَاتِي	
تَجْمَعُوا	عَلَّمُونِي	يَا إِخْوَتِي	كَيْفَ آتِي	
يَا وَبَلْنَا	أَيُّ شَيْءٍ	بَيْنَ الْحَشَى	وَاللَّهُمَّ	
مِنْ لَوْعَةٍ	لَيْسَ تُطْفِئُ	تَطِيرُ	فِي جَانِحَاتِي	
أَنَا الْمَعْنَى	وَمَنْ لِي	بِرْثِي	لِطُولِ شِكَايِي	
الظَّاهِرُ	الْمَعْبَرَاتِ	الْبَاطِنُ	الرَّفَرَاتِ	
مُنِيْتُ	بِالْمُتَحَرِّي	فِي كُلِّ أَمْرٍ	مَسَاتِي ^(٢)	
يَا سَائِلِي	عَنْ بَلَائِي	أَنْظُرُ	إِلَى لِحْظَاتِي	

(١) يريد ألف لام راه ، وهو مفتتح سور من القرآن .

(٢) يريد : مساقى .

يَخْفَى الْهَوَى فِي سُكُونِ الْمُحِبِّ وَالْحَرَكَاتِ
وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ أَعْمَى عُرِفْتُ فِي سَحْنَاتِي
حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَاتِ فِي لُجَّةِ الْفَلَوَاتِ
وَمُنَنٍ بِالْهَدَايَا يُطْمَنُّ فِي اللَّبَاتِ
وَمَا تَوَافَى بِجَمْعِ «الشَّعْبِ» فِي «عَرَفَاتِ»
لَوْ جَاءَ مِنْكَ رَسُولٌ يَقُولُ نَفْسُكَ هَاتِ
لَقُلْتُ هَاكَ خُذْنَهَا مُسَلِّمًا لَوْفَاتِي
وَيَلَاهُ نَارُ النَّصَابِيِّ رَقَّتْ إِلَى اللَّهَوَاتِ
فَأَبْكَتِ الْعَيْنَ مِنِّي بِمِثْلِ مَاءِ الْفُرَاتِ
وَصَاحِبِ كَانَ لِي فِي هَوَايَ ذَا مُهْمَاتِ
لَمْ يَطَّلِعْ طَلِعَ شَأْنِي إِلَّا أَمَامَ هِنَاتِي
قَبِينَا نَحْنُ نُنْسِي نَسِيحُ فِي الطَّرْفَاتِ
إِذْ قِيلَ شَمْسُ ضُحَاهَا فِي أَرْبَعِ عَطِرَاتِ
فَقُلْتُ شَمْسُ وَرَبِّي قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَاتِ
وَقَدْ نَسِيتُ الَّذِي بِي مِنْهَا مِنَ الْكُرْبَاتِ
لِرِيحِ حُبِّ جَرَّتْ لِي فَأَنْشَأْتُ عِبْرَاتِي
وَأَنْزَقَتْ مَاءَ عَيْنِي وَأَصْعَدَتْ زَفْرَاتِي
وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنِي كَمِثْلِ نَفْسِ الدَّوَاةِ
فَالْحُبُّ فِيهِ هِدَاةٌ مَوْصُولَةٌ بِهِنَاةِ
يُعْقِنُ طَوْرًا سُرُورًا وَتَارَةً حَسْرَاتِ

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث إلى النساء ، بلغة النساء ، وبلجة النساء !

ولقد أراد أن يسلك سبيل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، فيما كانا يقصان من زيارتهما لعشيقاتهما ، فقال في ذلك شعراً لا بأس به ، ولكن لا أروى لك منه إلا هذين البيتين ؛ لأن في أولهما إيجازاً ظريفاً ، وفي الآخر تمثيلاً لأمر بغداد :

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيْرَ أَنْ شِفَاهَنَا تَعَاطَتْ خَدَيْطَى سُكْرِ وَعُقَارِ
وَوَدَّعْتُهَا صُبْحًا وَلَمْ أَنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتَمًا بِسِوَارِ
وانظر إليه كيف يمازح صاحبه ، ويتمنى عليها الوصل ، وينكر عليها الهجر ، ويعدها بالألأ يكون ثقيلًا ، ولا مطبلاً إن وصلته . كل ذلك في بيت واحد ظريف ، وهو :

فَرَاغِي الْوَصْلَ فَإِنْ زُرْتُكُمْ قَدَرٌ فَوَاقٍ فَاحْلِقِي رَأْسِي
وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت منها بيتاً واحداً ؛ لأن لفظ « الأنقاس » فيه غريب قد نستعمله :

إِنِّي عَشِيتُ وَمَا بِالْعِشْقِ مِنْ بَاسٍ مَا مَرَّ مِثْلَ الْهَوَى شَيْءٌ عَلَى رَأْسِي
مَا لِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحَوْنَنِي سَفَهًا دِينِي لِنَفْسِي ، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ
مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَا زُرْتُ مَا لِكِتِي كَأَنَّ أَوْجُهَهُمْ تُطَلَّى بِأَنْقَاسِ !
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكِي زِيَارَتَكُمْ إِلَّا مَخَافَةَ أَعْدَائِي وَحُرَاسِي
وَلَوْ قَدَرْنَا عَلَى الْإِتْيَانِ جِئْتُكُمْ سَعِيًّا عَلَى الْوَجْهِ أَوْ مَشِيًّا عَلَى الرَّاسِ
وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا فِي صَحَائِفِكُمْ « لَا يَرَحِمُ اللَّهُ إِلَّا رَاحِمَ النَّاسِ »

ولأبي نواس من هذا شيء كثير ، لا أستطيع أن أرويه ، وتستطيع أنت أن تقرأه في ديوانه ، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب ، والغرور ، والدُّعابة ، والحجون ، والعبث بكل شيء ، وتجد فيه من القصص ما يلد ووا يضحك ، ولكني قلت لك إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب .

وأريد أن أختَم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله ، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضى حاجته الفنية ، أو ليخدع النساء عن أنفسهن ؛ على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة ، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس :

يَا مَنْ يُوَجِّهُ الْفَاطِي لِأَقْبَحِهَا لِأَنَّهُ سَاحِرُ الْعَيْنَيْنِ مَعْشُوقُ
لَوْ كَانَ مِنْ قَالٍ نَارٌ أُحْرِقَتْ قَمَهُ لَمَا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ

• • •

وسأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرود .

وطهجة
كانا
من لا
تمثيلا
قار
ار
عليها
بيت
نظمت
سي
س
!
سي
س
«
أنت
ور،
يلذ
ب .

جد أبي نواس^(١)

المدح

وما رأيك في أن نترك القديم والجديد ، وكلاما لن يفيد ، ونعود إلى أبي نواس ، فنستأنف البحث عن شعره ، بعد أن انصرفنا عنه حيناً طويلاً ؛ على أننا حين نستأنف البحث عن شعر أبي نواس ، لن نترك القديم والجديد ، وإنما نوغل فيهما إيغالا ؛ فلقد كتبنا عن أبي نواس في السنة الماضية فصولا طويلا ، أثبتت - فيما نعتقد - أنه صاحب الجديد وحامل لوائه ، وأنه خصم القديم وأشد أعدائه ، حتى خيل إلى الناس أن الأسباب كانت قد انقطعت بين هذا الرجل ، وبين الأدب العربي القديم ، وأنه كان يريد أن يهدم كل شيء ويبني على أنقاضه شيئا آخر . فمن الناس من أحب أبا نواس لهذه الخصلة ؛ لأنها صادفت في نفسه هوى ، وفي قلبه ميلا ، ومن الناس من كره أبا نواس لهذه الخصلة ؛ لأنه من أنصار القديم المشغوفين به ، الملحمين في البكاء عليه .

ولسكن أبا نواس خليق بأن يحبه أولئك وهؤلاء معاً ؛ لأنه على حبه للجديد ، وإلحاحه في الدعوة إليه ، كان محباً للقديم ، ملمحاً في الحرص عليه ، كأنه كان يعرف أن الناس سينقسمون إلى فريقين مختلفين ، وكان يحرص على أن يأخذ من رضا كليهما بنصيب . وما لنا نتحدث بشيء من ذلك وقد قلنا ألف مرة ورة : إن انقسام الناس إلى أنصار الجديد وأنصار القديم ، فطرة في الناس تلزمهم في كل زمان ومكان ، إن كان لهم حظ من حياة ! وقد كان الناس أحياء أيام أبي نواس ، فكان منهم محب الجديد ، وكان منهم محب القديم ، وكانوا جميعاً أقوياء في جبههم ، وكان من المعقول أن يتحدث إليهم جميعاً شاعر كأبي نواس بما يحبون وما يفهمون . بل ما لنا نذكر

(١) نشرت بالسياسة في ٢٢ رجب سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٤ م

شيئاً كهذا ، ونحن نعلم أن الشاعر المجيد والكاتب البارع ، مهما سرفا في حب الحديد والتهاك عليه ، فهما لم ينشأ من لا شيء ، وهما لن يستطيعا أن يقطعا الصلة بينهما وبين القديم الذي غذاهما وأنشأهما ، فهما بطبيعة الحال يمثلان الحديد الذي يصبوان إليه ، ويمثلان القديم الذي نشأ منه .

ولقد كان أبو نواس من أكثر الشعراء رواية للقديم وحفظاً له . قالوا : إنه تحدث عن نفسه أنه روى لستين امرأة ، فكيف بالرجال ! ولسنا نستطيع أن نتصور أبا نواس إلا على أنه قد حفظ أو قرأ ما كان يرويه أئمة الشعر واللغة من شعر الجاهليين والإسلاميين وأحاديثهم . وليس من اليسير ولا من الممكن ، أن يخلص أبو نواس من هذا كله ، فيكون جديداً صرفاً في كل ما يقول .

فإذا تحدثنا عن أبي نواس فنحن نتحدث عن القديم والحديد ، ولن نستطيع أن نتحدث عن شاعر مجيد حقاً ، أو عن كاتب بارع حقاً ، إلا إذا تحدثنا عن القديم والحديد ؛ لأن إجادة الشعر ، والبراعة في الكتابة ، تستلزمان شيئين لا بد منهما . (الأول) : الاحتفاظ بالخير من القديم . (الثاني) : استغلال الحديد واجتناء ثمراته الطيبة . ففي الشاعر المجيد والكاتب البارع شخصان : أحدهما قديم ، والآخر جديد ، أو فيهما شخصية واحدة ، هي المزاج المعتدل لاتصال القديم بالحديد ، ونشوء أحدهما عن الآخر .

على أن الحياة في عصر أبي نواس ، كانت تضطر هذا الشاعر وأصحابه إلى أن يظهر وا مظهرين ، يكادان يختلفان اختلافاً تاماً : أحدهما مظهر الجدد المسرف في التجديد . والآخر مظهر الحريص على القديم ، المسرف في الاستمساك به . ذلك أن أبا نواس وأصحابه كانوا يعيشون عيشتين مختلفتين : إحداهما عيشتهم الخاصة ، يعكفون فيها على لذاتهم ، ويفرغون فيها لحاجاتهم المادية والمعنوية المختلفة ، فيتصلون فيها بعامّة الناس وأوساطهم ، وأصحاب الحرف والصناعات منهم ، ويتصلون فيها أيضاً بأولئك الذين كانوا يقومون على اللذات يبيحونها للناس ، ويمهدون لهم أسبأها ووسائلها ، من الخمارين والمغنين ، والحسان ، من الذكور والإناث ، فيتحدثون إلى هؤلاء الناس جميعاً بلغة يفهمونها ويدقونها ، وتعبّر حقاً عما يجلدون ويشعرون . وأما عيشتهم الأخرى ،

فهي تلك العيشة المتصلة بالأمرء وأشرف الناس في حياتهم الظاهرة الرسمية ، إن صح هذا التعبير . وهم في هذه العيشة مضطرون أن يتخذوا ما ألف الناس من شكل وصورة . ترضاها الأخلاق ، وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية . وهم مضطرون إلى أن يتحدثوا إلى أمرء الناس وأشرفهم بلغة شريفة مختارة ، ترتفع عن الابتذال ، وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف ، وعظم حنظلها من التصنع .

كانوا مضطرين إذن إلى أن يصدقوا في حياتهم الأولى ، ويتكلفوا الكذب والنفاق في حياتهم الثانية . وهذا دأب الأجيال المختلفة ؛ فلك في بيتك وبين أصدقائك وخملائك عيشة ولغة ، تخالفان كل المخالفة أو بعضها عيشتك ولغتك حين تكون الصلة بينك وبين الناس عامة ، وحين تكون الصلة بينك وبين الكبار والزعماء خاصة . فليس عجيباً إذن أن تقرأ لأبي نواس في الخمر والمجون والغزل وما يشبه ذلك هذا الشعر الرقيق العذب ، الذي هو مرآة النفس حقا ، والصورة الصحيحة الجلية للعواطف والشعور ، هذا الشعر الذي رق لفظه ، ودق معناه ، وبرى من التكلف ، وانحط في بعض الأحيان ، حتى كاد يبعد عن الفصاحة المأثورة . وليس عجيباً أن تقرأ لأبي نواس شعراً آخر قد قوى متنه ، واشتد أسره ، وتُخَيَّرت فيه الألفاظ تخيراً دقيقاً ، وتقيد فيه الشاعر بطائفة من القيود اللفظية والمعنوية والعروضية ، ما كان ليقيد بها في شعره الآخر .

وفي الحق أنك ترى أبا نواس حين يذكر الخمر والمجون وما يشبه ذلك من فنون الشعر ، لا يكتفي بإطلاق العنان لشعوره وعاطفته ، وإيثار اللفظ السهل العذب للمعنى الرقيق الحلو ، وإنما يضيف إلى ذلك شيئاً آخر ؛ فهو يؤثر من الأوزان الشعرية أخفها وأقصرها ، وأيسرها على الأذن ، وأقربها من النثر ، وألينها قياداً للمعنى . فإذا تحدث إلى الأمرء والأشرف عمد إلى اللفظ الضخم الفخم ، وإلى الأسلوب المتين الرصين ، وإلى الأوزان الطوال التي لا تخلو من فخامة وجلال ، فاتخذها وسيلة للتعبير عما يريد أن يتحدث به إلى هؤلاء الناس ، وكأن فنون الشعر كانت تنقسم إلى ضربين مختلفين : أحدهما هذا النحو الذي يقصد به إلى وصف اللذات وأهواء النفس وعواطفها ؛ وفي هذا الضرب من الشعر كان الشاعر حراً ، يرسل نفسه على

سببها فلا يكاد يتقيد بشيء من ذلك الغزل ، والحجون ، ووصف الخمر ، والهجاء . والآخر هذا النحو الذى يقصد به إلى الجلد وفنونه ، من مدح ، ورتاء ، ووصف ، وفخر ؛ وفى هذا النحو يتخير الشاعر أشرف اللفظ ، ويتقيد فى الوزن والقافية والأسلوب بقيود ترفعه عن متناول العامة ، وتكسبه شيئاً من الأريستقراطية يلائم الموضوع الذى يقول فيه . وقد تحاول أن تقارن بين أبي نواس حيث يمجس ، ويتغزل ، ويصف الخمر ، ويهجو ؛ وحين يمدح ، أو يرثى ، أو يفخر ، فلا تكاد تشعر بوجه للمقارنة ، وإنما يظهر الفرق عظيمًا بين الرجلين . وأنت مضطر إلى أن تكون ناقدًا بصيرًا ، لتتميز شخصية الشاعر فى هذين الفنين المختلفين من الكلام . بل أنا أذهب إلى أكثر من هذا ، فأزعم أن شخصية الشاعر تنمحي أو تكاد تنمحي فى هذا الشعر الجيدى ، بحيث تلتبس أشخاص الشعراء على غير النقاد العليمين بضروب الشعر ، حين تظهر هذه الشخصية ناصعة جليلة كل الجلاء فى فنون الهزل واللعب ، بحيث يشعر بها ويمسها الناقد وغير الناقد . بل أزعم أن من اليسير أن تضيف مدح أبي نواس أو فخره إلى غير أبي نواس من الشعراء الجيدين ، وأن تضيف إلى أبي نواس من مدح مسلم ووصفه وفخره ، دون أن يكون خطأك عظيمًا من الوجهة الفنية ؛ لأن هنالك مثلاً أعلى من الإجادة وال إتقان قد وضعه الشعراء أمامهم ، فهم يحتذونه ويتأثرونه ، وهذا المثل الأعلى إنما هو أسلوب القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، فإذا أحسنوا تأثر هذا الأسلوب وتقليده ، فهم راضون .

ومالى لا أقيم الدليل على ما أقول ! فانظر إلى هذه الأبيات من شعر أبي نواس الجدى ، وحدثنى أترى فيها شخصية الشاعر بارزة واضحة ؟ ثم حدثنى أنكاد تصدق أن قائل هذا الشعر هو الذى رويت لك عنه فى السنة الماضية ما رويت من العبث والحجون :

لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا وَخَدَّتْ بِي الشَّدَنِيَّةُ الْمِدْعَانُ
سَبَطَ مَشَافِرُهَا دَقِيقُ خَطْمِهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
وَاحْتَازَهَا لَوْنُ جَرَى فِي جِدِّهَا يَقْقُ كَقَرَطَاسِ الْوَالِدِ هِجَانُ

هو يصف ناقته التي حملته إلى ممدوحه الرشيد ، فيحب أن يسلك في وصف الناقة التي تحمله إلى ممدوحه طريق غيره من الشعراء الذين حملتهم النوق إلى الملوك والأمراء ، وليس يعنيه أن يفهمه عامة الناس ، وإنما يعنيه أن يتحدث إلى أشراف الناس بأشرف اللغة ، بل ليس يعنيه أن يكذب ، فلعله لم يركب إلى الرشيد ناقة ، ولم تحمله إلى الرشيد إلا قدماءه ، ولكنه مضطر أن يسلك مسلك جرير والفرزدق والأخطل والشماخ وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يتكلفون الأسفار الطوال ، ليبلغوا من يمدحون . ثم وازن بين الشعر الذي لا تكاد تفهمه حتى تستشير معاجم اللغة وبين قوله :

دَمْعَةٌ كَاللَّوْلُؤِ الرِّطِّ بِ مِّنَ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ
 ذَرَفَتْ فِي سَاعَةِ النَّبِيِّ نِ عَلَى الْخَدِّ الْأَسِيلِ
 إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعُشُّ اِقُ فِي وَقْتِ الرَّحِيلِ

أتجد في هذا الشعر لفظاً غريباً ، أو معنى عويصاً ؟ أتشعر بأن بينك وبين قائل هذا الشعر من بعد الأمد ، ما بينك وبين قائل تلك الأبيات الثلاثة في وصف الناقة ؟ .

ثم أريد أن أروى لك من جيد أبي نواس هذه القصيدة التي سيعسر عليك فهمها عسراً شديداً ، كما عسر فهمها على غير واحد من علماء اللغة وأصحاب النحو ، وقد قالها يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين :

أَيْهَا الْمُنتَابُ عَنْ عُفْرَةٍ لَسْتُ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمْرَةٍ
 لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ مَمْرَةٍ
 فَاتَّصِلْ إِنْ كُنْتَ مُتَّصِلًا بِقَوَى مَنْ أَنْتَ مِنْ وَطْرَةٍ
 خِفْتَ مَا تُورَ الْحَدِيثِ غَدًا وَغَدًا أَدْنَى لِمَنْتَظَرَةٍ
 خَابَ مَنْ أَسْرَى إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ مَدَى سَفْرَةٍ

وَسَدَّتْهُ رُبِّي سَاعِدِهِ
 فَأَمْضِ لَا تَمْنُنْ عَلَى يَدَا
 رَبِّ فِتْيَانٍ رَبَّائِهِمْ
 فَاتَّقُوا بِي مَا يَرْبِيهِمْ
 وَإِنَّ عَمَّ لَا يُكَاشِفُنَا
 كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
 وَرَضَابِ بَيْتِ أَرْشُفِهِ
 عَلَيْهِ خُوطُ إِسْحَلِيهِ
 ذَا وَمُغْبَرٌ مَحَارِمُهُ
 لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ
 سِنَّةٌ حَلَّتْ إِلَى شُفْرِهِ
 مِنْكَ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدْرِهِ
 مَسْقَطَ الْعَيْوُقِ مِنْ سَحْرِهِ
 إِنَّ تَقْوَى الشَّرِّ مِنْ حَذْرِهِ
 قَدْ لَبِسْنَاهُ عَلَى غَمْرِهِ
 كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجْرِهِ
 يَنْفَعُ الظَّمَانَ مِنْ خَصْرِهِ
 لَانَ مَتْنَاهُ لِمَهْتَصِرِهِ
 تَحْسِرُ الْأَبْصَارُ عَنْ قَطْرِهِ
 مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقْرِهِ

ثم يقول في وصف الفرس :

يَكْتَسِي عُشُونَهُ زَبْدًا
 مُمَّ يَغْمُّ الْحِجَاجُ بِهِ
 مُمَّ تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ كَمَا
 كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا
 فَنَصِيْلَاهُ إِلَى نُخْرِهِ
 كَأَعْتِمَامِ الْفُوفِ فِي عَشْرِهِ
 طَارَ قُطْنُ النَّدْفِ عَنْ وَتْرِهِ
 وَهُوَ لَمْ تُنْقِضْ قُوَى أَشْرِهِ

ثم يتخلص إلى صاحبه فيقول :

ثُمَّ أَدْنَانِي إِلَى مَلِكٍ
 تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَطَالِمَهَا
 كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ
 فَاسْأَلُ عَنْ نَوْءِ تَوْءَمَلُهُ
 يَا مَنْ الْجَانِي إِلَى حُجْرِهِ
 ثُمَّ تَسْتَدْرِي إِلَى عَصْرِهِ
 مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفْرِهِ !
 حَسْبُكَ الْعَبَّاسُ مِنْ مَطْرِهِ

ثم يقول :

وَإِذَا مَجَّ الْقَنَا عَلَقًا وَتَرَأَى الْمَوْتَ فِي صُورِهِ
رَاحَ فِي ثِنْيِي مَفَاضَتِهِ أَسَدٌ يَدْمَى شَبَا ظُفْرِهِ
تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَدَوَتَهُ تَقَّةٌ بِالشُّبْعِ مِنْ جَزْرِهِ

أفهمت من هذه الأبيات شيئاً كثيراً ؟ ألا تكاد تشعر أن أبا نواس قد أسرف في إثارة الغريب ، حتى كأنه أراد أن يبهز أبا عبيدة والأصمعي وأمثالهما ، وأن يحير أصحاب النحو والعروض ، بما تكلف من غموض ، وبما ركب من ضرورة شعرية ؟ وفي الحق أن اللغويين تعبوا في تأويل بعض هذه الأبيات ، وما أظن أنهم اتفقوا على تأويل قوله :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجْرِهِ

فإن مرجع هذا الضمير المذكور ليس بالواضح ولا الجلي ، وإن كان المعنى في نفسه واضحاً جلياً .

أليس معقولاً أن يقول بعض أئمة اللغة في أبي نواس : لولا مجونه وفسوقه لاحتججنا بشعره ! في هذا الشعر وأمثاله ما يرضى أنصار الغريب والمشغوفين به . ومع ذلك فهذه القصيدة على غرابتها وخشونة مركب الشاعر فيها ، من خير ما قال أبو نواس ؛ إذ فيها من دقيق المعنى وشريفه ما لا تكاد تجده في مدائحه الأخرى ، ثم في لفظها وقوافيها بنوع خاص جمال تشعر به وتميل إليه ، دون أن تستطيع تفسيره في سهولة ويسر .

على أن أبا نواس قد تجاوز الحد في إثارة الغريب أحياناً ، حتى تكاد لاتفرق بينه وبين رؤبة والعجاج . فانظر إلى شيء من هذه الأرجوزة التي مدح فيها الفضل بن الربيع :

وَبَلَدَةٍ فِيهَا زَوْرٌ صَعْرَاهُ تُحْطَى فِي صَعْرٍ
عَمْرَتْ إِذَا الذِّئْبُ اقْتَفَرَ يَهَا مِنْ الْقَوْمِ الْأَثَرُ
كَانَ لَهُ مِنْ الْجَزْرِ كُلُّ جَنِينٍ مَا اشْتَكَّرُ

وَلَا تَعْلَاهُ شَعْرُهُ مَيِّتُ النَّسَاءِ ، حَيْهُ الشَّفْرُ
 عَسَفَتْهَا عَلَى خَطَرُهُ وَعَرَّرَ مِنْ الْعَرَرِ
 بِيَازِلٍ حِينَ فَطَرُهُ يَهْرُهُ حِينَ الْأَشْرُ
 لَا مُتَشَكِّ مِنْ سَدْرُهُ وَلَا قَرِيبٍ مِنْ خَوْرُهُ
 كَأَنَّهُ بَعْدَ الصَّمْرُ وَبَعْدَ مَا جَالَ الضَّفْرُ
 وَأَنْمَجَ فِي فَحَسْرُهُ جَابُ رُبَاعِي الْمُثْفَرُ
 يَجْدُو بِجَقْبٍ كَالْأَكْرُ تُرَى بِأَثْبَاجِ الْقَصْرِ
 مِنْهُنَّ تَوْشِيمُ الْجَدْرُ رَعَيْنَ أَبْكَارِ الْخُصْرِ

ثم يصل إلى المدح فيقول :

... .. إِيَّاكَ كَلَّفْنَا الشَّفْرَ
 خُوصًا يُجَادِينَ النَّحْرَ قَدِ انْطَوَتْ مِنْهَا الشَّرْرُ
 طَىَّ الْقَرَارَى الْجِبْرُ لَمْ تَتَمَعَّدْهَا الطَّيْرُ
 وَلَا السَّيْحُ الْمُرْدَجْرُ يَا فَضْلُ لِلْقَوْمِ الْبَطْرُ
 إِذْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصْرُ وَلَا مِنَ الْخَوْفِ وَرَرُ

ثم يمضي في ذلك حتى يكاد يبلغ الإسراف ، شأن الذين ينحدرون من الرجز على سفح لا قرار له .

وقد كنت أريد أن أفسر لك شيئاً من هذه الطلسمات ، ولكنني أرى أن الصحف السيارة لا تتسع لتفسير الغريب الذي إنما تتسع له المدارس والجامعات . على أني لا أريد أن تيأس من أبي نواس ، فاعتقد أنه لا يؤثر إلا الغريب ، فالحق أنه قد آثر الغريب أحياناً ، وآثر السهل اللين أحياناً أخرى . ولقد نجد من مدائح أبي نواس ما فيه مجون ودعابة لا حيطة فيهما ، ولقد نجد من مدحه ما فيه مجون مع احتياط . وأحسب أن أفهم ذلك وتعليقه ميسوران إذا عرفنا

الأشخاص الذين مدحهم أبو نواس؛ فقد مدح أشخاصاً لم يكن من السهل عليه أن يبتدئ مدحهم بالمجون ، أو أن ينزل في مدحهم عما ألف الشعراء من فخم اللفظ ورصينه ؛ ومدح أشخاصاً آخرين كان من الحق له أن يتفكه معهم ، ويتجاوز الفكاهة إلى الدُّعابة ؛ فهو جادٌ حريص إذا مدح الرشيد ، وهو يتردد بين الجحد والهزل إذا مدح الأمين . ولعله اجترأ على الهزل في مدح الأمين بعد أن اتصل به ، وكثر اختلافه إلى مجالس لُوه وشربه . وهو يتردد كذلك بين الهزل والجحد حين يمدح هذا الأمير السمع ، الذي كان يطمع فيه الشعراء ويدلون عليه ، وهو العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر . وكثيراً ما دأب هذا الوزير الخطير الذي كان يهابه أيام الرشيد ، ثم طمع فيه أيام الأمين ، حين لان الخليفة له ، ويسر عليه في أمور كان يعسر فيها الرشيد ، وهو الفضل بن الربيع .

ولم يكن أبو نواس يُشْفِق من التصريح بالمجون والفسوق ، حين كان يعرض لمُدح شابين عظيمين ، هما العباس ومحمد ابنا الفضل بن الربيع هذا ، لم يكن يرى مكاناً للكُلْفَة بينه وبين ابني صديقه ونديمه ، الذي كثيراً ما خلصه من غضب الأمين ، وشفع له في مواقف حرجة اضطره إليها المجنون .

وأبو نواس صادق اللهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعاً ؛ لأنه كان يحبهم ، ويدل عليهم ، ويطمع في الخير منهم ؛ ولكنه متكلف متصنع حين يمدح البرامكة ؛ لأن ميله إليهم لم يكن إلا بمقدار طمعه فيهم ؛ وكان البرامكة كانوا يشعرون منه بذلك ، فيحتملونه احتمالاً ، ولا يضمرون له حباً صحيحاً . أما الصلة بينه وبين الخصب فسنعرض لها بشيء من التفصيل . في غير هذا الفصل :

ولكننا لا نريد أن نتركك على ما روينا لك من هذا الشعر الغريب ، فتم مقال اليوم بهذه الأبيات التي مدح بها أبو نواس العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر .

أبي جعفر .

غَرَدَ الدَّيْكَ الصَّدُوحُ فَاسْقِنِي طَابَ الصَّبُوحُ
وَاسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي حَسَنًا عِنْدِي الْقَبِيحُ

قَهْوَةٌ تَذَكُرُ نُوحًا حِينَ شَادَ الْفُلَكَ نُوحُ
 نَحْنُ نُخْفِيهَا وَيَأْبَى طِيبُ رِيحٍ قَفْقُوحُ
 فَكَأَنَّ الْقَوْمَ نُهَبِي بَيْنَهُمْ مِسْكٌ ذَبِيحُ
 أَنَا فِي دُنْيَا مِنْ أَلَمِ بَاسٍ أَغْدُو وَأَرْوَحُ
 هَاشِمِيٌّ عَبْدَلِيٌّ عِنْدَهُ يَفْلُو التَّمْدِيحُ
 عِلْمُ الْجُودِ كِتَابُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَلُوحُ
 كُلُّ جُودٍ يَا أَمِيرِي مَا خَلَا جُودَكَ رِيحُ
 إِنَّمَا أَنْتَ عَطَايَا أَبَدًا لَا تَسْتَرِيحُ
 بُجَّ صَوْتُ الْمَالِ يَمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
 مَا لِهَذَا آخِذٌ فَوْقَ قَ يَدَيْهِ أَوْ نَصِيحُ
 جُدْتَ بِالْأَمْوَالِ حَتَّى قِيلَ مَا هَذَا صَحِيحُ
 صُورَ الْجُودِ مِثَالًا وَلَهُ الْعَبَّاسُ رُوحُ
 فَهَوَ بِالْمَالِ جَوَادُ وَهُوَ بِالْعَرَضِ شَحِيحُ

خاتمة القول في أبي نواس^(١)

المدح - الرثاء - الهجاء - الزهد

فصلنا القول في هزل أبي نواس ومجونه تفصيلاً ، ونحن مضطرون إلى أن نجمل القول في جدّه إجمالاً : لا لأننا نؤثر هزل أبي نواس على جدّه ، ولا لأننا نريد أن نتملّق هذا الميل العام ، الذي يحمل جمهور القراء أن يؤثر الهزل على الجدل ، ويفضل ما يسر ويلهى ، على ما ليس له حظ ومن السرور واللهو ، بل لأننا نعتقد أن شخصية أبي نواس ، في حقيقة الأمر ، إنما هي شخصية شاعر هازل ماجن ، تظهر الظهور كله إذا هزل أو مجن أو حاول الاستمتاع بالذات ، والتغنى بآثار هذه الذات ، فترى فيها خفة ونشاطاً ، وشيئاً يشبه النزق أو هو النزق ، وترى فيها جرأة غريبة ، وحرصاً قليلاً جداً على الاحتياط ، وصراحة لا تعدلها صراحة . فلعلك تذكر ما روينا لك من شعره في الخمر والمجون والنساء . ولعلك تذكر أن حظ هذا الشاعر من الصراحة وازدراء الدين والخلق والأدب الموروث عظيم . ومع ذلك فقد تخيرنا هذا الشعر الذي روينا لك تخييراً دقيقاً ، وراعينا فيه أخلاق الناس في هذا العصر وميوهم ، وحاجة الشباب إلى القول الطاهر البريء ، وراعينا فيه مع ذلك شعور المتشددين في الدين ، والمستمسكين بالأدب القديم ، أولئك الذين يسميهم ابن قتيبة المتزمتين . راعينا هذا كله فيما روينا لك من شعر أبي نواس في اللهو والمجون ، ولم نسلم مع ذلك من نقد الناقدين ، وإنكار المنكرين ، وغلو قوم آتهمونا بألوان من التهم ، وأضافوا إلينا ضروباً من الخروج على الدين والأخلاق ، والكيده لتاريخ الأمة العربية المحيد .

ولو أننا روينا لك من شعر أبي نواس في العبت والدعابة ، وفي اللهو والمجون ، دون تحفظ ولا احتياط ، لمثلنا لك شخصيته على وجهها ، ولكُنّا

(١) نشرت بالسياسة في ٢٠ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٦ مارس سنة ١٩٢٤ م .

مؤرخين حقاً ، ولكننا كنا نتعرض لما لا نحب من إفساد الذوق ، والإساءة إلى الأخلاق ؛ فأبو نواس شاعر خطر ، لا ننصح بقراءته إلا لطائفة خاصة من الناس ، يستطيعون أن يقرءوا ويحكموا ، دون أن يتأثروا أو يقلدوا .

شخصيته شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء ، وبعد كل شيء . ونحسب أن هذا الرجل لو خُلِّي وطبعه ، ولم تضطره الظروف السياسية والفنية والمعاشية - إن صح هذا التعبير - إلى أن يصطنع الجلد من حين إلى حين ، لكان شعره كله هزلاً ومجوناً . وما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هي سبيل من سبل اللذة ، ووسيلة من وسائل اللهو ، ولم يجد إلا ليستعين بجدته على الهزل ! أفتظنه مدح ، لأنه كان يحب ممدوحيه أو يكبرهم ، أو لأنه كان يحب المدح ويميل إليه ! كلا ! إنما مدح الخلفاء والوزراء والأمراء ليتخذ مدحهم وسيلة إلى مدح الحمر ، أو قل ليتخذ مدحهم وسيلة إلى شرب الحمر ، والاستمتاع بها وبما تستتبع من اللذات . مدحهم لأنه كان في حاجة إلى ما يرزقونه من المال ، ومدحهم لأنه كان في حاجة إلى أن يتملقهم ، ويتق شرهم ، مدحهم مستجدياً ، ومدحهم متقياً . ولعله لم يخلص في مدح واحد من هؤلاء ، إلا نفرأ نستطيع أن نتعرفهم ، إذا نظرنا في تاريخهم من جهة ، وفي سيرة أبي نواس معهم من جهة أخرى . لم يخلص أبو نواس في مدح الرشيد ، وإنما مدحه مستجدياً أو متقياً . ولم يخلص أبو نواس في مدح البرامكة ، وأخلص أبو نواس في مدح الأمين ؛ لا لأنه كان يكبر الأمين ويحمله ، بل لأنه كان ينادم الأمين ، ويرى فيه خليلاً على الشراب ، وصديقاً على اللذة . وكثيراً ما كان يسخر من الأمين إذا سنحت له الفرصة ، وقد هجا الأمين غير مرة . وقل مثل ذلك في مدحه للفضل بن الربيع وزير الأمين ، وقل مثل ذلك في مدحه لأبناء الفضل بن الربيع ؛ فقد كان هؤلاء جميعاً أصدقاءه وندماءه ، كما أنهم كانوا حماة ورازيقه . وقل مثل ذلك في مدحه للخصيب ؛ فقد بلغ الخصيب من الإنعام على أبي نواس والانبساط له حدّاً عظيماً . ويروون أن أبا نواس كان يشرب مع الخصيب حتى يمعن في السكر ، ويفقد الرشد ، ويأتي من المنكرات ما يأتيه السكرى إذا انتهوا من سكرهم إلى الحد الأقصى . ويذكرون أنه قال قصيدته المشهورة في الحمر التي مطلعها :

بِأَشَقِّيقِ النَّفْسِ مِنْ حَكْمٍ نِمَتْ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَسْمِ

وهو في شر حال .

ومن هنا لا تكاد تحس الإخلاص في مدح أبي نواس ، وإنما هو شيء متكلف ، تظهر فيه الصنعة ، ويستخفي فيه الطبع . وقد تحسُن هذه الصنعة حيناً ، وقد تسوء حيناً آخر ، وهي على كل حال مبالغة إلى الإسراف والمبالغة ، وقليل فيها التجديد، وكثير فيها الاعتماد على القدماء ، ومشاركة الشعراء في هذه الصفات الشائعة التي كانوا يقدمونها إلى الخلفاء والوزراء، يستجدون بها المال . فانظر إلى هذه الأبيات التي يقوها أبو نواس في مدح الرشيد :

وَإِلَى أَبِي الْأَمْنَاءِ هَارُونَ الَّذِي يَحْيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ الْحَيَّوَانُ
مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثْلَهُ فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانُ

فأما أول هذين البيتين فشائع مشترك المعنى ، ولكن جماله لفظي . وأما الثاني فلا يخلو من دقة ولا من جمال . ولكن انظر إلى ما يقول بعد ذلك :

هَارُونَ أَلْفَنَا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحَادُ وَالْأَضْغَانُ
فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوَفَادَةٌ تَنَبَّتْ بَيْنَ نَوَاهِمَا الْأَقْرَانُ
حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكُرَى بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَخْدَانُ
يَرْمِي بَيْنَ نِيَاطِ كُلِّ تَنُوفَةٍ فِي اللَّهِ رَحَالٌ بِهَا ظَعَانُ
حَتَّى إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبَالَ الصَّفَا حَنَّ الْحَطِيمُ وَأَطَّتِ الْأَرْضُ كَانُ
لِأَغْرٍ يَنْفَرُجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ عَدْلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيْمَانُ
يَصْلَى الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَّةٍ لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الْأَكْنَانُ
لَكِنَّهُ فِي اللَّهِ مُبْتَدِلٌ لَهَا إِنْ التَّقَى مُسَدَّدٌ وَمَعَانُ

أفترى في هذا الكلام كله شيئاً قبيحاً ، أو معنى طريفاً ؟ أفتمنن له بأكثر من الجمال اللفظي يلقاك من حين إلى حين ؟ ثم أأست تضع يدك على الصنعة ؟ أأست تبين التكلف واضحاً جليلاً ؟ ثم انظر إلى هذين البيتين ، فهما لا يخلوان

من جمال ، ولكن التكلف فيهما ملموس :

أَلَفْتُ مُنَادِمَةَ الدَّمَاءِ سُبُوْفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْقَانُ
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفْقَانُ

ويظهر أن أبا نواس قد أحب هذا المعنى ، وأعجب به ، فأعاده في قصيدة أخرى مدح فيها الرشيد ، ولكنه كان فيها أقرب إلى الإجادة ، وأبعد عن التكلف ، وذلك حيث يقول :

مَلِكٌ تَطِيبُ طِبَاعُهُ وَمِعْرَاجُهُ عَذْبُ الْمَذَاقِ عَلَى فَمِ الْمَتَدَوِّقِ
يَلْتَقِي بِجَمِيعِ الْأَمْرِ وَهُوَ مُقَسَّمٌ بَيْنَ الْمَنَاسِكِ وَالْعَدُوِّ الْمُوثِقِ
يَحْمِيكَ مِمَّا تَسْتَعْرِئُ بِفِعْلِهِ ضَحَكَاتُ وَجْهِهِ لَا يَرِيْبُكَ مُشْرِقِ
حَتَّى إِذَا أَمْضَى عَزِيمَةَ رَأْيِهِ أَخَذَتْ بِسَمْعِ عَدُوِّهِ وَالْمَنْطِقِ

فهذا كله كلام عذب سهل ، ولكنه عاديٌّ مألوف . أما المعنى الذي أشرنا إليه في القصيدة الماضية ، فانظر إليه كيف صاغه أبو نواس أحسن صيغة :

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَيْكَ جُهْدَ أَلِيَّةٍ قَسَمًا بِكُلِّ مُقَصَّرٍ وَمُحَلِّقِ
لَقَدْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ الْمُتَّقِي
وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

فانظر إلى هذا البيت ، ووازن بينه وبين قوله :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفْقَانُ

ألست ترى أنه أقل تكلفاً في اللفظ ، وأكثر صفاء في الأسلوب ! ومع ذلك فالمعنى في نفسه سخيْف ؛ لأنه محال . وقد لاحظ القدماء ذلك ، واختلفوا فيه ، ففهم من أنكر على أبي نواس هذه الإحالة ، ومنهم من أعجب بها . وأنا أشارك المنكرين في إنكارهم ، وأوثر على هذا المعنى عند أبي نواس قول أشجع السُّلَمِي في مدح الرشيد :

وَعَلَىٰ عَدُوِّكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانَ ضَوْهَ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَذَبَّهَ رُغْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سُوْفَكَ الْأَحْلَامِ

فهذا الشعر متين رصين ، وهو في الوقت نفسه صحيح مستقيم ، لا ينكره العقل ، ولا يذهب فيه الخيال إلى غير حد ، وهو يمثل جلال الخليفة وسطوته أحسن تمثيل . ولعل أحسن مدح صدق فيه أبو نواس هو مدحه للخصيب ، فلا تكاد تقرأ هذا المدح حتى تحس أن الشاعر مخلص لا يتكلف ولا يتعمل ، وإنما هو مغمور بنعمة الخصيب ، راض عن حياته في مصر ، سعيد بهذه الحياة . فشعره يصف هذا كله ، ويمثله تمثيلاً صادقاً ؛ ولست أروى لك القصيدة المشهورة :

أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَىٰ لَدَيْكَ عَسِيرُ

ولكن اقرأ شيئاً من قصيدة أخرى ، لم يكثر الناس تناقلها ، وانظر ألا ترى الشاعر فيها سعيداً مغتبطاً بحاضره ، عظيم الأمل في مستقبله :

ذَكَرَ الْكَرَّخَ نَازِحُ الْأَوْطَانِ فَصَبَا صَبُوءَةً وَلَاتَ أُوَانَ
كَيْسَ لِي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ قِي إِلَىٰ أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسَانَ
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِي وَرَوَاحِي إِلَىٰ بُيُوتِ الْقِيَانِ
وَاعْتَفَالِي الْمَوْلَىٰ لِأَخْتَلِسَ الْعَمَّ زَةَ يَمِّنَ أَحِبُّهُ بِالْبَتَانِ
وَاعْتِمَالِي الْكُؤُوسَ فِي الشَّرْبِ تَسْعَىٰ مُتْرَعَاتٍ كَخَالِصِ الرَّغْفَرَانِ
يَا بِنْتِي أَبْشِرِي بِمِيرَةِ مِصْرِي وَتَمَسِّي وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفَ الزَّمَانِ
كَيْفَ أَخْشَىٰ عَلَىٰ غَوْلِ اللَّيَالِي وَمَكَانِي مِنَ الْخَصِيبِ مَكَانِي

ثم يقول :

قَادِنِي نَحْوُكَ الرَّجَاهُ فَصَدَّقْتُ رَجَائِي وَاخْتَرْتُ حَمْدَ لِسَانِي
إِنَّمَا يَشْتَرِي الْمَحَامِدَ حُرٌّ طَابَ نَفْسًا لَهْنٌ بِالْأَثْمَانِ

ولم لا يكون سعيداً ! ولم لا ينطق بهذا الشعر الجميل الصادق ، وهو يقضى نهاره وليله بين باب الأمير ودور اللّهو !

وكما أن مدح أبي نواس في أكثر الأحيان ليس بالصادق ولا الممتاز ، فرثاؤه قليل الخطر ، وربما كان أقل خطراً من مدحه ، وربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس . وهذا واضح ؛ فلم يكن أبو نواس رجلاً محزوناً ، ولا ميالاً إلى الحزن ، وإنما كان رجلاً مبتهجاً بطبعه ، أو كان هو الابتهاج . فليس غريباً ألا يجيد الرثاء ، وليس غريباً أن يتكلفه إذا اضطر إليه . ثم لا تنس أن أبا نواس لم يستطع أن يطمئن إلى حياة الزوجية ، وعجز الذين أرادوا أن يحملوه على الزواج ، فلم تكن له أسرة ، ولم يعيش بين أبنائه وبناته ، فلم تنشأ في نفسه هذه العواطف الرقيقة التي تنشأ الحياة المنزلية الصالحة ، وإنما كان مقسم الحياة بين اللذات وضروب المزاح .

أما صلوات المودة التي كانت تصل بينه وبين الناس ، فلم يكن أكثرها يقوم على الجحد ، وإنما كان يقوم على اللذات ؛ فكان أبو نواس مديناً لأصدقائه بالابتسام لا بالعبوس . ومن هنا لا تكاد تشعر بشيء من الألم حين تقرأ مراثيه القليلة . وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه إلا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين في هذه الأبيات :

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَدَيْتَنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تَطْوَى الْمَنِيَّةُ نَاشِرُ
فَلَا وَصَلَ إِلَّا عِبْرَةً تَسْتَدِيمُهَا أَحَادِيثُ نَفْسٍ مَالَهَا الدَّهْرَ ذَاكِرُ
وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذِرُ
لَنْ عَمَّرْتُ دُورٌ بِمَنْ لَا أَوْدُهُ لَقَدْ عَمَّرَتْ يَمَّنْ أَحِبُّ الْمُقَابِرُ

فأما غير ذلك من الرثاء فسخيف أو متكلف . ولست أشك في أن أبا نواس كان يشعر بضعفه في هذا الفن ، وكان مع ذلك يحاول أن يخفي هذا الضعف ، فكان يسلك إلى إخفاؤه سبلا مختلفة ، أظهرها الإكثار من الوصف ، على نحو ما كان يغرق فيه الجاهليون من وصف الوحش والجبال وما إلى ذلك .

ليس لرثاء أبي نواس قيمة ، فخير ألا نطيل فيه ، وأن ننتقل إلى فن آخر ،

أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ليست أقل من إجادته في الخمر ، ولا في
المجون ؛ لأنه باب من المجون ، وهو الهجاء . على أننا نسرف إذا قلنا إن هجاء
أبي نواس مجون كله ؛ ففي هجاء أبي نواس جد كثير ، وفيه هزل كثير .
ولقد كنا نريد أن نخصص للهجاء عند أبي نواس فصلاً مطولاً ، ولكننا
مضطرون إلى أن نعدل عن ذلك ؛ لأن أكثر هذا الهجاء مملوء بفاحش
القول ومقذعه ، فليس إلى روايته من سبيل . فلنكتف بأن نعطيك منه
صورة موجزة جداً . ولنلاحظ قبل كل شيء أن هجاء أبي نواس ينقسم أقساماً ،
فهناك الهجاء السياسي ، وهذا الهجاء نفسه ينقسم قسمين : أحدهما هجاء
أبي نواس للعرب عامة ، وللتزاريين خاصة ؛ فقد كان أبو نواس شديد
الميل إلى الفرس ، وكان لا يحب من العرب إلا البغية ، فأما التزارية فقد كان
يزدرهم ويمقتهم كل المقت ، وكان يناهض بأشد الشعر إقذاعاً ، حتى يروى
أن الرشيد حبسه في ذلك الوقت ، وكان لا يكاد يستثنى قريشاً ، فإذا فعل
فخافة السيف ؛ لأن النبوة والخلافة كانتا في قريش . والقسم الآخر من هجائه
السياسي هجاؤه للذين عاشروه من الأمراء والوزراء ؛ فقد كان أبو نواس يكره
البرامكة ، وكان يكره الأمويين ، وكان ينال أولئك وهؤلاء بفاحش القول .
ولم يكن أبو نواس طيب النفس ولا رحيماً إذا هجا أعداءه السياسيين ، وإنما
يظهر أنه كان شديد الضغن ، منكر الحق . فانظر إلى هذه الأبيات التي
هجأ بها إسماعيل بن صبيح مولى الأمويين ، وكاتب الأمين :

أَلَا قُلْ لِإِسْمَاعِيلَ إِنَّكَ شَارِبٌ	بِكَأْسِ بَنِي مَاهَانَ ضَرْبَةَ لَازِمٍ
أَتُسَمِّنُ أَوْلَادَ الطَّرِيدِ وَرَهْطَهُ	يَاهْزَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هَاشِمٍ
وَإِنْ ذُكِرَ الْجَعْدِيُّ أَذْرَيْتَ عَبْرَةً	وَقُلْتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ
وَتُخْبِرُ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ صَائِمٌ	وَتَعْدُو بِحَجَرٍ مُنْطَرِأً غَيْرَ صَائِمٍ
فَإِنْ يَسِرَّ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ	فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمٍ

فانظر إلى هذه الواقعة المنكرة . ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ؛ فليست
أقل نكراً مما روينا لك :

أَلَسْتَ أَمِينَ اللَّهِ سَيْفِكَ نِقْمَةٌ إِذَا مَا قَ يَوْمًا فِي خِلَافِكَ مَا تَقُ
فَكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ بِسَلْمٍ مِثْلُهُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَسَلِّمْ عَلَيْكَ مُنَافِقُ
أُعِيدُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ شَرِّ كَاتِبٍ لَهُ قَلَمٌ زَانَ وَآخِرُ سَارِقُ
أَحْمِيرَ عَادَ إِنْ لَلسَيْفِ وَقَعَةٌ بِرَأْسِكَ فَانظُرْ بَعْدَهَا مَا تُوَافِقُ
بَجَهْزٍ جَهَّازَ الْبَرْمَكِيِّينَ وَانْتَظِرْ بَقِيَّةَ لَيْلٍ صُبْحُهُ بِكَ لِأَحِقُ

وقسم آخر من هجاء أبو نواس تناول به العلماء من اللغويين وأصحاب النحو والكلام ؛ فقد هجا الهيثم بن عدى ، وهجا أبا عبيدة بهذين البيتين المنكرين ، ويروى أنه كتبهما على الحائط حيث كان يدرس أبو عبيدة :

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ أَبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِينَ
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلَا شَكٍّ بَقِيَّتُهُ مِنْذُ احْتَلَمْتَ وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَ
وهجا النظام من المتكلمين بهذه الأبيات :

قَوْلًا لِإِبْرَاهِيمَ قَوْلًا هُتِرَا غَلَبَنِي زَنْدَقَةٌ وَكُفْرَا
إِنْ قُلْتَ مَا تَشْرَبُ قَالَ سَخِرَا
أَوْ قُلْتَ مَا تَتْرِكُ قَالَ بَرَا أَوْ قُلْتَ مَا تَرْهَبُ قَالَ بَحْرَا
أَوْ قُلْتَ مَا تَقُولُ قَالَ شَرَا أَصْلَاهُ رَبِّي لَهْبًا وَجَجْرَا

ولعلك تذكر أنه كان يقصد إلى النظام بقصيدته التي أولها :

• دَعُ عَنكَ لَوْمَى فَإِنِ اللّٰؤْمُ إِغْرَاءُ •

والعجب أن هؤلاء العلماء الذين هجاهم أبو نواس كانوا يحبونه ، ويعجبون بشعره . ولعل شيئاً من هذا الإعجاب مصدره الخوف ؛ فقد كان أبو نواس يندثر العلماء إذا احتاج إلى ذلك ، ولما لم يجد له الكلبي نسباً في أنساب العرب قال فيه :

أَبَا مُنْذِرٍ مَا بَالُ أَبْوَابِ مَذْحِجٍ مُغْلَقَةٌ دُونِي وَأَنْتَ صَدِيقِي
فَإِنْ تَعَزَّيْ يَأْتِيكَ ثَنَائِي وَمِذْحِي وَإِنْ تَأَبَّ لَا يُسَدِّدُ عَلَيْكَ طَرِيقِي

وقسم ثالث من هجاء أبي نواس ، هو هجاؤه لأصحابه من الشعراء والنداءى ؛
 فله في الرقاشى وفي بنى نوبخت كلام كثير مقذع . وظاهر أن رجلا كأبي نواس
 حياته بين الكاس والطاس ، في لعب ومزاح ، كان من خفة الروح ،
 وتوقد الذكاء ، ودقه الفطنة ، بحيث كان يبلغ ما أراد إذا هجا ؛ فهو
 من أشد الشعراء في عصره إقذاعاً ، ومن أكثرهم نكاية بالحصم ، وفي هجائه
 ازدراء لا يعدله ازدراء ، ولقد أحب أن أذكر لك من ذلك شيئاً قليلاً ، فانظر
 إلى قوله :

أَمَاتَ اللَّهُ مِنْ جُوعٍ رَقَاشًا قَلَوْلَا الْجُوعُ مَا مَاتَتْ رَقَاشُ
 وَلَوْ أَشَمَّتْ مَوْتَاهُمْ رَغِيْفًا وَقَدْ سَكَنُوا الْقُبُورَ إِذْ نَ لَعَاشُوا

وانظر إلى قوله في هجاء داود بن رزين رواية بشار :

إِذَا أَنْشَدَ دَاوُدُ قَلُّ أَحْسَنَ بَشَارُ
 لَهُ مِنْ شِعْرِهِ الْغَثُّ إِذَا مَا شَاءَ أَشْعَارُ
 وَمَا مِنْهَا لَهُ شَيْءٌ إِلَّا هَذَا هُوَ الْعَارُ

وانظر إلى هذين البيتين :

يَمَا أَهْجُوكَ لَا أَذْرِي لِسَانِي فِيكَ لَا يَجْرِي
 إِذَا فَكَّرْتُ فِي عَرَضِكَ أَشْفَقْتُ عَلَى شِعْرِي

وانظر إلى قوله :

سِيرُوا إِلَى أَبْعَدِ مُنْتَابِ قَدْ ظَهَرَ الدَّجَالُ بِالزَّابِ
 هَذَا ابْنُ نُوبَخْتٍ لَهُ إِمْرَةٌ صَاحِبُ كِتَابٍ وَحُجَابِ

وانظر إلى قوله في البرامكة :

إِنِّي لَوْلَا شَقَاةَ جَدِّي مَامَاتَ مُوسَى كَذَا سَرِيْعًا
 وَلَا طَوْنَهُ الْمُنُونُ حَتَّى أَرَى بَنِي بَرْمَكٍ بِجَمِيْعًا

هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَعْ وَكُنْ لَهُمْ سَامِعًا مُطِيعًا

وهذا أخف ما قال أبو نواس في الهجاء . ونحن مضطرون أن نظوى عنك أجد هجائه ؛ لأنه قد بلغ من القبح كما قلنا حدًّا يحول بيننا وبين روايته .

• • •

وفن آخر من فنون الشعر أجاد فيه أبو نواس إجادة مطلقة ، ولعله أول من اتخذه فناً مستقلاً من فنون الشعر ، فنظم فيه القصائد طولها وقصارها ، وهو فن الصيد ، ولكنى لا أحدثك عنه في هذا الفصل ، لأن أبا نواس قد آثر فيه الغريب إثارةً شديداً ، حتى أصبح من المستحيل أن تتسع له الصحف السيارة ، لشدة احتياجه إلى الشرح والتفسير . ولعل أوفق لجمع هذه الفصول كلها في كتاب ، فأضيف إليها فصلاً عن الصيد في شعر أبي نواس .

أما الفن الذي أريد أن أختم به القول في أبي نواس ، فهو فن الزهد ، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها ، وذلك مفهوم أيضاً : فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبي نواس لما استطعت إلا أن تقول . إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ، ويسخر منها ، ولعلك تدهش إذا قلت لك إنى أشبه أبا نواس بأبي العلاء ، تدهش لأن أبا نواس مشرق مبتسم ، في حين كان أبو العلاء عابساً مكتئباً ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وفجور ، في حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان . ومع ذلك فأبو نواس شبيه بأبي العلاء : كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمتقها مقتاً شديداً . وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيزدرىها ، ويستعين عليها باللذة واللهو ، وأن أبا العلاء كان يكره الحياة ، فيستعين عليها بالزهد والحرمان . وفي الحق أن المتشائمين ينقسمون إلى هذين القسمين : فمنهم متشائم يضحك ويلهو ، ومنهم متشائم يعبس ويبكى وهم جميعاً متشائمون ، تقوم فلسفتهم على هذه القاعدة ، وهي أن الحياة شيء ليس بذى خطر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهى إلى خير ، فالتنقص في لعب وطو ، أو فلتنقص في حكمة وزهد ، هذا شيء يختلف باختلاف الأمزجة لا أكثر ولا أقل . فليس غريباً إذن أن يجيد أبو نواس في الحجون وفي الزهد معاً ، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبي نواس

أكان مسلماً حقاً أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن في أبي نواس هو أنه تجاوز حدود الإسلام ، وازدري أصوله وقواعده غير مرة في حياته الطويلة ، ولنقل إن شعره في الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضاً ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة ، التي قالها في الزهد :

أَيَّ جِدِّ بَلَغَ الْمَارِجُ	أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ
وَنَاصِحٍ لَوْ حَظِيَ النَّاصِحُ	لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَعَظِي
وَمَنْهَجِ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ	يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتَّبَعَ الْهَوَى
مُهْرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ	فَأَسْمُ بَعِيْنِيكَ إِلَى نِسْوَةٍ
إِلَّا أَمْرُو مِيزَانُهُ رَاجِحُ	لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خَدْرِهَا
سِيَقَ إِلَيْهِ الْعَمْتَجِرُ الرَّابِحُ	مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَذَلِكَ الَّذِي
وَرُوحُ مَا أَنْتَ لَهُ رَاجِحُ	شَمْرُ مَا فِي الدِّينِ أُغْلُوْطُهُ

الوليد بن يزيد (١)

كان خليعاً ماجناً ، ويقول الرواة إنه كان زعيم أصحاب الخلاعة لثغارف والحجون . تبعه أبو نواس في خلاعته ومجونته ، وتبعه غير أبي نواس من شعراء هذا العصر ، فسطوا على شعره ، وسرقوا معانيه وألفاظه ، أو قل إنهم استباحوها واغتصبوها اغتصاباً ، لم يروا في ذلك حرجاً ، ولم يخنشوا في ذلك دفاعاً . كان الوليد أمويّاً ، فكان بغيضاً إلى الناس أيام بني العباس ، ثم كان الوليد بغيضاً إلى بني أمية أنفسهم ، قبل أن يمكن الله لبني العباس في الأرض ؛ فكان بغض الناس له مضاعفاً ، كرهوه حين كان الأمر لبني أمية ؛ لأنه كان بغيضاً إلى قومه ، ولأن التوفيق السياسي أخطأه ، ولأنه كان على شيء غير قليل من سوء السيرة ، ولأن قومه الذين ثاروا به وقتلوه بالغوا في تسوية سيرته ، وأضافوا إليه من القول ما لم يقل ، وحملوه من الآثام ما لم يحمل ، وأنت تعلم آثار البغض السياسي ، وما تحدثه القنن لمن لم يوفق فيها للنصر . ثم كانت ثورة العباسيين ، واستقرار الأمر لهم ، فشمل البغض بني أمية وكان حظ الوليد منه مضاعفاً ، وتقرب الناس إلى بني العباس بلعن بني أمية جميعاً ، خيبرهم وشريهم ، كما تقرب الناس إلى بني أمية من قبل بالقدح في بني هاشم جميعاً ، وبلعن عليّ رضي الله عنه . ومن هنا كان من الحق أن تحتاط الاحتياط كله حين تقرأ ما تجد في الكتب من ذم الوليد ، والنعي عليه ، ورميه بالكفر حيناً ، وبالزندقة حيناً آخر ، وإضافة الشعر المملوء كفرةً وفجوراً إليه ، يجب أن تحتاط في هذا كله ، فأكثره أو كثير منه على أقل تقدير متكلف منحول ، ولسنا نحن الذين يقولون ذلك ، بل قاله الأولون ؛ فقد اختلفوا فيه اختلافاً عظيماً ، فأما أكثرهم فكانوا يتقربون إلى بني العباس ، وإلى عامة الناس ، بالظعن فيه ، والنعي عليه ، وليس أحرص من أصحاب السلطان والعامّة ، على أن تكون هناك ضحايا بريئة أو غير بريئة ،

(١) نشرت بالسياسة في ٢٧ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢ أبريل سنة ١٩٢٤ .

ينالونها بضروب الغضب ، ويُنزلون بها ألوان السخط . وأما القليل من هؤلاء الأولين ، فكانوا يقتصدون في ذلك . فيسكتون ، وربما اصطنع بعضهم الشجاعة ، فدافع عنه في رفق وحذر . قالوا : دخل مروان ابن أبي حفصة على الرشيد ، فسأله عن الوليد ، فتردد ، فأعفاه الرشيد من آثار قوله ؛ فقال : « كان من أصبح الناس ، وأظرف الناس ، وأشعر الناس » فاستنشهده الرشيد من شعره ، فأنشده هذه الأبيات :

لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى مِكْيَالَهُ الْأَوْفَرَ قَدْ أَتْرَعَا
كَلْنَا لَهُ الصَّاعَ الَّتِي كَالَهَا قَمَا ظَلَمْنَاهُ بِهَا أَضْوَعَا
لَمْ نَأْتِ مَا نَأْتِيهِ عَن بِدْعَةٍ أَحَلَّهَا الْقُرْآنُ لِي أَجْمَعَا

قالوا : فأمر الرشيد بهذه الأبيات فكتبت له . وتحدثوا أن رجلا من ولد الغمَّس بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فسأله عن نسبة ، فانتسب إلى قريش ، فسأله أن يخصص ، وأمنه على نفسه إن ظهر أنه مرواني ، فلما ذكر الرجل نسبة ، بشَّ له الرشيد ، وقال لعن الله قاتلي أبيك ، فقد قتلوا خليفة مجتمعا عليه ، وقضى حوائجه . وعلى نحو من ذلك كان رأى المهدي ، قال الرواة إن فقيها من الذين كانوا يختلفون إلى مجلس المهدي استطاع أن يدفع عن الوليد حين اتهم بالزندقة ، فذكر صلاته وطهارته وخشوعه ، ولكنه ذكر شرِّه وجهه للهو ، وعكوفه عليه . ويقيننا نحن أن الوليد لم يكن كما يزعم خصومه مسرفاً في اللهو والفجور إلى غير حد ، كما أنه لم يكن كما يريد أنصاره تقياً صالحاً ، وإنما كان رجلا من الناس ، أحب اللذة وكلف بها ، وأعانتها عليها ظروف نريد أن نُجملها ، فأخذ منها بحظ موفور ، دون أن يخرجها ذلك عن دينه ، أو يتجاوز به حدود ما ينبغي للخلفاء في عصره ، ولكنه كان شقيماً سيئ الحظ ، جنت عليه الظروف السياسية التي عاش فيها أكثر مما جنى عليه لوه ومجونه . ^{أما الكرمي} أول هذه الظروف السياسية التي جنت على الوليد أنه كان ولياً لعهد أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكنه كان غلاماً ، فتوسط بينه وبين أبيه في الخلافة عمه هشام بن عبد الملك ، ولم يكد يتم الأمر لهشام ، حتى طمع في الخلافة

لابنه ، وأراد أن يخلع الوليد من ولاية العهد ، وكان قد أعطى العهد على نفسه لَيْسَةَ مَيْسَنَ للوليد ، ولكن الأثرة وحب الأبناء كانا أقوى وأشد تأثيراً في نفس هشام من العهد والوفاء به ، أزع هشام خلع الوليد ، وأخذ يحتال في ذلك ، ويعد له ، وأحس الوليد ذلك ، فكانت بينه وبين عمه ضغائن وأحقاد ، واشتدت شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت عداً صريحاً ، وحتى اضطرت الوليد إلى أن يترك العاصمة ، ويرتحل إلى البادية ، مغاضباً لعمه ، مجتنباً شره ، فلم يزد ذلك هشاماً إلا بغضاً لابن أخيه ، وحقداً عليه ، وإلا اضطهاداً له ولأولياؤه ، وأخبار ذلك كثيرة منتثرة في الكتب ، وبأى شيء يشنع هشام على الوليد حتى ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن بيعته ، إلا بالدين وذكر الفجور والفسوق ! وقد انتفع هشام بهذا ، وأسرف في الانتفاع به ، فأذاع عن الوليد ما أراد أن يذيع من اللهو والحجون والإدمان ، والكفر والزندقة ، وسمع له الناس وهم بين مصدق مغرور ، ومكذب ، ولكنه يتملق فيظهر التصديق ، ودافع الوليد عن نفسه ما استطاع ؛ فلأمر ما كان مغنوه يغشونه هذين البيتين .

يَأْيَهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ
نَشْرِبُهَا صِرْفًا وَمَمْزُوجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَانًا وَبِالْفَاتِرِ

وأبو شاكر هذا هو مَسَلَمَةُ بن هشام ، الذي كان يرشِّح للخلافة مكان الوليد ، وتحديثاً أن هشاماً سأل الوليد ذات يوم أسئلة تم عن رأيه فيه ، فلم يكن جواب الوليد أقل حدة وفطنة من أسئلة هشام ، سأله : ما شرابك ؟ فأجاب : شرابك يا أمير المؤمنين : ولسنا نزعم أن الوليد لم يكن يشرب ، إنما نزعم أنه كان يشرب كغيره من أبناء الخلفاء ، ومن الخلفاء أنفسهم ، كان يشرب كهشام وبنى هشام ، ولكن الغرض السياسي أباح لهشام أن يذمه ، ويشنع عليه بما كان يأتي هو ، وبما كان يأتي أبناؤه .

كان الوليد مضطهداً أيام هشام ، فكان هذا الاضطهاد نفسه يضطره إلى اللهو واللعب لأمرين ، ليسلى عن نفسه ما يناله به السلطان من المحن من جهة ، وليظهر نفسه مثلظهر الرجل الذي لا يريد أن يضعف ، ولا أن يستكين من جهة ، كان يشرب عناداً ، وكان يشرب طالباً للعزاء ، ومضى في الشرب عناداً وتعزياً ، حتى شغف به شغفاً غير مألوف ، فأمكن من نفسه ،

وصدّق بعد آراء الناس فيه ، مات هشام دون أن يستطيع خلعه ، ولكنه كان قد استطاع إيذائه وإيذاء أصحابه ، ونالهم بمحن كثيرة شديدة ، فلما تم له الأمر ، وتبوأ دار الخلافة ، جرى مع طبيعته ، فانتقم وأسرف في الانتقام ، كما أسرف هشام في الإساءة إليه ، ولكنه انتقم من الأبرياء ، أو انتقم من قوم لم يكونوا أساءوا إليه إلا تأثراً لهشام ، وكذلك شأن الانتقام السياسي ، يصيب البريء قبل أن يصيب المسيء . ثم لم يكتف الوليد بالإسراف في الانتقام ، بل أسرف في شيء آخر . كان محروماً منه أيام عمه ، فجرى مع طبيعته ، وأراد أن يستوفي حظه بعد الحرمان ، فتجاوز الحق . كان مُسْتَتِراً عليه ، فقد قطع عنه هشام عطاءه وأرزاق أصحابه ومواليه ، وقد انفتحت له الآن خزائن الدولة ، فأسرف فيها ، كان مُضْمِيقاً عليه ، يختلس اللهو اختلاساً ، ويفر باللذة فراراً ، وقد أصبح الآن صاحب السلطان ، فأطلق لنفسه عنانها ، وأخذ من اللذة ما استطاع ، وفوق ما استطاع .

ثم لم يكف يصل إلى الخلافة وينتقم لنفسه ، حتى كان هذا الانتقام نفسه مصدر شر له ؛ فقد كوّن حزباً قوياً يكره الوليد ، ويأتمر به ، ويرثي لأبناء هشام ، ويث الدعوة للتشجيع على الوليد ، وإساءة رأى الناس فيه ، فلم يكن بدّ للوليد من أن يدفع عن نفسه ، ويحارب هؤلاء الخصوم ، ولم يكن الوليد ملكاً ولا قديساً ، وإنما كان رجلاً من الناس ، وكان أمويّاً من بني أمية ، فيه أخلاقهم وخصالهم ، وفيه عنفهم وعنادهم ، وفيه غرورهم وطغيانهم ، فلقى الشر بالشر ، وتحدي خصومه ، فأمكنهم من نفسه ، وصدّق رأيهم فيه ، ثم انتصر على خصومه ، فخلعوه وقتلوه ، وأرادوا بطبيعة الحال أن يحمّد الناس ما فعلوا ، فأضافوا إلى آثام الوليد وسيئاته ما استطاعوا ، ثم كانت الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعاً في رأى الخلفاء العباسيين ، وعامة الناس ، ومن يتملق الخلفاء والعامة من العلماء والفقهاء ، كفره فُجَّاراً ، وأصبح الوليد مثالا لكفرهم وفجورهم ، وكذلك يُكْتَسَبُ التاريخ ، فَمَيْتَ أَسْلَمُ فيه ناس من الحق ألا يظلموا .

لانريد أن ندافع عن الوليد ، فليس يغني الدفاع عن الوليد شيئاً ، وليس يعيننا في حقيقة الأمر أن يكون الوليد خيسراً أو شريراً ، ولكن أمامنا حقيقة تاريخية نريد أن نتصورها تصوراً صحيحاً ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

فإذا أردنا أن نحكم على الوليد حكماً قريباً من الصدق ، كان من الحق أن نقول : إنه كان رجلاً مستمتعاً بلذاته ، مسرفاً في هذا الاستمتاع ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما يقول خصومه ، ولعله لم يصل إلى هذا الإسراف في الإثم ، إلا لأن خصومه اضطروه إلى ذلك اضطراراً ، إما باضطهادهم إياه ، وإما بتشنيعهم عليه وتحدّيهم له .

ولقد نريد أن ننظر إلى الوليد نظرة غير النظرة التاريخية . نريد أن ننظر إليه من الوجهة الأدبية ؛ فقد كان الوليد أديباً ، وكان شاعراً ، وهذا وحده هو الذي يعيننا الآن من هذا الرجل . نريد أن ننظر إليه من هذه الوجهة ، ونريد أن نتبين شخصيته الأدبية والشعرية بنوع خاص ، ولكن ذلك ليس ميسوراً ، فقد ذهب أشعار الوليد كلها أو أكثرها ، ولم يبق منها إلا الشيء القليل ، ذهب لتعصب الناس عليه ، وتحرّجهم من رواية شعره ، وما نحسب أن هذا التحرج كان دينياً ؛ فقد روى الناس شعر أبي نواس وغيره من أصحاب اللهو والمجون ، وإنما كان هذا التحرج سياسياً . ومن يدري ! لعل هذا التحرج السياسي قد أضعاع علينا من آثار بني أمية شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فيظهر أن كثيراً من شعر الوليد كان محفوظاً يتناقله الناس في القرن الرابع ؛ فإننا نجد في الأغاني أن قصائد الوليد (تدل على نفسها) ؛ ولهذا لم يحرص أبو الفرج على روايتها وإثباتها ، وليته فعل ، فإن هذه القصائد التي كانت تدل على نفسها في القرن الرابع ، لم يبق منها الآن شيء إلا هذه المقطوعات التي أراد الله أن يرويها لنا أبو الفرج ، فكانت كل ما نعرف من شعر الوليد . ليس من اليسير إذن أن نعطي من الوليد صورة صادقة ، وإنما نحن مضطرون ومع ذلك فهي خير من لا شيء .

أخص ما يمتاز به الوليد أنه كان شاعراً صادقاً لا يكذب ، ولا يميل إلى الكذب في شعره ، ولم يكذب ، لأنه من فتیان بی أمیة ، عزیز النفس ، رفیع المنزلة ، ليس في حاجة إلى أن يمدح ليكسب الحياة ، وليس في حاجة إلى أن يهجو ، ليدفع عن نفسه خصماً يكافئه . وأى الشعراء كان يجرؤ على أن يهجو ولي عهد المسلمين ! ولو فعل فما كان ولي عهد المسلمين ليهجوه ، وإنما كانت السبيل في ذلك أن يناله ما هو أهل له من العقاب . ثم لم يكن الوليد متكلفاً في حياته . وكأنه كان يزدرى الناس ، ولا يخجل بهم ، ولم

لا يزدريهم وقد رأهم يتملقون عمه ، ويعينونه على الظلم ، ونقض العهد ، لا لشيء إلا لأنه صاحب السلطان ! أفيفحل بمثل هؤلاء ! وإذا لم يفحل بهم فما كان له أن يتكلف ما ليس فيه ، أو ينتحل من الحاصل خصلة لا تعجبه .

قالوا : كان الوليد متزوجاً من إحدى بنات سعيد بن خالد بن عمرو ابن عثمان ، فعرف أن لزوجته اختاً تفوقها جمالاً وحسناً ، فطلق زوجته ، وأراد أن يتزوج أختها ، فخطبها إلى أبيها ، وعرف ذلك هشام ، فأرسل إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه ، ويتزوج تلك ؟ فرد سعيد خبطة الوليد . فقال الوليد : هذا سعيد يرد خطبتي ، ولو كنت خليفة لزوجني بناته جميعاً . . . وفي الحق أن سعيداً لم يرد هذه الخطبة إلا مجارة هشام ، وآية ذلك أنه زوج ابنته من الوليد بعد أن أصبح أمير المؤمنين ، فلم يكن من المعقول ، ورأى الوليد في الناس رأيه ، أن يفحل بهم ، أو يعنى بترضيهم . كان يكرههم ويكرهونه وهو ولي العهد ، فلم يكن يحاول إرضاءهم ، وكان سيدهم وهو خليفة ، فلم يكن يحاول إرضاءهم أيضاً . ثم لم يكن الوليد يتعاطى الشعر حباً في الشعر ؛ إذ لم يكن يحرص على أن يكون شاعراً مجيداً ، وإنما كان يلهو ، أو كان يجده ، وكان يتخذ الشعر وسيلة عادية للتعبير عما يجده في لوه وجدده ، وكان لا يعنيه أن يقول الناس أحسن أو أصاب ، وإنما كان يعنيه أن يشعر هو بأنه وصف ما في نفسه ، وترجم عن عواطفه ، ومن هنا كان شعر الوليد كما قلنا صادقاً ، يمثل نفسه تمثيلاً صحيحاً . وسنرى أن هذه النفس لم تكن بغیضة ولا ثقيلة الظل . ومن هنا أيضاً كان شعر الوليد أقرب إلى الرداءة اللفظية ، منه إلى الجودة ، فقد قلت لك : إنه لم يكن يتكلف هذه الجودة ، ولا يطمع فيها ، وإنما كان يقول جرياً مع الطبع ، ولم يكن يقول الشعر إلا وهو متأثر بما يسر أو يحزن ، وإذن فقد كان مشغولاً بسروره وحزنه عن الألفاظ . وكان يقول الشعر وهو سكران ، يشرب ويضطرب بما حواه ، وكان همه أن يكون قد قال شعراً سجل فيه عاطفة ثارت في نفسه ، أو خاطراً خطر له . وكان يحب شعره ؛ لأنه كان معجباً بنفسه ، وكان يرى في هذا الشعر مرآة لهذه النفس ، وكان يحب أن ينظر كثيراً في هذه المرآة ، ولذلك كان لا يكاد يقول شعراً إلا طلب إلى أحد المغنين أن يغني له فيه صوتاً ، وربما قال

الأبيات ، فكلف أحد المغنين أن يغنيه فيها ؛ فما زال كذلك يسمع ويشرب يومه أو ليلته .

وهذا النحو من الشعر الذى لا يتكلف صاحبه فيه لفظاً ولا معنى ، وإنما يعترفه باعترافاً سهلاً لا مشقة فيه ، يكفى أن يخطر الخاطر ، أو تعرض الحادثة ، فإذا الشاعر ينظم فيها أبياتاً ، أى يقول فيها كلاماً كان يستطيع أن يقوله نثراً ، ولكنه تعود النظم ، فهو ينظم فى غير عُسْر ؛ ولهذا كان الشعر أيسر شئ على الوليد ، كان يتكلم شعراً حين ينثر الناس ، وكان إذا أعجبه شئ عادية وصفه شعراً ، وكان إذا اشتى شيئاً اشتباه شعراً ، وكان إذا غمه شئ مهمما يكن جليلاً أو ضئيلاً عبر عن ذلك بالشعر . كان الشعر كالنثر عند غيره ؛ ولهذا اصطنع من بحور الشعر أخفها وألطفها ، وأقربها إلى النثر ، وأشدها ملاءمة لحياة اللهو والدعة التى كان يحياها . فقليل ما تجد عند الوليد هذه البحور الطوال المعقدة ، وإنما شعره كله هزج ورمل ، وكان إذا عمد إلى البحور الطوال اجتزأها اجترأ ، وخففها تخفيفاً ، فاختار أيسرها وأقصرها . قلت لك : إنه لم يكن ينظم الشعر ، وإنما كان يتكلمه ، وهو فى هذا قدوة للذين اتبعوه من شعراء العباسيين ؛ فقد حدثتلك عن أبى نواس أنه كان إذا لها أو تغزل أثر من بحور الشعر أيسرها وأقصرها ، وأخفها موقعاً ، وأدناها من النثر مكاناً . وكذلك كان غير أبى نواس من شعراء العباسيين ، إمامهم فى هذا كله الوليد .

ولو أن الوليد أكثر من تعاطى الجحد فى شعره ، لاختار لهذا الجحد من الأوزان الشعرية ما فيه جلال ومهابة ، ولكنه لم يكن يجد فى شعره كثيراً ؛ فقد قلت لك إنه لم يكده بمدح ولم يكده بهجو ، وإنما تعاطى من فنون الشعر ضرورياً خاصة ، ووصف الخمر لأنه كان يشربها ، ووصف اللذة لأنه كان يستمتع بها ، ووصف الصيد لأنه كان يصيد ، وكل هذه الفنون تحتاج إلى الشعر السهل ، ولطى الوزن القصير . وتغزل الوليد كثيراً ؛ فقد ذكرت لك أنه أحب أخت زوجته ، وكانت هذه المرأة التى قُتن بها تسمى ساسمى بنت سعيد ، فلا تكاد تجد شعراً للوليد يخلوا من ساسمى ، وهو يفتن فى ذكر ساسمى افتناناً عظيماً ، فيذكر اسمها مكبراً ومُصغراً ، ويذكره كاملاً ومُرخماً ، ويتخذ مرة كُنية لها ، كأنه يداعبها ، ومن الغريب أنه كان فى (١٠)

هذا الحب سيئ الحظ ، كما كان في حياته كلها ، فقد طلق امرأته ليتزوج
أختها ، فحال هشام بينه وبين ذلك ، فندم على تطليق امرأته ، وكأنه أحبها ،
فأراد أن يراجعها ، ولكنها كانت قد تزوجت رجلاً آخر ، فقال في ذلك
شعراً لذيذاً ، ولكنه يثس من امرأته ، فانصرف إلى عشيقته سلمى ، وكانت
كانت تحبه ، بل كانت تحبه ، ولكنها كانت تطيع أباهاً وتكبره ، فكان الوليد
ينسب بها حياته ، وكان شعره يصل إليها ، وكان يجب أن يسمع رأيها في
هذا الشعر ، لا لأنه ينتظر أن تمدح شعره أو تدمه ، بل لأنه يريد أن يجد
في كلامها صدقاً لعواطفه ، وقد بلغ به الغيظ ذات يوم أن خاصم سعيداً
وهجاه ، فبلغ ذلك سلمى ، فغضبت لهجاء أبيها ، وبلغ الوليد أنها مغضبة ،
فترضاه بشعر كثير ، وترضى أباهاً ، واعتذر إليه . وظل أيام هشام في وجد
وحزن ، يجب ولا يصل إلى من يجب ، وله في ذلك فنون ، فقد احتال ذات
يوم في أن يدخل قصر سعيد ، فيقال إنه لقي زياتا يسوق حمراً ، فأخذ من
الزيات ثيابه وحماره وزيته ، ونزل له عن فرسه وثيابه ، ومضى يبيع الزيت ،
حتى دخل قصر سعيد يعرض زيته ، ورأته سلمى ورآها ، ثم نهره الخلد ،
فانصرف وقال في ذلك شعراً . فلما مات هشام وأصبح الوليد خليفة ، خطب
سلمى إلى أبيها ، فقبل خيطبته هذه المرة ، وزوجه ابنته ، وللوليد في ذلك شعر
عذب لذيذ ، من أخف الشعر ظلاً ، وأحسنه في النفوس وقعاً ، ولكنها قلت
لك إن الوليد كان سيئ الحظ في حبه ، كما كان سيئ الحظ في حياته كلها ؛
فلم تلبث سلمى عنده إلا أربعين يوماً ثم ماتت ، فجزع الوليد لموتها جزعاً
شديداً ، ورثاها رثاء لا نقول إنه يفطر القلوب حزناً وأسى ، ولكننا نقول إنه
يمثل نفس الوليد ، التي كانت تعرف كيف تحزن ، كما كانت تعرف كيف
تبهج . ويكى أن تقرأ شعر الوليد في سلمى هذه حية وميتة ، لتعرف أن الوليد
لم يكن يتكلف الشعر ، ولا يحرص على الإيجاد فيه ، وإنما كان يرسله كما
يرسل أنفاسه ، في سهوله ويسر ، فإذا هو حاراً حيناً ، وفاتر حيناً ، وقد يصل
إلى البرد حيناً آخر .

ثم للوليد جيد ، ولكننا لم نحفظ منه إلا قليلاً ، فقد خاصم
هشاماً ، فاضطره هذا الخصام إلى شيء من الفخر والعصب ، ونالته مخن
اضطرته إلى أن يقول فيها شعراً ؛ وفقد ابناً له فرثاه ؛ وهو في هذا

الجد كله قوى متين ، لا يخلو من جلال ورياسة .
ولم يكن الوليد شاعراً فحسب ، وكأنه كان يتصرف في النثر تصرفاً
حسناً ؛ فقد روى لنا أبو الفرج مكاتبة بينه وبين هشام لا بأس بها ، ولكني
أتردد (وأظن أني محق) في نسبة هذه الرسائل إلى الوليد وإلى هشام ، وأحسب
أن مواليهما هم الذين كانوا يكتبون عنهما ؛ ولست أشك في ذلك بالقياس
إلى هشام ، وأنا أرجحه بالقياس إلى الوليد ، ومهما يكن من شيء فإن معاني
هذه الكتب تمثل نفس الوليد وهشام تمثيلاً لا بأس به . ثم كان الوليد مع
هذا عالماً بأيام العرب وأحداثها ، وبأشياء أخرى كثيرة ، وأحسب أن اتصاله
بالموالي من الفرس قد علمه شيئاً كثيراً ، والرواة يرون أنه أخذ عنهم الزندقة ،
ومال معهم إلى مذهب «ماني» . وليس من شك في أنه كان يُسَمَّى باصطلاحات
حديثية علمية أو فلسفية ، ظهرت في شعره عند ما وصف الحمر ، كما
ظهرت في شعر أبي نواس ، ومع ذلك فالفرق بينه وبين أبي نواس ليس بالقليل ،
كان الوليد أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة ، وذلك ظاهر جلي في شعره ،
فعلى هذا الشعر مسحة بدوية لا تقبل الشك ، بينما أبو نواس في لهوه ومجونه
حَضْرِيًّا ، قد رق حتى كاد ينمحي رِقَّة وخفة .

ولنختصر ، فالوليد شخصيتان : شخصيته السياسية التاريخية ، التي
حدثتك عنها في أول هذا الفصل ، وهذه الشخصية إن لم تكن جذابة خلافة ،
فليست منفرة ولا بغیضة ، وهي لا تقطع الصلة بين الوليد وبين غيره
من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، الذين يذكرون بالخير ، ولعلمهم ليسوا
أقل إثماً من الوليد . وشخصيته الأدبية : شخصيته من حيث هو شاعر .
وأحسب أني قد رسمتها لك رسماً إلاّ يكن صادقاً كل الصدق ، فليس
بعيداً عن الحق ، وأحسب أن هذا الرسم يظهر لك الوليد شاعراً ظريفاً ،
جذاباً خفيف الروح . ولكني أريد أن أثبت كل هذه الصفات التي
قدمتها ، ولا بد لذلك من أن تنتقل إلى طائفة من شعره ؛ فليكن ذلك في
الفصل الآتي .

مطيع بن إياس^(١)

وكنت تنتظر أن أحدثك عن الوليد بن يزيد ؛ لأني وعدتك في الأسبوع الماضي أن أستأنف الحديث فيه ، ولكن بدا لي ، فسأحدثك عن شاعر آخر ، ولست أكره إخلاف هذا الوعد ؛ فمن اليسير عليك ، ومن الخير لك ولي ، إذا أردت أن تتعرف شعر الوليد ، وتثبت صحة تلك الصورة التي رسمتها لك من شخصيته ، أن ترجع إلى كتاب الأغاني ، وما روى فيه أبو الفرج من شعر الوليد ؛ ففي ذلك مقنع لك ، وفي ذلك فائدة أعظم وأجدي من الفائدة التي تجنيها لو أتى رويت لك طرفاً من شعر الوليد في هذا الحديث . ومن يدري ! لعلك إن رجعت إلى أخبار الوليد وأشعاره في الأغاني صححت بعض ما قد أكون تورطت فيه من خطأ . ومهما يكن من شيء ، فإن رجوعك إلى الأغاني بعد أن قرأت حديثي عن الوليد ، أنفع لك ، وأجدي عليك من قراءة حديث آخر ، ليس لي فيه إلا رواية وتحايل . وذلك في الوقت نفسه ينفعني ، فأنا أريد أن أتحدث إليك مسرعاً عن طائفة من الشعراء ، تصل بينهم وبين الوليد وأبي نواس صلة متينة قوية ، هي صلة الخلاعة والمجون والشك ، والإعراض عما ألف الناس ، أريد أن أتحدث إليك في هؤلاء الشعراء ، لا لأني أؤثر هزيم وخلاعتهم على جد غيرهم ، ولا لأني أشعر بأنك تؤثر الخلاعة والهزل على الجد ، فأحاول أن أرضيك وأسليك ، بل لأني أرى في الحديث عن هؤلاء الشعراء وأصحابهم من أهل الظرف والمجون في ذلك العصر ، نوعاً من الجد عظيم الخطر ، يُمكننا من أن نفهم عصرنا من العصور الإسلامية كما ينبغي أن نفهمه ، و يمكننا من أن نحكم على هذا العصر حكماً ملائماً للحق ، مقارباً للصواب ، وليس هذا بالشيء اليسير ، وليس هذا بالشيء الذي يزدرية الباحثون . ولعلك لم تنس بعد أني لم أكد أعرض لأبي نواس في

(١) نشرت بالرياسة في ٥ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٩ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

السنة الماضية ، حتى سخط ناس كثيرون في مصر ، وفي غير مصر . سخط قوم ، لأن في شعر أبي نواس وأمثاله مخالفة للأخلاق ، ونبوّاً عن الدين . وسخط قوم آخرون ؛ لأنهم زعموا أنى أسىء إلى العرب ، وأتهمهم بما ليس فيهم ، واتخذ فجور واحد من الشعراء مقياساً لحياة العصر الذى عاش فيه ، فأعمم حين يجب التخصيص ، وأسرف في التعميم حين يجب الاحتياط والدقة . لعلك لم تنس هذا بعد ، ولعلك تعلم أن الذين يُعَسَّنُونَ بالبحث الأدبى والتاريخى غناية صادقة ، إذا خطر لهم رأى ، وظهر لهم أنه الحق ، فأمنوا به واطمأنوا إليه ، لم يسهل عليهم أن يتركوه أو ينصرفوا عنه ، حتى يشتبوا لأنفسهم وللناس أنه الحق ، وهم يشتدون فى ذلك ، ويحرصون عليه حرصاً ليس فوقه حرص ، وأنا من هؤلاء الناس ، حاولت أن أبحث عن أبى نواس ، فخطر لى أنه كان شاعراً شاكراً ماجناً ، وأن هذا الشك والمجون لم يكونا متصويرين عليه ، بل كانا قد تجاوزاه إلى غيره من الشعراء وأعلام هذا العصر ؛ فتبعت هذا الرأى ، وجعلت أدرسه وأمتحنه ، وجعلت كلما أمعنت فى هذا الدرس والامتحان ، ازددت إيماناً بهذا الرأى ، واطمئناناً إليه . ثم انتقلت منه إلى رأى آخر أوسع منه وأشمل ، فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك ، والمشغوفين بالجد ، إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة ، والعادات الموروثة ، والدين أيضاً .

رأيت هذا الرأى ، وذهبت أثبته بالأدلة المختلفة ، والحجج المتباينة ، فى أثناء بحثى عن أبى نواس ، ولكنى لا أكتفى الآن بإثبات هذا الرأى ، ولا بأن أقيم عليه الأدلة النظرية أستمدها مرة من انتقال العرب من حال إلى حال ، ومرة من اختلاطهم بالأمة الفارسية ، ومرة من طبيعة الحضارة والترف ، ومرة من ظهور العلم ، ونقل الفلسفة ، لا أكتفى بهذا كله ، وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد ، فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعاتهم ، يحبونهم ويميلون إليهم ، ويتفكحون بما يوصفون به من ظرف ، وما يروى عنهم من هزل ومجون ، وإذا كان هؤلاء الشعراء

وأصحابهم من حرية الرأي ، ومن الإسراف في حب اللذة ، والتهاكك عليها ،
 سرّاً وجهراً ، بهذا الحد الذي بينته وسأبينه في هذه الفصول ، وإذا كان الناس
 بهم معجبين ، وعندهم راضين ، أقول إذا كان الأمر على هذا النحو ،
 فليس عندي شك في أن هذا العصر الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء
 الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته ، وإنما
 كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار باللذات ، ولم لا يكون
 كذلك وقد اجتمع للمسلمين فيه شيثان ، كلاهما خطرٌ على حياة السداجة
 والقناعة : أحدهما العقل ، أريد العقل الفلسفي ، الذي يتدخل في كل شيء
 بالنقد والتحليل ، وبالنتي والإثبات ، ولا يريد أن يقف من ذلك عند حد ،
 وإنما يريد إذا بدأ البحث أن يستقصيه ، وهو في أثناء هذا البحث وهذا الاستقصاء
 يهدم ما يعرض في طريقه من آثار الوراثة ، والآخر الحضارة وما تستتبعه من
 من نَعَمه ولذة وترف ، كلتا هاتين الظاهرتين شديدة الخطر على كل قديم ؛
 فأما الفلسفي فـ"قَمِعُوك" يهدم القديم في الحياة المادية على اختلاف فروعها .
 ومن زعم أن العرب لم يتأثروا في القرن الثاني للهجرة بهذين المؤثرين الخطيرين ، فهو
 مسرف كل الإسراف ، بعيد عن الحق كل البعد .

ليس غريباً إذن أن يظهر في هذا العصر الوليد بن يزيد ، ومطيع ابن
 إلياس ، ويحيى بن زياد ، وحامد عَجْرَد ، وابن المقفع ، ووالبة بن الحُباب ،
 وغيرهم من الذين عاصروهم وشاركوهم في شكهم ومجونهم ، وفي لُهوهم وعبثهم ،
 ليس غريباً أن يظهر هؤلاء الناس في ذلك العصر ، وإنما الغريب أن يخلو
 منهم ذلك العصر ، ولا يظهر فيه إلا الفقهاء والنسك وأصحاب الزهد
 والتسقي .

نحن إذاً مضطرون إلى أن نأخذ هذا العصر كما هو ، وإلى أن نصطنع
 من الشجاعة ما يمكننا من أن ننظر إليه في جملته وفي تفصيله ، لا مشفقين
 ولا مترددين ، ولا كالنعامة التي يأتيها الخطر ، فتخفي رأسها كي لا تراه ، ويخيل
 إليها أن ذلك يؤمنها من هذا الخطر . فهما ننكر ظهور الشك والحجون
 وأصحابهما في هذا العصر ، وتغلب هذا الشك والحجون على نفوس المستنيرين
 من أهله ، فلن يمنع ذلك أن يكون هذا العصر كما قلت عَصراً ظهر فيه الشك
 والحجون ، واستأثرا بقول الكثرة المستتيرة من أهله ، حتى بعض الفقهاء

وأصحاب الكلام . سيقولون : وما ينفعنا أن نعلم بأن هذا العصر قد كان عصر شك أو عصر يقين ؟ وما يضرنا أن نجعل ذلك ؟ ولست أرى على ذلك جواباً معقولاً ، وأى جواب معقول تستطيع أن توجهه إلى من يسألك ما نفع العلم ! وما ضرر الجهل ! وما فائدة الصواب ! وما مضرة الخطأ ! سيقولون : ولكنك سبي الاختيار ، ردىء الذوق ؛ فما أنت وأصحاب الشك والخبون تحدثنا عنهم في شهر الصوم ، وتروى لنا شكهم ومجونهم وتصرفهم في ألوان الهزل ؟ وهلا أجملت ذلك حتى يفرغ الناس من صومهم ! وهلا اكتفيت في هذه الأيام التي ينصرف فيها الناس إلى الطاعة والتقوى بالتحدث إليهم في أخبار الزهاد والناسكين ، وفي مناقب الوعاظ والصالحين ! نعم ! سيقولون هذا . ومن يدري ! لعلي إنما تخيرت هؤلاء الظرفاء وأحاديثهم لأرفه على هؤلاء الصائمين ، وأخفف عنهم من ألم الصوم قليلاً ، وأى إثم في ذلك ! وأى جناح فيه ! .

زعموا أن ناساً سألوا ابن عباس عن إنشاد الشعر ، أينقض الوضوء ؟ فأنشد ابن عباس شعراً لا أستطيع أن أرويه ، ثم نهض فصلى . وزعموا أن ناساً سألوا عن شيء كهذا أحداً الفقهاء المحدثين ، وأحسبه سعيد بن المسيب - فأنشد :

أُنِدِّتُ أَنْ فَتَاةً كُنْتُ أُحْطِبُهَا عُرْقُوبِهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

لم يتحرج ابن عباس ، ولم يتحرج ابن المسيب ، ولم يتحرج غيرهما من الفقهاء وأعلام الدين من رواية الشعر وفنونه المختلفة ، جدها وهزلها . فما لنا نتحرج الآن ! أليس هذا التحرج نفسه مظهراً من مظاهر الضعف ، ولين العقيدة ، واضطراب اليقين ! إن المؤمن حقاً ، المتدين حقاً ، المخلص في نسكه وعبادته ، لا يخشى على إيمانه ، ولا على دينه ، ولا على زهده وعبادته شعر مطيع وأصحاب مطيع ، وإنما يخشى هذا الشعر من يحسن نفسه الضعف ، ويريد أن يتقيه ، ويتجنب أسبابه والمغريات به . وإذا أحس الرجل من نفسه ضعفاً في مثل هذه الأشياء ، فارو له ما شئت من شعر ، أو اكفف عن رواية هذا الشعر له ؛ فما أنت بنافعه ولا ضاره .

على أنى قلت إنا نبحث بحثاً علمياً ، لا نريد به أن نرضى الناس

ولا أن نسلى عنهم ، وإنما نريد أن نفيد ، وأن نستفيد . وأرى أنى قد أسرفت في هذه المقدمة إن كان يمكن أن تسمى هذه مقدمة ، ولم أتحدث إليك بعد في مطيع ؛ ومع ذلك فهو خليق بأن أتحدث إليك فيه ، وأن أطيل الحديث .

كنت أذكر لك في الحديث الماضي صدق الوليد بن يزيد ، وخفة روحه في الشعر ، وأين يقع الوليد بن يزيد من مطيع بن إلياس ، إذا أردنا أن نذكر صدق اللهجة ، وخفة الروح ، وحلاوة الدعابة ، وجمال اللفظ ! الفرق بين الشاعرين عظيم . وربما كان من العسير جداً أن تجد شاعراً مجيداً أو غير مجيد ، يبلغ ما بلغه مطيع من صدق اللهجة ، وخفة الروح ، حتى أبو نواس وأنت تعلم رأيي في أبي نواس . نعم ! مطيع ابن إلياس أصدق لهجة من أبي نواس ومن الوليد ، وأخف روحاً منهما ، وتفسير ذلك يسير ؛ فقد كان الوليد كما عرفت مضطهداً أيام ولايته للعهد ، كثير الخصوم أيام خلافته ، فكان في لوه ومجونه في هذين العصرين يشعر بالاضطهاد والخصومة ، ويريد أن يتحدى المضطهدين والخصوم ؛ فكان ذلك ربما دفعه إلى شيء من الإسراف في القول ، والإمعان في التحدى ، وتجاوز طبيعته أحياناً ، ليغيظ خصومه ومضطهديه . وكان أبو نواس شاعراً مجيداً ، ومستأثراً في عصره بالإجادة المطردة ، وكان قد اتخذ الحجون مذهباً ، وكان قد أعلن ذلك ، وأسرف فيه ، وكان له حساد وخصوم ومضطهدون ، فكان كالوليد ، يتحدى هؤلاء الحساد والخصوم ، ويسرف في القول إسرافاً متعمداً ، يريد أن يغيظ الفقهاء والمتكلمين ، ويهزل ويسف في اللفظ ، يريد أن يغيظ النحاة واللغويين ، ولم يكن يخشى إلا الخلفاء ، أو قل لم يكن يخشى من الخلفاء إلا الرشيد ، فكان يحتاط أمام الرشيد .

بينما الوليد يسرف في القول ، ليتحدى خصومه السياسيين ، وبينما كان أبو نواس يسرف في القول ليتحدى خصومه العلماء والأدباء ، كان مطيع لا يسرف في القول ، لأنه لم يكن مضطهداً ولا معرّضاً لخطر .

ستقول : وكيف أمن مطيع هذا الاضطهاد ؟ وكيف برىء من التعرض للخطر مع أنه كان ظريفاً ماجناً ، ملحاً في الفسق ، متهماً في دينه ، يوصف بالزندقة ؟ .

فأقول : بل كان مطيعاً شراً من هذا أيضاً في النصف الثاني من حياته ؛ فتد كانت بينه وبين الأمويين صلة : مدح الغمر بن يزيد ابن عبد الملك ، ونام الوليد بن يزيد ، ومدح أبوه والياً من ولاية بني أمية ، ومدح هو رجلاً من ولد خالد القسري ، وكثيراً ما كان يذكر بالخير أيام بني أمية ، ويكره أيام بني العباس ؛ فكان من المعقول جداً أن يرَاعَ من الوجهة السياسية ، كما كما من المعقول جداً أن يرَاعَ من الوجهة الدينية ، ولكنه مع ذلك لم يرَاعَ إلا مرة أو مرتين ، خرج منهما آمناً مسروراً ، موفور الحظ من العطاء أيضاً . تريد أن تفهم هذا ، وأنا أيضاً أريد أن أفهمه ، وأعتقد أن تعليل هذا سيصور لك مطيعاً وشخصيته ورأيه في الحياة والناس أحسن تصوير وأصدق ، كان مطيع يزدرى الناس ، وكان يزدرى الحياة . وكان يسخر من هذه ، كما كان يسخر من هؤلاء ، وكان يتخذ هذه وهؤلاء وسيلة إلى اللذة ، وإلى اللذة التي لا حد لها ؛ فكان يتلون مع هؤلاء الناس بألوانهم ، وكان يتقلب مع الحياة في صورها المختلفة ، كان أمورياً أيام بني أمية ، لم يكره حين مثَّل بين يدي الوليد ، فسأله عن شعر أعجب به لمن هو ؟ لم يكره أن يجيب : « عبدك أنا قائله يا أمير المؤمنين » . قالوا : فاستدناه الوليد ، وقبل فاه وبين عينين ، وهوى هو ، فقبَّل الأرض بين يديه . وكان عباسياً حين ثبتَّ الله الملك لبني العباس ، ولم يكن عباسياً معتدلاً ولا هادئاً ، بل قل لم يكن عباسياً متطرفاً ، لأنه لم يكن مقتنعاً بشيء ، وإنما كان يريد أن يعيش ويلذ ، وكان يجد الحياة واللذة عند بني العباس ، ولم يكن بنو العباس يزنون عنده شيئاً إلا هذه الحياة وهذه اللذة ؛ فما الذي كان يمنعه أن يتملق بني العباس ! وهو لم يكن يتملقهم كما يفعل الذليل الخانع ، وإنما كان يتملقهم ساخراً منهم ، مزدرياً لهم ، بل كان يسخر ممن هو أجل منهم خطراً . قالوا : أراد المنصور أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي ، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك ؛ فدعا الناس ذات يوم فاجتمعوا ، وتكلم الخطباء والشعراء ، كلهم يمدح المهدي ، ويبين فضله ، حتى إذا فرغوا أقبل مطيع على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثني فلان عن فلان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المهدي منا محمد بن عبد الله ، وأمه من حمير ، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً : وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك ،

ثم أقبل على العباس ، فقال له : أنشدك الله ! هل سمعت هذا ؟ فقال :
نعم ، مخافةً من المنصور ، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدى . أفترى
إليه أحسن شهوة المنصور في أن يبائع لابنه المهدي ، وعزمه على ذلك ، فأراد
أن يرضى المنصور وولي عهده ، فوضع هذا الحديث وضعاً ، ولم يكتب
بالكذب على النبي ، حتى استشهد أخا المنصور على أنه صادق ، فشهد
خوفاً من أخيه . ولا تقل إنه فعل هذا ذلةً أو إسرافاً في التملق ، ولكن قل
إنه فعل هذا ترضياً للخليفة وولي العهد ، وازدراءً لها ، وخرية من الدين ،
وقد عرف المهدي له هذه الصنعة ؛ فأنت تعلم أن المهدي كان شديداً على
الزنادقة ، أسرف في قتلهم والفتك بهم ، وتجاوز في ذلك حدود العدل والرحمة ،
وهو مع ذلك لم برع مطيعاً . بلى ! راعه مرة ، ولكنه أخرجه من عنده موفوراً
له الحظ من العطاء ؛ قالوا : كان مطيع ينادم جعفر بن المنصور ، واشتهر
ذلك ، واشتهر مجون جعفر وتهتكه ، ورفع أصحاب الخبر ذلك إلى المنصور ،
وكان المهدي عنده ، فقال لأبيه : أنا به عارف ، ليس زنديقاً ، ولكنه خبيث
الدين فاسق ، فقال له المنصور : أحضره فإنه ، فأحضره المهدي ، ولامه
وعنفه ، وأمر أن يضرب مثنى سوط ، قال مطيع : إن أذنت لي احتججت ،
فأذن له ؛ فقال أنا شاعر ، وإنما ينفق شعري عند الملوك ، وقد كسدت
عندكم ، واكتفيت بأن آكل على مائدة أخيك ، وأصفيته على ذلك شعري
وشكري ، فإن رأيت أن في ذلك سوءاً تبت عنه ، ومضى الحديث على نحو
ذلك ، حتى رق المهدي ، فأمر أن يطلق ولا يضرب ولا يجبس . قال :
فأنصرف بغير جائزة ؟ قال المهدي : لا يجوز هذا ، وأمر له بمئتي دينار ،
خفية عن أمير المؤمنين . قال الرواة : وكان المهدي يحفظ له أنه وضع الحديث
يوم أراد المنصور البيعة له .

أعتقد أنا أن هاتين القصيدتين تصوران شخصية هذا الرجل تصويراً
صحيحاً ، فيخيل إلى أن عقله كان قد فرغ من كل شيء ، وانتهى إلى السخرية
والازدراء للناس وللحياة ، واتخاذ الناس والحياة وسيلة إلى الشيء الوحيد الذي
يستحق أن يعيش الناس من أجله ، وهو اللذة ؛ ومن هنا تملق المنصور ، في
سخرية من المنصور وابنه وأخيه والدين أيضاً ، ومن هنا تल्प للمهدي ، حتى
ابتز منه جائزة . وخرج من عنده موفوراً . أضف إلى هذا أن مطيعاً اتصل

أيام العباسيين بجعفر بن المنصور فنادمه ، وكان محتماً به ، فلم يمسه أذى . كل هذا يبين لك ما زعمته آنفاً من أن مطيعاً لم يكن مضطهداً ، لا من الوجهة السياسية ، ولا من الوجهة الدينية ، وإنما كان يستطيع أن يحتاط لنفسه في ذلك احتياطاً يسيراً ، فيأمن كل شر . ولقد كثر تحدثت الناس في عصر مطيع وبعده عن زندقة مطيع وأصحابه ، وعن إفسادهم أخلاق الناس وأديانهم . ولست أنكر هذا على نحو ما أنكرت ما كان ينسب إلى الوليد ابن يزيد ؛ فقد بينت أن حياة الوليد كلها كانت تدعو إلى الاحتياط في تصديق ما كان ينسب إليه ، أما مطيع وأصحابه فلم يكونوا خلفاء ، ولم يكونوا ولاة عهد ، ولم يكونوا محسودين إلى حد عظيم ؛ وإذن فلم يتكلف الناس الكذب عليهم ، أو لم يسرفوا في هذا التكلف . وما أشك في أن حياة هؤلاء النفر الذين كانوا يؤلفون جماعة قوية الاتصال ، ما أشك في أن حياتهم كانت تدعو إلى الريب والاتهام ، فكثيراً ما كانوا يعلنون الفسق ولا يخفونه ، وكثيراً ما كانت تجري على ألسنتهم ألفاظ ينكرها الدين ، وينكرها الخلق ، ولكني مع ذلك أعتقد أن شيئاً من الاحتياط واجب في تصديق كل ما ينسب إلى مطيع وأصحابه ، فالناس مشغوفون بالإسراف أبداً ، لا يكاد يتهم لهم رجل بالزندقة أو الإلحاد ، حتى يتطوعوا هم بإثبات زندقته وإلحاده ، يخترعون على ذلك الأدلة ، وينتحلون الحجج ، ويروون الوقائع ، يزعمون أنهم رأوها وما رأوها ، وإنما يخدعون الناس ، أو يخدعون أنفسهم . وهذا الإسراف كثير في شأن مطيع وأصحابه ، ولكني لا أنكر المثل القائل : « لا دخان بلا نار » . فلولا أن حياة هؤلاء الناس كانت تدعو إلى القال والقيل ، لما قال فيهم الناس شيئاً .

قلت : كان مطيع صادق اللهجة في شعره ، لا يكذب ولا يتكلف ، وعلت صدق لهجته بأنه كان حر الرأي ، وقد كان حر الرأي ، لأنه كان يزدري الناس والحياة ، ولست أريد أن أغفل شيئاً رواه أبو الفرج ، وهو يمثل رأى مطيع في الناس ، وهو يبين لنا مقدار ازدرائه للناس ، وسوء ظنه بهم . زعموا أنه مر بصديقيه يحيى بن زياد ، وهما عجرد وهما يتحدثان ، فقال : فيم أننا ؟ قال : في قذف المحصنات . قال : وهل في الأرض محصنة تقذفانها ! فانظر إليه كيف فاق صاحبيه بغيّاً وسوء ظن بالناس ! كان صاحبه يقذفان

المحصنات ، ويعترفان بأنهما يقذفان المحصنات ، أما هو فلا يرى أن في الأرض
محصنة ؛ وإذن فليس هناك قذف ، وإنما كل قذف هو الحق ، أو دون
الحق . وإذا وصل الرجل من ازدراء الناس وسوء الظن بهم إلى هذا الحد ،
فما الذي يمنعه أن يكون حرّاً فيما يعمل وما يقول ، لا يتقى إلا شيئاً واحداً ،
هو ما يعرضه للموت ، أو للحرمان ! وإذا كان قد احتاط فأرضى السلطان ،
وأمن شره ، فليس عليه بأس في شيء آخر . على أن ازدراء مطيع للناس
لم يكن شاملاً ؛ فقد كان يستثنى من هؤلاء الناس أصدقاءه وأصحابه
وأخذانه . ومن أشد الأشياء تأثيراً في النفس هذه الصلة المتينة ، التي كانت
بينه وبين صديقه يحيى بن زياد ، والتي حرص عليها حرصاً شديداً ، يستشير
في النفس عاطفة مؤثرة حقاً . قالوا : شرب مطيع مع صديقه يحيى ، فغربد
عليه ، وكانت بينهما ملاحاة ، فأذى مطيع صاحبه ؛ فحلف لا يكلمه أبداً .
ولم يستطيع مطيع أن يصير على هذا الهجر ، فكتب إلى صديقه هذه الأبيات
العذبة، التي تفيض حناناً ورقة، والتي لا تخلو من شرف اللفظ، وجمال الأسلوب:

إِنْ تَصِلْنِي فَمِثْلَكَ الْيَوْمَ يُرْجَى
وَلَيْنَ كُنْتَ قَدْ هَمَمْتَ بِهَجْرِي
وَأَحَقُّ الرَّجَالِ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْبَ
لِلَّذِي قَدْ فَعَلْتُ إِنِّي لِأَهْلُهُ
الْكَرِيمِ الَّذِي لَهُ الْحَسَبُ الثَّابِتُ
فِي قَوْمِهِ وَمَنْ طَابَ أَصْلُهُ
وَلَيْنَ كُنْتَ لَا تُصَاحِبُ إِلَّا
صَاحِبًا لَا تَزِلُّ مَا عَاشَ نَعْلُهُ
لَمْ تَجِدْهُ وَإِنْ جَهَدْتَ وَإِنِّي
لِلَّذِي لَا يَكَادُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ
بِ وَتَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ
الَّذِي يَحْفَظُ الْقَدِيمَ مِنَ الْعَهْدِ
لِدِرِّ وَإِنْ زَلَّ صَاحِبٌ قَلَّ عَدْلُهُ
وَرَعَى مَا مَضَى مِنَ الْعَهْدِ مِنْهُ
حِينَ يُؤْذِي مِنَ الْجَهَالَةِ جَهْلُهُ
لَيْسَ مَنْ يُظْهِرُ الْمَوَدَّةَ إِفْكَارًا
وَإِذَا قَالَ خَالَفَ الْقَوْلَ فِعْلُهُ
وَصَلُّهُ لِلصَّدِيقِ يَوْمٌ فَإِنْ طَابَ
لَ فَيَوْمَانِ ثُمَّ يَنْبَتُ حَبْلُهُ

وكتب إليه :

كُنْتُ وَيَحْيَى كَيْدَى وَاحِدٍ
 إِنْ عَضَّيْنِي الدَّهْرُ فَقَدْ عَضَّهُ
 أَوْ نَامَ نَامَتُ أَعْيُنُ أَرْبَعٍ
 يَسْرُفِي الدَّهْرُ إِذَا سَرَّهُ
 حَتَّى إِذَا مَا الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِي
 سَعَى وَشَاةٌ فَمَشُوا بَيْنَنَا
 فَلَمْ أَلَمْ يَحْيَى عَلَى فِعْلِهِ
 لَكِنْ أَعْدَاءَ لَنَا لَمْ يَكُنْ
 بَيْنَنَا كَذَا عَاثَ عَلَى غِرَّةٍ
 فَلَمْ يَزَلْ يُوقِدُهَا دَائِبًا

وانظر إلى هذا الشعر يرثى به يحيى هذا :

قَدْ مَضَى يَحْيَى وَغُودِرَتْ فَرْدًا
 وَأَرَى عَيْنِي مُذْ غَابَ يَحْيَى
 وَسَدَّتْهُ السَّكْفُ مِنِّي تَرَابًا
 بَيْنَ جِيرَانٍ أَقَامُوا صُوتًا
 أَيُّهَا الْمَزْنُ الَّذِي جَادَ حَتَّى
 اسْتَقَى قَبْرًا فِيهِ يَحْيَى فَإِنِّي
 نَصَبَ مَا سَرَّ عِيُونَ الْأَعَادِي
 بَدَّاتَ مِنْ نَوْمِهَا بِالشَّهَادِ
 وَلَقَدْ أَرْنِي لَهُ مِنْ وَسَادِ
 لَا يُجِيرُونَ جَوَابَ الْمُنَادِي
 أَعْشَبَتْ مِنْهُ مُتُونُ الْبَوَادِي
 لَكَ بِالشُّكْرِ مُوَافٍ مُغَادِي

كان يحيى صديقاً لطيفاً في الخير والشر صديقاً حقاً ، وكان لطيف صديق
 آخر ، ولكن صداقتهما كانت على غير هذا النحو ، كانت صداقة ضاحكة ،
 صداقة مزاح وهو بخيرية ، ذلك هو حماد عجرد . فسرى يوم نعرض لهذا
 الشاعر أنه كان غصبياً ضيق الذرع ، وكان أصحابه يعرفون منه ذلك ، فلا

يرقون لهُ ، ولا يرفقون به . وكان حماد أصلع ، وكانت صلغته شديدة الحمرة ؛ فانتَهز ذلك صديقه مطيع ، وأفسدما بينه وبين صاحبة له تسمى خشية ، وتُعرَف بظبية الوادى ؛ فسَاءت الحال لذلك بينه وبين صاحبه ، واتصل بينهما هجاء لذاع ، ولكنه لذيذ ، لم يمنع اتصال المودة بينهما ، ولست أروى لك منه شيئاً ، وقد تستطيع أن تجده فى الأغانى .

وأنا مضطر إلى أن أعدل عن شعر مطيع كله ، لضيق المكان ، وطول هذا الفصل ، ولكنى لا أستطيع أن أغفل هذه الأبيات المشهورة ، التى تمثل شعر مطيع ونفسه وعواطفه تمثيلاً صادقاً ، أحسه القدماء ، فرقوا له ، وكلفوا به ، وقد قال هذه الأبيات فى جارة له أحبها بالرى ، ثم اضطُرَّ ففارقها ، فلما كان فى طريقه مر بعقبة حلوان ، فجلس يستريح إلى نخلتين هناك ، وذكر صاحبه ، فقال :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانِ وَابْكِيَا لِي مِنْ رَبِّبِ هَذَا الزَّمَانِ
وَاعْلَمَا أَنَّ رَبِّيهِ لَمْ يَزَلْ يَفْرُقُ بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْحَيْرَانِ
وَلَعَمْرِي لَوْ ذُقْتُمَا أَلَمَ الْفُرِّ قَدَّ أَبْكَا كَمَا الَّذِي أَبْكَانِي
أَسْعِدَانِي وَأَيُّنَا أَنْ نَحْسَا سَوْفَ يَبْلَقَا كَمَا فَتَفْتَرِقَانِ
كَمْ رَمْتَنِي صُرُوفُ هَذِي اللَّيَالِي يَفْرَاقِي الْأَحْبَابِ وَالْخِلَّانِ
غَيْرَ أَنِّي لَمْ تَلَقَ نَفْسِي كَمَا لَا قَيْتُ مِنْ فُرْقَةِ ابْنَةِ الدَّهْقَانِ
جَارَةٌ لِي بِالرَّيِّ تَذْهَبُ هَمِّي وَتُسَلِّي ذُنُوبَهَا أَحْزَانِي
فَجَعَمَتْنِي الْأَيَّامُ أَغْبَطَ مَا كُنْتُ تُصَدِّعُ لِلْبَيْنِ غَيْرَ مُدَانِي
وَبِرَعْمِي أَنْ أَصْبَحْتَ لَا تَرَاهَا إِلَّا عَيْنُ مَنِّي وَأَصْبَحْتَ لَا تَرَانِي
إِنْ تَكُنْ وَدَعْتَ فَقَدْ تَرَكْتِ بِي لَهَبًا فِي الضَّمِيرِ لَيْسَ بِوَانِي
كَحَرِّيقِ الضَّرَامِ فِي قَصَبِ الْغَا بِ رَمْتُهُ رِيحَانِ تَخْتَلِفَانِ

وقد جعلت هذه الأبيات لنخلى حلوان تاريخاً وذكرى بين الأدباء والشعراء . قالوا : أراد المنصور أن يقطعهما ؛ فلما أنشد هذا الشعر كره أن

يكون النحاس الذي يفرق بينهما . وأراد المهدي أن يقطعهما ، فهنا المنصور عن ذلك . قالوا : ومر الرشيد بحلوان وهو ذاهب إلى طوس ، فهاج به الدم ، ووصف له الطبيب جُمَّاراً ، فلما سئل الدهقان أشار إلى النخلتين ، ولم يكن في حلوان غيرهما ، فقطعت إحداهما ، ثم مر الرشيد بالأخرى ، فرأى عليها هذه الأبيات ، فندم وقال : لو علمت أن هذه الأبيات قيلت في هاتين النخلتين ما عرضت لهما ، ولو قتلتني الدم .

وإذا صح ما تحدثت به الرواة ، فقد كان موت مطيع شعراً لا يعد له شعر . قالوا : سأله الطبيب في علته التي مات فيها : ماذا تشتهي اليوم ؟ فأجاب أشتهدى ألا أموت . أترى جواباً أكثر شعراً ، وأغزر معنى ، وأشد تمثيلاً لضعف الإنسان ، وقوة رغبته في الحياة ، من هذا الجواب ؟ ولئن أردنا أن نحكم على مطيع حكماً جامعاً مختصراً بعد هذا التفصيل ، لما تجاوزنا حكم أبي الفرج عليه حيث يقول :

« هو شاعر من مُحَضَّرِمِي الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء ، ولكنه كان ظريفاً ، خليعاً ، حلو العشرة ، مليح النادرة ، ماجناً ، متهماً في دينه بالزندقة » . ولو شئنا أن نضيف إلى هذا الحكم شيئاً ، لقلنا إنه كان صادقاً في شعره ، آخذاً بحظه الموفور من هذه الأوصاف كلها .

حماد عجرد^(١)

« كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمّادون : حماد عجرد ، وحمادُ الرواية ، وحماد بن الزبيرقان ، يتنادمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يُرْمَوْنَ بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عَجْرَد . » الأغانى جزء ٥ صفحة ١٦٦ طبع بُلّاق .

وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتاب الأغانى ، تجده إذا عرض أبو الفرج لمطبيع بن إياس ، وتجده إذا عرض لغير مطيع بن إياس ، وتجد مثل هذا الكلام كثيراً في كتب أخرى غير الأغانى ، لكتّاب ورواة آخرين غير أبي الفرج ، إذا عرضوا لواحد من هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين عاشوا في النصف الأول للقرن الثاني من الهجرة ، وتجد في الأغانى وغير الأغانى كلاماً كثيراً عن شعراء عابثين في المدن الثلاث ، التي كانت أمصاراً متقدمة للعالم الإسلامى أيام بنى العباس ، وهى الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية : لا تكاد تجد شيئاً من ذلك عن دمشق ، ولا عن مِصْر ، فإن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة ، وللعيبث والعبثين آخر أيام بنى أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العيبث والمجون ، إنما حُمِلَتْ كلها من العراق إلى الشام ، بأمر الوليد بن يزيد ، أو غير الوليد بن يزيد من مُجَنَّ بنى أمية .

الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية . نعم ! إنك تجد في الأغانى وغير الأغانى أن الوليد بن عبث ومُجَنَّ ، وأراد أن يتخذ لنفسه حاشية وتدأى من العابثين وأهل المجون ، فالتمسهم في الشام ، فلم يجدهم ، وسأل عنهم ، فدله الناس على قوم في العراق ، دلّوه على هذين « الحمّادين » حماد عجرد ، وحماد الرواية ، ودلوه على مطيع بن إياس ، وكانوا في الكوفة ، فأرسل يطلب

(١) نشرت بالسياسة في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ - ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

إشخاصهم إليه ، فأشخصوا ، فاتخذهم ندامى له حتى قُتِل ، فعادوا إلى أوطانهم . وتجد في كتب الأدب كلها أو أكثرها ذكراً لطائفة من العابثين وأهل المحون المسرفين فيه ، ظهروا أيام بني أمية ، وأيام كان بنو أمية حازمين منصرفين إلى الجدل ، ظهروا في الحجاز ، في مكة وفي المدينة بنوع خاص . ولكنك إذا بحثت عن مجون هؤلاء ، وعن أصل ما كانوا يظهرون من عبث ، ويُسْتَهْمون به في دينهم وسيرتهم ، انتهيت إلى نتيجتين نجمتهما الآن ، وتفصلهما يوم نعرض للعبثيين من أهل الحجاز . الأولى : أن مصدر هذا العبث عراقي ، دعا إليه الموالي الرقيق ، من الفرس وأهل العراق . والأخرى : أن لهذا العبث صبغة عربية ، تميزه من عبث الكوفة والبصرة وبغداد ؛ لأن زعماء العابثين في المدينتين المقدستين كانوا من أشرف العرب الذين اضطرتهم الحياة السياسية أيام بني أمية إلى أن ينصرفوا عن السياسة وأمور الدولة ، ففرغوا لأنفسهم ، وكان الله قد أفاء على آبائهم كثيراً من الغنى والثروة الضخمة أيام الفتح ، وكان الخلفاء من بني أمية يعرفون لهم أقدارهم ، ويمسكونهم في هاتين المدينتين ، بعيدين عن السياسة ، لا يقطعون عنهم الأرزاق والجوائز ، وإنما يدرؤونها عليهم إداراً ، فكانوا يَلْهُون ويعبثون ، ويستمتعون بهذه الحياة الفارغة ، مستعينين مع ذلك كله بالرقيق والموالي ، من الفرس وأهل العراق .

مهما تبحث إذن عن أصل العبث والمحون والزنادقة في الإسلام ، فلن تستطيع أن تعدوا الفرس ، وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس ، وكانوا بهم أشد اتصالاً ، وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زنادقة هؤلاء الزنادقة ، وإياحة هؤلاء الشعراء ، ولكن هذا التأثير عرضي لا جوهرى ، إن صح هذا التعبير . فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم ، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية ، ولم تتأثر بها حياتهم وعواطفهم تأثراً قويا . على أن زعماء هؤلاء العابثين والزنادقة لم يبلغوا العصر الذى أزهرت فيه الفلسفة اليونانية في بغداد وغيرها من أمصار المسلمين ؛ فلم يشهد هذا العصر مطيع ولا الحمادون ولا بشار ولا يحيى بن زياد ؛ فإن أيام هؤلاء قبل عصر المأمون ، وقبل أن يصبح البيدع في بغداد ترجمة الكتب اليونانية ، دروس الفلسفة اليونانية . ولو

أنى أردت أن أشخص زندقة القرن الثاني للهجرة تشخيصاً ، إن لم يكن علمياً
 دقيقاً فهو يقربها من الأذهان تقريباً لا بأس به - أقول : لو أنى أردت أن
 أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبياً ، لقلت : إنها ضرب من السخط على
 العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هي ضرب من
 هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ،
 وما ذاع فيهم من عقيدة دينية . وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين لم يكونوا
 يكرهون الإسلام ليستبدلوا منه ديناً آخر يؤمنون به ، ويطمثون إليه حقاً ،
 وإنما كانوا يكرهون الإسلام ، وكان كرههم للإسلام يضطرهم إلى أن يحبوا
 غيره من العقائد الدينية ؛ فهم كانوا يتخذون هذه العقائد وسيلة إلى الدّعى
 على الإسلام ، والتخلص من قيوده ، وما أخذ الناس به من واجبات .
 لم يكونوا يؤثرون على الإسلام النصرانية ولا اليهودية ؛ لأن الفرس لم
 يكونوا نصارى ، ولم يكونوا من اليهود ، ثم لم يكونوا يؤثرون على الإسلام
 الديانة الفارسية القديمة ، الخالصة من بدع المبتدعين ، وإنما كانوا يؤثرون
 من هذه العقائد الفارسية ضروراً من البدع ، تدعو إلى الإباحة واللذة ،
 وترغب فيهما ، وتعين عليهما ، كانوا إذن يطمحون قبل كل شيء إلى أن
 يستمتعوا باللذات في غير حساب ولا تقدير . ولولا هذا الميل إلى اللذة ونعيم
 الحياة ، لما أنكروا من الإسلام شيئاً ، ولا سبوا هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون
 بالسياسة ، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية ، ولا يريدون أن يتأورا للفرس
 من العرب ، ولكن الإسلام كغيره من الديانات السماوية شديد في باب
 اللذة ، حريص على تطهير الأخلاق ، وأخذ الناس بالطهر والنقاء ، في
 سيرتهم الخاصة والعامة ؛ وهذا يناقض الإباحة والإسراف في اللذة ، ويأخذ
 عليهما الطريق . فإذا استطاع محب اللذة والمسرف فيها أن يخرج عن أصول
 الإسلام ، فيستمتع بلذته في غير حرج ولا جناح ، فهو مضطر بحكم الطبيعة
 الإنسانية إلى أن يدفع عن مسلكه ، ويلتمس الحجج والأدلة ، أو التعلات
 والمعاذير ، يحسن بها سيرته ، وقد فعل ذلك هؤلاء العابثون ، فوجدوا ما كانوا
 يحتاجون إليه في حياة الفرس ، وما شاع فيهم من البدع ، واستحالوا إلى شيء
 آخر أكثر من نصر اللذة ، هو التعصب على الإسلام ، وعلى كل دين
 من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات . ومن

هنا هاجموا أصول الديانات وسخروا منها . ومن هنا آثروا النار التي يعبدها
الفرس ويردون إليها كل شيء ، على الطين الذي ترد إليه الديانات السامية
أصل الإنسان والحيوان ، ومن هنا آثروا التثنية الفارسية على التوحيد السامي ،
وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بثلاث ، وإنما يحفلون
بالذات ، فهم يؤثرون التثنية لهذا أيضاً . ولهم من الحياة السياسية في ذلك
العصر معين على الإسراف في الإلحاد والعبث ؛ فهو عصر انتصار الفرس
على العرب ، وهو عصر كان الخلفاء فيه من العرب الهاشميين ، يعترفون
بالفرس ، ويتملقونهم ، ويؤثرونهم بالخضوة ، ويكلمون إليهم أمور الدولة كلها .
فما الذي يمنع الفارسية وأنصارها ، الذين يتخذونها وسيلة إلى اللذة والإسراف
في المحون ، أن تنتصر وتسود ، وتظهر جبهة غير مستخفية ولا محتاطة ! من
هذا كله نفهم مميزات هذه الزنادقة الأدبية ، التي ظهرت في القرن الثاني
للهجرة ، واستأثرت أو كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً . كانت عصر
بنى أمية ضعيفة مترددة متسرة ، لا يكاد الناس يُظهرون الميل إليها ،
فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور ، قويت واستطاعت
أن تظهر ، ثم انتصر الفرس ، فانتصرت معهم ، وظهرت واضحة قوية ،
حتى عرّضت الحياة الدينية والسياسية للخطر ؛ فاضطر الخلفاء من بني العباس
إلى أن يقاوموها مقاومة عنيفة ، لم تخل في بعض الأحيان من ظلم وإسراف .
كان حماد عجرد من زعماء هؤلاء الزنادقة ، أو هؤلاء الذين كانوا يهتمون
في دينهم ، وكانت هؤلاء الناس أنديتهم ومجالسهم ، في الكوفة والبصرة ، ثم
في بغداد ، ولم تكن هذه الأندية مستقرة ولا معروفة ، وإنما كانت متنقلة
مع الزعماء . فهم كانوا يجتمعون في دورهم ، وهم كانوا يجتمعون في الأديار ،
وهم كانوا يجتمعون في البساتين والحانات ، وعلام كانوا يجتمعون ؟ على الشراب
والغناء ، والعبث بالنساء والغلمان ، يسرفون في ذلك إسرافاً لا يعدله إسراف ،
ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية
التي تحظر عليهم ذلك ، وتعرضهم من أجله لألوان العذاب ، هل كانوا يجتمعون
على ضرب من ضروب العبادة المنكرة ، أو فن من فنون الديانات الغريبة ،
أو لون من ألوان الدرس الفلسفي غير المألوف ؟ ذلك شيء أشك فيه بالقياس
إلى الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء والأدباء ، بل أنا أجزم بأن هذه الكثرة

لم تكن تحفل بشيء من هذا ؛ لأني قد قد قلت لك إنها لم تكن مخلصه في الإيمان بمذهب من المذاهب ، ولا في إيثار دين على دين ، وإنما كانت تتخذ المانويّة شعاراً . ولو أنها أنصفت نفسها ، وآثرت الصدق ، لاتخذت شعارها الشك والسخرية ، وليس من شك في أنهم كانوا يذكرون المانوية ، ويؤثرونها على الإسلام ، ولكن تَفْكِهَةً وانتقاماً من هذا الدين ، الذي يسلط عليهم الشُّرط وغضب الأمراء .

وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم ، وإن كانت هذه الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ، وكانوا يعلمون سخط الحكومة على الزندقة أيضاً ، فكانوا يستغلون هذا السخط استغلالاً قوياً ، إذا ساءت الصلة بينهم وبين أصحابهم . وليس أدل من هذا على أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا صادقين في زندقتهم ؛ فلو أن هناك صلة دينية متينة تجمع بينهم حقاً ، وتكون منهم قبلةً ممتازة متضامنة ، لما أساء بعضهم إلى بعض ، ولما سعى بعضهم ببعض ، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان ، ولكنهم كانوا يسرفون في الإساءة إلى أنفسهم ، وإلى أصحابهم ، ويكفي أن تقر ما بين بشار وحماد من الخصومة واتصال الهجاء ، لتعلم مقدار هذا الاستعداد ، ومقدار ما كان يضمّر الزنادقة بعضهم لبعض من الموجدة والحفيظة ، ومن الحقد والضعينة ، التي كانت تحمل أحدهم على أن يغري بصاحبه إغراء منكرًا . وانظر إلى قول حماد يغري الأمير بخصمه بشار ، فهو يمثل في وقت واحد إجادة حماد في الشعر ، وميله إلى الشر ، وإيثار الانتقام على كل شيء :

قُلْ لِعَيْسَى الْأَمِيرِ عَيْسَى بْنِ عَمْرِو ذِي الْمَسَاعِي الْعِظَامِ فِي قِصْحَانِ
وَالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي طَالَ حَتَّى قَصُرَتْ دُونَهُ يَدَا كُلِّ بَانِي
يَأْبَنَ عَمْرٍو عَمْرٍو الْمَكَارِمِ وَالْتَقْوَى وَعَمْرٍو النَّدَى وَعَمْرٍو الطَّمَانِ
لَكَ جَارٌ بِالْمِصْرِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مِنْكَ حُرْمَةَ الْجِيرَانِ
لَا يُصَلِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يَقْرَأُ حَرْفًا مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
إِنَّمَا مَعْدِنُ الزَّنَاةِ مِنَ السَّفَلَةِ فِي بَيْتِهِ وَمَاوَى الزَّوَانِي

وَهُوَ خِدْنُ الصُّبْيَانِ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِينَ فَمَاذَا يَهْوَى مِنَ الصُّبْيَانِ ؟
 طَهَّرَ الْمِصْرَ مِنْهُ يَا أَيُّهَا الْمَوْءُؤَى إِلَى الْمَسَمَى بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
 وَتَقَرَّبَ بِذَلِكَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ تَفَرُّزٌ مِنْهُ قَوْزَ أَهْلِ الْجَنَانِ
 يَا بَنَ بَرْدٍ إِخْسَاءُ إِلَيْكَ ، فَمِثْلُ الْكَلْبِ فِي النَّاسِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ
 وَلَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْكَلْبِ بِ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانِ

ولم يكن بشار أقل منه ميلا إلى الشر ، ولا رغبة في الإساءة إلى خصمه ،
 وفي اتخاذ الزندقة وسيلة إلى هذه الإساءة ، ولعل أحدهما قد سرق من صاحبه
 طريقة الاستعداد هذه ، ولعلهما لم يسرقاها ، وإنما وجداها طريقة مألوفة
 بين الناس في ذلك العصر ؛ فقد أشاع بشار عن خصمه حماد هذه الشائعة
 المنكرة ، التي أساءت إليه غير قليل ، وهي أنه كان ذات يوم ينشد شعراً ،
 وإلى جانبه قارئ يتلو القرآن ، والناس مجتمعون من حوله ، فلما رأى حماد
 اجتماع الناس حول القارئ قال : علام يجتمعون ؟ إن الذي أنشده لخير مما يتلو !
 وهجا بشار حماداً بأبيات ثبت فيها عليه الزندقة ، فقال :

أَبْنُ نَهْيِ رَأْسٍ عَلَى تَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرَّهْوسِ خَطْبٌ جَلِيلٌ
 أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِثْنَيْنِ نِ فَبَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولٌ
 يَا بَنَ نَهْيِ بَرْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ هِ جِهَاراً وَذَلِكَ مِثْنِي قَلِيلٌ

قال أبو الفرج : فأشاع حماد هذه الأبيات لبشار ، وجعل فيها مكان
 (فباني بواحد مشغول) : (فباني عن واحد مشغول) ليصحح عليه الزندقة
 والكفر بالله تعالى ، فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس ، حتى انتهت
 إلى بشار ، فاضطرب منها وجزع . وهذا الخبر يمثل مكر حماد ، واحتباس
 بشار ، فقد كان حماد ماكرًا شديد المكر ، ماهراً في الخسومة ، يعرف كيف
 ينال من خصمه ، وكيف ينتصر عليه ، وكان بشار محترماً شديد الاحتباس ،
 يكره أن يوصف بالزندقة ، ويشفق من ذلك إشفاقاً شديداً ، وكان يرسل
 فضل زندقته إلى غيره ، فيتهم الناس بما فيه ، ولهذا أكثر الإكثار كله حين

هجا حماداً بوصفه بالزندقة والكفر ، وما كان حماد أكثر منه زندقة ولا كفراً ، وإنما كان الفرق بين الرجلين أن حماداً كان مستهتراً ، يجهر بمجونه ، ولا يخفى عبثه وأن بشاراً كان محتاطاً متحفظاً ، يتكلف الدين والورع ، كلما احتاج إلى ذلك . ولم يخف أمر بشار على أحد ، بل لقي من احتياظه وتحفظه ما لم يلق حماد من جهره واستهتاره ؛ فقد قتل بشار لزندقته بأمر المهدي . والرواية يختلفون كما سترى في موت حماد ، ولكنهم متفقون على أنه قضى حياته مؤقراً ، لم يجر عليه عبثه ومجونه أذى ولا شراً . وفي كتاب الأغاني خبر يثبت ذلك إثباتاً لا شك فيه ، وهو أن العلماء أجمعوا بالبصرة على أنه ليس في هجاء حماد عجز لبشار شيء جيد إلا أربعين بيتاً معدودة ، وليشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هتك صاحبه بالزندقة ، وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتك ، بفضل بلائمة بشار ، وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، وعُرف مذهبه في الزندقة ، فقتل فيه . ولعل في هذا الخبر شيئاً من المبالغة ؛ فهناك خبر آخر يدل على أن بشاراً لم ينتصر على حماد في الهجاء ، وإنما الذي انتصر هو حماد ، وإن لم يكن له من جيد الهجاء في بشار إلا أربعون بيتاً . فلسنا نرى في سيرة حماد أنه قد سقط ، أو ازدراه الناس ، وإنما نعلم أنه احتفظ بمكانته وسلطانه حتى مات . ونحن نذكر السلطان عمداً ؛ فقد كان لحماة شيء من السلطان الأدنى غير قليل ، كان يخيف الشعراء ، وكان يخيف الأمراء ، وكان يخيف كبار الناس . كان يخيفهم ؛ لأنه كان ماهراً في الهجاء ، سريعاً إليه ، حديد اللسان فيه . وكان كما قلت لك في حديث الأربعة الماضي سيء الخلق ، سريع الغضب ، مندفعاً إلى الانتقام ، وكان مع ذلك ماكراً لطيف المكر ؛ فكان الأمراء وجوه الناس محتاطون في معاملته ، ويتلطفون له ، ويبتغون ما يرضيه ، ويتجنبون ما يسوئه ، وربما اضطروا أحدهم إلى شيء فأشفق أن يكره حماد ، فاعتذر إليه ، وبالغ في الاعتذار ، وكان حماد يقبل العذر حيناً ، ويرده حيناً آخر ، وكان هو الفائز في كلتا الحالتين ؛ فإن قبل العذر كوفئ لقبوله ، وإن بولغ في ترضيه ، ولقد خاف بعض الناس حماداً ، حتى اضطروه ذلك إلى أن يقطع الصلاة . ذلك أنه كان ذات يوم عند رجل من أشرف البصرة ، في نفر من وجوه الناس ، وجاء الغداء ، فقيل إن سهم بن عبد الحميد

(أحد الحاضرين) يصلى الضحى ، فانظروا ، وأطال صاحبنا الصلاة ،
فقال حماد :

أَلَا أَيُّهَا الْقَائِمُ الْمُتَجَهِّدُ صَلَاتُكَ لِلرَّحْمَنِ أَمْ لِي تَسْجُدُ
أَمَّا وَالَّذِي نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ لَعْنٌ غَيْرَ مَا بَرَّ تَقَوْمُ وَتَقَعُدُ
فَهَلَّا اتَّقَيْتَ اللَّهَ إِذْ كُنْتَ وَالِيًّا بِصِنْعَاءَ تَبْرَى مِنْ وَلِيَّتٍ وَبَجْرُدُ
وَيَشْهَدُ لِي أَنِّي بِذَلِكَ صَادِقٌ حُرَيْثٌ وَنَجْحِي لِي بِذَلِكَ يَشْهَدُ
وَعِنْدَ أَبِي صَفْوَانَ فِيكَ شَهَادَةٌ وَبَكْرٍ وَبَكْرٍ مُسْلِمٌ مُتَجَهِّدُ
فَإِنْ قُلْتَ زِدْنِي فِي الشُّهُودِ فَإِنَّهُ سَيَشْهَدُ لِي أَيْضًا بِذَلِكَ مُحَمَّدُ

فلما سمعها سهم قطع الصلاة ، وجاء مبادراً ، فقال له : قَبَّحَكَ اللَّهُ
يا زنديق ! فعلت بي هذا كله ، لشركك في تقديم أكل وتأخيرها ! هاتوا طعامكم
فأطعموه ، لا أطمعه الله ! قالوا : ونزل حماد على محمد بن طلحة ، فأبطأ عليه بالطعام ،
فاشتمد جوعه ، فقال فيه حماد :

زُرْتُ أُمْرَأً فِي بَيْتِهِ مَرَّةً لَهُ جِبَاءٌ وَلَهُ خَيْرُ
يَكْرَهُ أَنْ يُتَخَمَ أَضْيَافُهُ إِنْ أَدَى التَّخْمَةَ مَحْدُورُ
وَيَسْتَهِي أَنْ يُوجِرُوا عِنْدَهُ بِالصَّوْمِ ، وَالصَّالِحُ مَا جُورُ

فلما سمعها محمد قال له : عليك لعنة الله ! أى شئ حملك على هجائي ،
وإنما انتظرت أن يفرغ لك من الطعام ؟ قال : الجوع وحياتك حملني عليه ،
وإن زدت في الإبطاء زدت في القول ، ففضي مبادراً حتى جاء بالمائدة .

كان حماد إذن مخوفاً حياته كلها ، لم يسقطه هجاء بشار ، ولا تشهيره به ،
بل انتصر على بشار كما قدمنا ، فإذا أردنا أن نعلل هذا الانتصار الذى ظفر
به حماد ، مع أن خصمه أجود منه شعراً ، وأنفذ منه لساناً ، فعلة ذلك شيان ،
أحدهما : أن حماداً كان صادقاً ، يلائم بين قوله وعمله ، فلم يكن يتكلف ديناً
ولا ورعاً ، ولم يكن يتستّر من عبث أو مجون ، فكان بشار إذا هجاه وصفه
بما لا ينكر ، أما بشار فقد كان متكلفاً محتاطاً ، فكان حماد إذا هجاه أحيا
في الناس حب الاستطلاع ، ودلهم من أمره على ما يجهلون . والآخر : أن حماداً

لم يكن يعنى في هجاء بشار بالزندقة ولا بالكفر كثيراً ، وإنما كان يسلك في هجائه طريق الشعراء الأولين ، فيهجو أمه وأباه وامراته ، ويصف شخص بشار بما لم يكن بشار يستطيع أن يصف به شخص حما ، قال الرواة إن بشاراً بكى حين سمع قول حماد فيه :

وَأَعْمَى بِشِبْهِ الْقِرْدِ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فلما سئل عن بكائه قال : يرانى فيصنفنى ، ولا أراه فأصنفه . وكان هذان الشاعران لما عنامت بينهما الخصومة قد اتفقا على رجل سار بينهما ، يروى لكل منهما ما قال صاحبه فيه ، ويحمل إليه الجواب ، ولم تكن الصحف يومئذ معروفة ؛ فكان اختيار هذا الرجل وسيلة من وسائل النشر ، لا بأس بها . وإذا سألت عن أصل هذا الهجاء ، الذى اتصل بين الرجلين أعواماً طويلاً ، فصدره يسير ، وهو أن بشاراً كانت له حاجة عند حماد ، فأبطأ فيها ، فغضب بشار ، وعاتب صاحبه عتاباً لا ذعاً ؛ فغضب حماد ، وهجا بشاراً ، واتصل الشر بين الرجلين ، فكان حديث أهل البصرة ، بل كان حديث أهل العراق أيام حياتهما ، وبعد أن ماتا . وذلك يدل على ما قلته من أن حماداً كان سريع الغضب ، مندفعاً إلى حب الانتقام . على أن الصداقة وحسن المودة ربما وقفاه أحياناً عن الاندفاع في الشر ؛ فقد داعب مطيعاً ذات يوم ، فرد عليه مطيع بشعر منكر ، كان من شأنه أن يغرى حماداً ، ولكن حماداً ملك نفسه ، وغفرها لمطيع ، ولم يرد عليه هجاءه ، وإنما مدحه بشعر لا بأس به . على أن حلم حماد كان محدوداً ؛ فهو كان يحلم إذا لم ينله أذى في الحب أو الهوى ، فإذا ناله هذا الأذى ، فلم يكن للحلم إليه سبيل . وقد اتصل الهجاء بينه وبين مطيع ، كما اتصل بينه وبين بشار ، لأمرين ، كلاهما حب ، أحدهما : أن مطيعاً زار معه صاحبه خشة ، فازدراه عندها ، وعيره صدأته ، وكانت شديدة الحمرة ، فساءت الصلة بينه وبين صاحبه ، فاتصل الهجاء بين الرجلين وانتهز أصحابهما هذه الفرصة ، فأذكوا النار ، ليضحكوا من حماد . والآخر : أن حماداً كان يهوى غلاماً ، فهو به مطيع ، وتقرب إليه ، فأغتاظ لذلك حماد ، وتهاجيا . ولم يقف هجاء حماد عند بشار ومطيع وغيرهما من أفراد الناس الذين كان يهجوهم كلها اقتضت الأحوال ، وإنما تجاوز هؤلاء جميعاً إلى

رجل من أهل الكرخ يعرف بأبي عون ، كان صديقاً لحماد ولطبع ، وكانت له جارية تسمى جوهر ، كان حماد يحبها ، ويُحِبُّهَا ، وكان يلقاها من حين إلى حين ، فتسامع الناس بذلك ، وتحدثوا فيه ، وكره سيدها هذا الحديث ، فحججها عن حماد ، فأنكر حماد ذلك ، وهجا الرجل ، فأسرف في هجائه وأقذع .
ولست أروى لك من هذا الهجاء شيئاً ؛ فليس إلى روايته سبيل . . .
وكان حماد ضيق الذرع لا بأصحابه ومداعبيه وحدهم ، بل كذلك بالنسك وأهل الزهد ، إذا عرضوا له وانتقصوه . ويختلف الرواة في قصة له : أوقعت مع أبي حنيفة أم مع يحيى بن زياد ؟ ومهما يكن صاحب هذه القصة فقد كان صديقاً لحماد ، ثم نسك وأخذ ينتقص حماداً ، وأخذ حماد يلاطفه ويرفق به ، لعله يقلع عن انتقاصه ، فلم يقبل ؛ فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنْ دَلْحِي إِلَيْكَ عَلَى الْمُصْمَرَةِ الْقِلَاصِ
أَيَّامَ تُعْطِيَنِي وَتَأْخُذُ مِنِّي أَبَارِيقِ الرَّصَاصِ
إِنْ كَانَ نُسُكُكَ لَا يَتَّيْمُ بَغَيْرِ شَيْءٍ وَانْتِقَاصِي
أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بَغَيْرِ ذَاكَ تَنَالُ مَنَزَلَةَ الْخِلَاصِ
فَعَلَيْكَ فَاشْتَمُّ أَمِنًا كُلَّ الْأَمَانِ مِنَ الْقِصَاصِ
وَاقْعُدْ وَقُمْ بِي مَا بَدَا لَكَ فِي الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَّالْمَا رَكَبْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ أَنْتَ إِذَا ذُكِرْتُ تُنَاضِلُ عَنِّي مُنَاصِي
وَأَنَا وَأَنْتَ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَوْبِقَاتِ مِنَ الْحِرَاصِ

ويقول الذين يضيفون هذه القصة إلى يحيى بن زياد : إن هذا الشعر اتصل به ، فلم يزد إلا طعناً في حماد ، ونعياً عليه ، فقال حماد فيه :

لَا مُؤْمِنٌ يُعْرِفُ إِيمَانَهُ وَلَيْسَ بِيَحْيَى بِالْفَسَى الْكَافِرِ
مُنَافِقٌ ظَاهِرُهُ نَاسِكٌ مُخَالِفٌ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ

أما الذين يضيفون القصة إلى أبي حنيفة ، فيقولون إنه لما قرأ تلك الأبيات

خاف من حماد ، فأقلع عن شتمه .

ولو أني أحببت أن أشخص حماداً كما شخصت مطيعاً والوليد بن يزيد ، لوصفته قبل كل شيء بحدّة الطبع ، وسوء الخلق ، وحب الانتقام ، والإسراع إليه ، ثم بالصراحة في القول ، والملاءمة بينه وبين العمل ، وبكبره النفاق ، والانصراف عنه ، لا يعنيه أرضى الناس عنه ، أم سخطوا عليه ، ثم بحدّة اللسان ومضيه وإقذاعه ، وكسلفه بفاحش القول ، وبخثه عن أسوئه وأقبحه ، ثم بالسخرية من الناس وازدراؤهم ، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلاً من أصول الحياة ، كالوليد ومطيع وأبي نواس ، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء ، يخلص بها كلما ضاقت عليه المذاهب ، وأخذت عليه الطرق ، أودعته إلى ذلك حاجة . لم يكن حماد يخفّل بما يخفل به الناس من الوفاء ، والانصراف عن التناقض ، وإنما كان صديقاً مخلصاً حتى تبدو له حاجة ، أو تسنح له فرصة ، أو تضطره ضرورة ، فإذا صدقته قد استحالت إلى عدا ، وإذا هو ليس أقل صدقاً وإخلاصاً في العدا منه في المودة والحب . فقد مدح يحيى بن زياد ، واتخذ صديقاً ، ونال جوائزه ، ثم كان الخلاف فهجاه ، وصادق بشاراً وصفاه ، ثم اختصما ، فلم يعرفا في الخصومة رحمة ولا رفقاً . وصافي مطيعاً وأحبه ومدحه ، وأكثر في الثناء عليه ، ثم اختصما في امرأة مرة ، وفي غلام مرة أخرى ، فهجاه وأقذع في هجائه . وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البر بالناس ، والعدل في معاملتهم . هجا ذات يوم رجلاً يقال له : حشيش ، وجعل اسمه قافية لهذا الشعر ، وأراد أن يبالغ في ذمه فشبهه ببحيش ، وكان بحيش هذا رجلاً من أهل البصرة ، وادعاً لا يعرف حماداً ، ولا يعرفه حماد ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جزع له ، وسافر من البصرة حتى بلغ الكوفة ، فعاتب حماداً ، فقال له ضاحكاً معتدراً : لا بأس عليك ، فإن هذا من آثام القافية ، ولن أعود إليه .

لعلك تسأل بعد هذا كيف استطاع حماد ، على مجونه وفسقه واشتهاره بالزندقة ، ونيله من أعراض الناس ، ووجوه الأمصار ، أن يأمن على حياته غائلة الخلفاء والحكام ؟ والجواب عن ذلك يسير ، وهو أن حماداً كان متصلاً أيام العباسيين بأمير من أمراءهم ، هو محمد بن أبي العباس السفاح ، قالوا إنه أدبّه ونادمه ، فأمن لاتصاله به كل غائلة . على أن اتصاله بمحمد هذا

جر عليه خطوباً جساماً ، فقد كان محمد هذا خليعاً ، كما كان جعفر بن المنصور حامى مطيع خليعاً أيضاً ، وكان المنصور يكره محمداً ، ويؤثر عليه المهدي بالخلافة ، كما كان المنصور يزدرى ابنه جعفرأ ، ويريد إقصاءه عن الخلافة ، وكان محمد هذا يعشق زينب بنت سليمان بن علي ، من أشرف العلويين ؛ فلما ولاه عمه المنصور البصرة خطب زينب هذه ، فلم تقبل خطبته ، فزاده الرفض حباً لها ، وهياماً بها ، ولم يكن شاعراً ، أو لم يكن يجيد الشعر ، فلجأ إلى مؤدبه ونديمه حماد ، وجعل حماد يتغزل له في صاحبته ، وجعل حَكَمَ الوادى يغنيه بغزل حماد ، وانتشر هذا الشعر ، ونسبه الناس إلى محمد حيناً ، وإلى حماد حيناً آخر ، ولكن أخا زينب محمد بن سليمان كان يعلم جليلة الأمر ، فغضب على حماد وتوعده ، وحلف ليقتلته . وظل حماد آمناً ما عاش محمد ابن أبي العباس ، ولكن محمداً مات ، فاضطرب حماد ، وأشفق من وعيد خصمه ، ويقولون إنه لجأ إلى قبر سليمان أبي خصمه هذا ، واستجار به ، وقال شعراً كثيراً جيداً يستعطف به محمد بن سليمان ، فلم يعطف عليه ، ولم يَرِثْ له ، وإنما أقسم ليسقين بدمه قبر أبيه ، قال الرواة : فهرب حماد ، حتى وصل بغداد ، فاستجار بجعفر بن المنصور ، فأجاره على أن يهبجو محمد ابن سليمان ، فهجاه وبالغ في هجائه وأجاده . فلم يزد محمد إلا سخطاً عليه . قالوا : وكان حماد في الأهواز ، فأرسل إليه محمد أحد مواليه ، فقتله غيلة ، ويقال : إنه لم يقتل ، وإنما أصابته علة طالت عليه ، ووصل نعيه إلى بشار ، ولم يكن حماد قد مات ، فقال بشار :

لَوْ عَاشَ حَمَادٌ لَهَوْنَا بِهِ لَكِنَّهُ صَارَ إِلَى النَّارِ

قالوا : فبلغ هذا البيت حماداً وهو عليل ، فقال :

نُبِّئْتُ بِبَشَارِ نَعَانِي وَلِلشَّرِّ بَرَانِي الْخَالِقُ الْبَارِي

يَا لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أَهْجُهُ نَعَمْ وَلَوْ صِرْتُ إِلَى النَّارِ

وَأَيُّ خِزْيٍ هُوَ آخِرِي مِنْ أَنْ يُقَالَ لِي : يَا سَابَّ بَشَارِ

ثم مات حماد ، وكان من أمر بشار ما كان ، حتى قتله المهدي ، فدفن

بشار مع حماد في مكان واحد . قالوا : فر بهما شاعر من شعراء البصرة ، كان
يهاجي بشاراً ، يقال له أبو هشام الباهلي ، فوقف على قبريهما ، وقال هذه
الآبيات ، التي تختصر فيهما رأى طائفة من المعاصرين :

قد تبع الأعمى قفا عَجْرَدٍ فأصبحا جارَيْنِ في دارِ
قالتْ بقاع الأرض لا مَرَّحِباً بقُرْبِ حماد وبِشَارِ
تَجَاوَرَا بعد تجافيهما ما أبغضَ الجارَ إلى الجارِ !
صارا جميعاً في يدَي مالِك في النارِ ، والكافرُ في النارِ

نظير
قليل
لا
على
الص
المتي
في
غز
عيب
ولا
لا ت
تبت
إلى
إلى
الس
الش
وأل
تغي
خل
وما
نجا

حسين بن الضحاك الخليع (١)

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف شديد الذبّرف ، ربما انقطع
نظيره في شعراء العصر العباسي كله ، وهو مع ظرفه وإسرافه في المحجون ،
قليل الفحش في اللفظ ، غير مهالك على القول الآثم والألفاظ المنكّرة ،
لا يتخيرها ولا يقصد إليها ، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطراراً ، وهو
على ظرفه ورقة حاشيته ، وحرصه على نقاء اللفظ وطهره ، شاعر بالمعنى
الصحيح لهذه الكلمة ، مجوّد إذا فكر ، مظفّر إذا بحث ، موفق إلى اللفظ
المتين ، والأسلوب الرصين ، في غير جفوة ولا غلظة ، لا يعرف التكلف
في لفظ ولا معنى ، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيته سهلة مرسلّة ، غنية
غزيرة المادة ، لا تكاد تنضب ، ولا ينالها إعياء أو كلال . وحياته كلها
عِبْرٌ وعِثَاتٌ ، ولكنها عبر وعِثَاتٌ مبتسمة ، ليست بالمظلمة ولا العابسة ،
ولا بالتّي تردك وتنفّرُك ، وتجعل للحزن والأسى إلى قلبك سبيلاً . ولعلك
لا تكاد تجد من شعراء هذا العصر رجلاً مثله ، تقرأ أخباره فتنبّل مبتسماً منذ
تبتدىء إلى أن تنتهى ، دون أن تعبس أو تقطب ، وربما تجاوزت الابتسام
إلى الإغراق في الضحك من حين إلى حين ، ولكنك لن تترك الابتسام
إلى الحزن الشديد . وربما اعترضتك في طريقك سحابة مخزنة ، ولكن هذه
السحابة رقيقة هادئة هينة ، فهي أضعف من أن تزيل ابتسامتك . وكان
الشاعر من المعمّرين ، بلغ المشّة أو كاد ، وعاصر طبقات من الشعراء ،
وأولاً من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظل محتفناً بشخصيته الوداعة المبتسمة ،
تغيّر الناس ، واختلّفت الذبّروف ، وظل هو واحداً لم يتغيّر . كان
خليعاً ، بل كان يُعرف بالخليع ، وكان كثير المحجون ، مسرفاً فيه ،
وما أحسب أن أبا نواس سبقه إلى لذة ، أو تفوق عليه في مأثم ، ولكنه على
خلاعته وإسرافه في المحجون ، وتهالكه على اللذات ، احتفظ طول حياته بشيء

(١) نشرت بالسياحة في ١٩ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٣ أبريل ١٩٢٤ م .

من كرم الخلق ، وطهارة العنصر ، وجودة الأصل ، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه تنزلقاً ، دون أن تترك فيها أثراً باقياً ، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة ، وأيامه المملوءة بالعبث ، هذه الأشعار الجميلة الحلوة ، التي سأظهرك على طرف منها .

قلت : إن حياته كانت عبرة كلها ؛ فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء ، الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد والكد ، وبعد التلطف وحسن الحيلة ، وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً ، يعاشروهم ويرافقهم ، ويتدخل في حياتهم الخاصة ، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء يبحثون عنه ، ويحرصون على عشرته ، ويبدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء . وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

نشأ مع أبي نواس في البصرة ، واختلفنا معاً إلى مجالسها وملاهيها ، ثم افترقا ، فذهب أبو نواس إلى بغداد ، وأقام هو في البصرة ، ولم تكد تمضي مدة قصيرة على أبي نواس في بغداد ، حتى بعد صوته ، وتسامع به أهل العراق ، لأنه اتصل بالأمراء وأشراف الناس ، فارتفع قدره ، وعسايت مكانته ، وحمل الهواء ذلك إلى الحسين في البصرة ، فغبط صاحبه ، وفقا أثره ، وانتقل إلى بغداد ، فمدح الناس وتقرّب من أشرافهم ، واختلف إلى مجالس بغداد وملاهيها ، وقال الشعر في الخمر ، وفي ضروب اللذات ، وما هي إلا أن عظم أمره ، وتسامع به أهل بغداد وزعمائها ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى الرشيد ، وإنما اتصل بأبناء الرشيد ، وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا قليلاً ؟ وهل اتصل أبو نواس بالرشيد إلا كما كان يتصل به الشعراء ، الذين كانوا يقصدون إلى ذلك ، ويحتالون فيه ، حتى إذا نالهم هذه الخطوة أنشدوا الخليفة شعرهم ، وانصرفوا وقد نالوا من جوائزه ما أتيج لهم ! ذلك أن أبا نواس والحسين ابن الضحاك لم يكونا من هؤلاء الذين يصلحون لمصاحبة الرشيد ، فقد كان في الرشيد شيء من العبث وحب اللهو ، ولكن عبث الرشيد وطوه لم يكونا قوام حياته ، وإنما كانا ضرباً من الترفيه على النفس . ولم يكن أبو نواس والحسين من الذين يصلحون لغير اللهو ؛ فلم تنفك بضاعتهم عند الرشيد ، وإنما نفقت عند الأمراء من أبنائه ، وعند الوزراء وأشباه الوزراء ، من رؤساء

الدولة وأشرفها . فأما أبو نواس فاتصل بالفضل بن الربيع وبنيه ، واتصل شيئاً بالأمين ، حين كان ولياً للعهد ، واتصل بطائفة من أمراء البيت المالك . وأما الحسين فانقطع أو كاد ينقطع لخدمة أميرين من أبناء الرشيد ، لم يكن لهما حظ من الملك ، ولا طمع فيه ، وإنما كانت حياتهما ضرباً من البطالة الاضطرارية ، وكان الله قد وفر عليهما من الثروة وأسباب اللذة ما جعل حياتهما عيداً متصلًا ، وهما صالح بن الرشيد ، وأبو عيسى بن الرشيد . وكان الحسين متصلًا اتصالاً خاصاً بصالح ، ينادمه ويساقيه ، ويكاد يمضي معه الليل والنهار ، ثم اتصل الحسين بالأمين ، واشتدت صلته به ، حتى تجاوزت علاقته ما يكون بين الشعراء والخلفاء ، إلى شيء يشبه الصداقة والمودة القوية . ولسنا ندرى إلى أي حد بلغ إخلاص الأمين لنديمه ، ولكننا نعلم أن إخلاص الحسين للأمين لم يكن له حد ، ونعلم أن أيام الأمين أظهرت من هذا الشاعر الخليع المهالك على اللذة رجلاً وفيئاً ، متين الخلق صريحاً ، يعرف كيف يكون من الأنصار السياسيين ، وكيف يتعصب لحزبه ، ويؤيد أصحابه ، ويتعرض في سبيل ذلك للخطر . كان الحسين من أشد الناس تعصباً للأمين ، وزراية على المأمون ، حين ظهر الخلاف بين الأخوين ، واندفع في ذلك إلى غير حد . ثم اشتدت المحنة ، ووصلت جيوش المأمون إلى بغداد ، وأخذت الحرب أشنع أشكالها ، فلم يتخف الحسين ولم يفرغ ، ولم يكن أقل انتصاراً لصاحبه منه في أيام اللين والنعمة . ولقد كان يتلقت أخبار هذه الحرب ، حتى إذا وصل إليه من أخبارها خبر ابتهج به أسرع فحمله إلى الأمين مهنتاً مشجعاً . روى لنا أبو الفرج من شعره في ذلك هذه الأبيات :

أَمِينِ اللَّهِ يُقَى بِاللَّهِ نِعْطَ الْعِزِّ وَالنُّصْرَةَ
 كَلِ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
 لَنَا النُّصْرُ يَا ذَنْبِ اللَّهِ وَالكَرَّةُ لَا الْقَرَّةُ
 وَلِلْمُرَاقِي أَعْدَائِكَ يَوْمَ السُّوءِ وَالذَّبْرَةَ
 وَكَأْسٌ تُورِدُ الْمَوْتَ كَرِيهٌ طَعْمُهَا مُرَّةٌ
 سَقَوْنَا وَسَقَيْنَاهُمْ فَكَانَتْ بِهِمُ الْحِرَّةُ

كذلك الحربُ أحياناً عَلَيْنَا وَآلِنَا مَرَّةً

ثم قتل الأمين ، وكانت الكارثة فلم يهين الحسين ولم يضعف ، ولم ينقلب على عقبيه ، ولم يتملق المنتصر ، وإنما ملكه حزن ليس بعده حزن ، وانطلق لسانه من الرثاء بالجيد المؤلم ، الذي تنقطع له القلوب ، وتنظر له الأكباد ، وانطلق لسانه أيضاً بالهجاء اللاذع للمأمون وأصحابه ، واستعداء الله عليهم ، بعد أن عجز عن استعداد الناس ، ولج في ذلك ، وألح فيه ، حتى نهض المأمون من خراسان يريد العراق ، فلم يزدد الحسين إلا هجاء للمأمون ، ورثاء للأمين ، حتى رق له أصحابه ، وأشفقوا عليه ، وألحوا في نصحه . روى أبو الفرج أن الحسين تحدّث عن نفسه بهذا القول : « كنت عازماً على أن أرى الأمين بلساني كله ، وأشقى لوعتي ، فلقيني أبو العتاهية ، فقال لي : يا حسين ، أنا إليك مائل ، ولك محب ، وقد علمت مكانك من الأمين ، وإنه لحقيق بأن ترثيه ، إلا أنك قد أطلقت لسانك من التلهف عليه ، والتوجع له ، بما صار هجاء لغيره ، وثلبا له ، وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنْصَبٌ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأبقِ على نفسك ، يا ويحك ! أتجسر على أن تقول :

تَرَكَوْا حَرِيْمَ أَبِيهِمْ نَفَلًا وَالْمُحَصَّنَاتُ صَوَارِخٌ هُتَفٌ

هيهاتَ بعدك أن يدومَ لهمُ عِرٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهُمْ شَرَفٌ

أكفف غرب لسانك ، واطو ما انتشر عنك ، وتلاف ما فرط منك ، فعلمت أنه قد نصحتني ، فجزيته الخير ، وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كدت أنجو .

وما أشك في أن أبا نواس لو عاش كما عاش الحسين لأدركه من المأمون شر كثير ، فلم يكن أبو نواس أقل حباً للأمين من الحسين ، ولم يكن أبو نواس أشد بغضاً للمأمون من الحسين ، وأنت تذكر هذه الأبيات القليلة التي قالها أبو نواس يرثي بها الأمين ، فشئت أحسن تمثيل حبه لهذه الدولة الراحلة ، وبغضه لهذه الدولة القائمة :

طَوَى المَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَابِسَ لِمَا تَطَوَى المَنِيَّةُ نَاشِرٌ

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ المَوْتَ وَحَدَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

فلا وصلَ إلا عِبْرَةً تستديهما أحاديثُ نفسِ ما لها الدهرُ آخرُ
لئن عمِرتَ دورَ بمن لا أحبُّهم لقد عمِرتَ بمن أحبُّ المقابرُ

فانظر بعد هذا إلى رثاء الحسين للأمين ، ورأيه في الدولتين ، وحدثني :
أتجد أبلغ من هذا الشعر في وصف الخزيمة السياسية ؟ وحدثني : أيستطيع
منهزم في السياسة ، معترف بهزيمته ، أن يصف موقفه بخير من هذا الكلام :

سألونا أنْ كيفَ نحنُ ؟ فقلنا : مَنْ هَوَى نَجْمُهُ فكيفَ يكونُ
نحنُ قومٌ أصابنا حدُّ الدهرِ فظَلْنَا لِرَبِّهِ نَسْتَكِينُ
تَمَنَّى مِنَ الْأَمِينِ إِيَاباً لَهْفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مِنَّا الْأَمِينُ

وانظر إلى هذه الأبيات التي تذكر بما رويت لك من شعر أبي نواس ،
ولم لا يقصد الشاعران إلى معنى واحد ، وكلاهما كان محبباً للأمين ، مؤثراً له ،
وكلاهما كان عدواً للمأمون ، مسرفاً في بغضه :

أَعَزَّى يَا مُحَمَّدَ عَنكَ نَفْسِي مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْجَسَامِ
فِيلاً مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا وَدَافِعَ عَنكَ لِي يَوْمَ الْحِمَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مِنْكَ غُماً أَوْ اسْتَشْفَى بِقَرْبِكَ مِنْ سَقَامِ
واقراً هذين البيتين :

هَلَّا بَقِيَتْ لِسَدِّ فَاقْتِنَا أبدأً وَكَانَ لغيرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَانِفاً سَلَفُوا وَلسَوْفَ يُعَوِّزُ بِعَدِكَ الْخَنَافُ

ويظهر أن هذين البيتين تركا في نفس المأمون موجدة شديدة على الشاعر ،
فقد تحدث ثمامة بن الأشرس أن المأمون لما وصل إلى بغداد طلب أن يسمى
له نفر من أهل الشعر والأدب ، يتخذهم له جلساء . فسُمي له قوم ، منهم
الحسين ، فذكر هذين البيتين ، وأقسم لا يراه إلا في الطريق . قال ثمامة وانحاز
الحسين إلى البصرة ، فأقام فيها طوال أيام المأمون .

والناس يتحدثون أن الحسين ضاق بسخط المأمون عليه ، وأشفق من

ذلك ، فتوسل إلى المأمون بوسائل مختلفة ، ووسط إليه نفرأ من أشرف القوم منهم عمرو بن مسعدة ، ومدحه ، أو استعطفه بشعر لا أجد فيه أنا روح الحسين فلم يبلغ من المأمون إلا أن وصل له أرزاقه ، ولكنه أبي الإباء كله أن يأذن له في الاختلاف إلى القصر . وسواء أصحت هذه الأخبار كلها أم لم تصح ، فإن في حياة الحسين أيام المأمون ، مع ما قال فيه وفي أخيه ، آية على ما اتصف به المأمون من الحلم وسعة العفو والإغضاء عن خصومه السياسيين . ولكن حياة الحسين أيام المأمون لم تكن من السعة واللين على ما تعود أيام كان ينادم الأمين ، ويصاحب صالح بن الرشيد ، فقد ضاقت به بغداد ، وأغلقت دونه أبواب الأمراء وزعماء الناس ، واضطر إلى أن يعيش في البصرة من صلب ماله ، وأشفق عليه بعض أصحابه ، وحدثوه في ذلك ، وسألوه كيف (تمشى حاله) مع انقطاع الأرزاق ، وكثرة النفقة ؟ فقص عليهم قصصاً لذيذاً ، يظهرنا على لون من ألوان الحياة الخاصة للأمين . زعم الحسين لسائله أنه يجد مشقة في الحياة ، ولكنه مع ذلك يعيش وينفق دون أن يحتاج إلى المسألة ، وهو إنما ينفق ويعيش من صلوات الأمين وجارية له لم يسمها . وذلك أن الأمين دعاه ذات يوم ، فزعم له أنه صديقه وعشيرته ، وأن عشير الرجل موضع ثقته وسره وأمنه ، وأنه محمده بشيء يجب أن يخفيه ، وكانت للأمين جارية فنتته بلهاها وحسن غنائها ، ولكنها كانت متجنبة ، كثيرة الدل ، مسرفة فيه ؛ فكانت تنغص على الأمين صفوه ؛ فضاق الأمين بذلك منها ، وأراد أن يلقي عليها درساً ، وكلّف الحسين أن يلقي هذا الدرس . زعم للحسين أنه سيدعو هذه الجارية وجارية أخرى ، لا تبلغها جمالا ولا إجادة في الغناء ، وسيأمرهما أن تغنيا ، وطلب إلى الحسين أن يفتّر ويتناقل إذا غنّت الحميلة المحسنة ، وأن يطرب ويشرب ويظهر الجنون والهيام ويشق ثيابه ، إذا غنت الأخرى ، وأعفاه من كل حرج ، ووعدته مئة ثوب لكل ثوب يشقه ، فوعد بالطاعة ، ونحلا إلى الأمين ، وجاءت الجاريتان ، فغنت المحسنة ، وكان الحسين فتيماً ، وكان رجلاً صادقاً ، ولا سيما إذا شرب ، فلم يستطع أن يبق بالوعد ، وإنما أخذ يُظهر الرضا والإعجاب ، وكلما أومأ إليه الأمين لم يردد إلا رضاً وإعجاباً ، ثم غنت الأخرى ، فأخذ يتكلف السرور والطرب واستأنفت المحسنة غنائها ، واستأنف الحسين شرابه ، فإذا لبّه قد طار ، وإذا

هو يصيح ، وإذا الأمين يشير ويقطب ، ويظهر العبوس ، ولكن الحسين عنه في شغل بطربه ولذته ، حتى ضاق الأمين ، وأمر بالحسين فحجر برجله ، ثم أمر فحُجِب عنه . وأخذ الناس يعطفون على الحسين ، ويرثون له ، ويسألونه عن سبب هذه النكبة ، فيقول : تحامل على النبيذ ، فأسأت الأدب ، فتومني أمير المؤمنين . ومضى دون ذلك شهر ، ثم دعى الحسين إلى القصر ، وإذا الأمين يتلقاه لقاء حسناً ، ويخلو إليه في تلك الحجرة ، ويدعو المغنية ، وينبئ الحسين أن أمر هذه البخارية قد صلح ، وأنها قد انتهت إلى ما يجب ، وأنها قد شفعت للحسين عنده ، فقبل شفاعتها ، ومنح الحسين عشرة آلاف دينار ، ومنحته هي دون هذا المقدار ثم اتصلت صلوات هذه البخارية للحسين فإذ كان يمضي أسبوع ، حتى تنتهي إليه هداياها وألطفاتها ؛ فهو يعيش من ذلك أيام ينخط المأمون عليه .

على أن أيام المأمون لم تكد تنقضي حتى ابتسم الدهر للحسين ، فعاد إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم والوائق والمتوكل ، وكانت له عندهم جميعاً حظوة لا تعد لها حظوة ، وكان مقدماً عندهم جميعاً على غيره من الشعراء ، ولا سيما الواثق ؛ فقد كان يحبه حباً شديداً ، ويطمئن إلى منادمته ، ويتخذة موضعاً لسره في حياته الخاصة ، وما كان يقع بينه وبين جواريه من ضروب المحبون والمزاح ، وألوان الهجر والصدود ، وله مع هؤلاء الخلفاء جميعاً أخبار حاوة ، تبسط في روايتها أبو الفرج .

فأنت ترى أن هذا الشاعر قد اتصل بالأمرء من أبناء الرشيد ، ثم اتصل بالأمين والمعتصم والوائق والمتوكل من الخلفاء ، وأنت تعلم أن حياة القصر تطورت أيام هؤلاء الخلفاء ، تطوراً غير قليل ، بل إن مستقر الحكم نفسه قد تغير ، وأحاط بالمعتصم وخلفائه قوم غير الذين كانوا يحيطون بالأمين والمأمون ، وأنت تعلم أن الشعر نفسه تطور ، فكان في القرن الثالث غيره في القرن الثاني ، من وجوه مختلفة ، ولكن شاعرنا قد استطاع أن يعاشر هؤلاء الخلفاء ، ويمدحهم وينشدهم من شعره الهزل والجد ، دون أن يغير من شخصيته شيئاً . وهل كان من اليسير عليه أن يغير شخصيته قوية كشخصيته ! وقد يكون من الخير وقد عرضنا لشخصية الحسين بن الضحاك أن نجهد في وصفها ، وأن نعطيك منها صورة ما ، لتعرف مكانه من الشعراء

الذين عاصروه ، وقد سبقنا القدماء إلى هذا ، فتصوروا هذا الشاعر تصوراً مقارباً ، ولكن ينقصه شيء من الدقة ، شبهوه بأبي نواس ، أو قل خلطوا بينه وبين أبي نواس ، وأسرفوا في هذا الخلط أحياناً ، حتى روي لكل منهما شعر صاحبه ، وفي الحق أنك تجد في ديوان أبي نواس شعراً هو أشبه بالحسين ، وتجد في أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبي نواس ، ولم يكن القدماء من الدقة وقوة البحث بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه ، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة في النقد ، وتعمقاً في البحث الأدبي . وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس ، وكان أبو نواس يعلم أن الحسين يشبهه ، وكانت بينهما مودة ، ولكن كان بينهما تنافس شديد أدبي ، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم ، وإنما انتهى بهما إلى الخصام ، وإلى التناوب أحياناً ، دون أن يتصل بينهما الهجاء ، ودون أن يوقع أحدهما بصاحبه . وكان الحسين لا يخلو من حمق وسرعة إلى الغضب ، وضيق الصدر ، لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان يلهو ويعبث في غير فلسفة ومذهب . أما أبو نواس فقد رأينا أنه لم يكن يخلو من فلسفة ، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس ، والسخر منهم ، والعبث بهم ، وبما يتصل بحياتهم ، من أصول وعقائد ، ومن نظم وقواعد ؛ فكان يعبث بالحسين صديقه ، ويسخر منه ، ويغيبه ، لا يحق ذلك ولا يتكلفه ، وإنما يعلنه إعلاناً ، ويعلنه إلى الحسين نفسه ، وكان الحسين يغتاظ ، ولكنه لا يجد شفاء لنفسه إلا أن يشتم أبا نواس في وجهه أقيح الشتم ، ويتحدث إلى الناس بذلك . ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث في الماين والأخلاق والحياة وحدها ، بل كان يستبيح العبث في الأدب والشعر أيضاً ، كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء ، وكان يرى أنه شاعر مجيد ؛ وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر في الحجون ووصف الخمر ، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين ، فقد كانت للحسين في الخمر معان وألغاز جواد ، يتمنى أبو نواس لو ظفر بها ، وسبق إليها ، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق ، وكان ينشدها أبا نواس وغير أبي نواس ؛ فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا فاستحسنه ، حسد الحسين عليه ، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين ، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو ، ثم ينصرف عن الحسين ، ويعود إليه وقد أخذ معناه وصاغه

في لفظ له ؛ فإذا أظهر الحسين غضباً ضحك أبو نواس ، وقال : « دع عنك هذا ! فو الله لا يُروى لك شيء في الخمر وأنا حي » . وربما أراح أبو نواس نفسه من عناء النقل والسرقه ، فزعم القصيدة برومها لنفسه ، وصدقته الناس ، وتناقلوا القصيدة على أمها له .

تحدثت الرواة من هذا بالشيء الكثير ، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبي نواس من لين الخلق ، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة ، ومن الإخاء في الأدب واللهم ، ولكنه يمثل لنا شيئاً آخر ، هو الذي يعيننا من وجهة البحث الأدبي ، يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين وشعريهما ، فقد كان الرجلان مسرفين في الخجون ، متهالكين على الخمر ، مشغوفين بوصفها وذكر آلتها ، وكان مذهبهما في ذلك واحداً أو مقارباً . ولم لا ! ألم يتأثروا جميعاً بأستاذ واحد ، هو الوليد بن يزيد ؟ ألم يعدوا جميعاً على شعر هذا الملك ، الذي ظلم في السياسة وظلم في الأدب أيضاً ! ثم ألم يتأثرا جميعاً بهذه الحياة البغدادية ، وهذا اللهم البغدادى ! ثم ألم يتصلا جميعاً بالأميين وقصور الأمراء والوزراء ! ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق ، ظاهر في اللفظ ، وظاهر في المعنى ، وظاهر في الطبع أيضاً . كان أبو نواس كالحسين : ماجناً ، شارباً ، وصافاً للخمر ، محبباً للغلمان ، ولكنه كان من جهة مستهتراً مهتكاً ، يتمدح بالاستهتار والتهتك ، ويتخذهما مذهباً وديناً ، وكان من جهة أخرى ، بحكم هذا الاستهتار والتهتك ، متسفلاً في شعره ، لا يتكلف الإجادة إذا تحدث إلى الخلفاء والأمراء وأشرف الناس ، وكان يرسل نفسه على سجيتهما إذا تحدث إلى الشعراء والأدباء وأوساط الناس ، ولكنه كان يتحدث إلى الدهماء وإلى طبقات من الرقيق وغلمان الخانات والأديار ، فكان يتبسط إذا تحدثت إلى هؤلاء ، وكان كثيراً ما يقول الشعر وهو سكران ، فلم يكن يستطيع الحرص على الإجادة اللفظية ، ثم كان أبو نواس ساخرًا شديدًا السخر ، فكان يتعمد الإساءة إلى أهل اللغة وأصحاب النحو ، فيحرف عليهم قواعدهم ، ويسخر لهم من أصولهم ، وهو مع ذلك لا يتجاوز اللغة ولا وجه الصواب فيها . أما الحسين فكان طول حياته متصلاً بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب ، مقصوراً عليهم ، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم ، أو بمحضر منهم ؛ فكان بمعزل عما كان يضطر إليه

أبو نواس ، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس ، وسفلة الرقيق ، وكان الحسين بحكم منزلته من القصور مضطراً إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية ، التي تصلح للاستقراطية ، فقلَّ الفحش جداً في شعره وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه ، وغلبت الجودة على معانيه ، ثم لم يكن الحسين يتخذ السخرية مذهباً ، ولم يكن يعنيه أن يغيب أهل الدين ورجال الصلاح ، ولم يكن يعنيه أن يغيب أئمة اللغة وأصحاب النحو ؛ فكان في شعره هدوء واطمئنان ، خلا منهما شعر أبي نواس ، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالاً مع الطبيعة والسجية ، لذلك لا نجد في شعره هذا الاحتشام المتكلف ، الذي يصطنعه المنافقون من الفساق ، وإنما كان الرجل فاسقاً لا يجرّد فسقه ، ولا يظهره للناس عارياً كأبي نواس ، كما أنه لم يكن يحليه ولا يزينه ، فيخلع عليه أثواب الورع والدين . وكذلك كان الحسين ، وله إلى هذا كله ميزة ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس ، وهي مفهومة جداً ، كان يعاشر الأمراء والخلفاء ، وكان ينشئ لهم الشعر ، ليتغنى لهم فيه المغمنون وقد أكثر من ذلك ، حتى أثر في شعره ، وأصبح شعره كله موسيقياً ، وقلَّ أن تجد للحسين شعراً لم يتغن فيه المغمنون ، وقلَّ أن تجد له شعراً لا يصلح للغناء ، لا بلجودة لفظه ومعناه فحسب ، بل لها ولهذا التنسيق الموسيقي الذي لا تكاد تجده عند غيره . ومن هنا أثر أو كاد يؤثر دائماً القصار من بحور الشعر ، ومن هنا اجتهد في أن يضيف إلى هذه الأوزان الشعرية العروضية أوزاناً أخرى موسيقية . فانظر إلى هذا البيت ؛ فهو يمثل ما أريد تمثيلاً صحيحاً

قد غابَ لا آبَ من يُراقبنا ونام لا قامَ سامرُ الخَدَمِ

فانظر إلى قوله « قد غاب لا آب » وإلى قوله : « ونام لا قام » تجد إلى جودة المعنى وظهور حرص الشاعر على لذته ، هذا النغم الموسيقي ، الذي زواج بين غاب وآب ، وبين نام وقام ، وهذا النحو من الموسيقى كثير في شعر الحسين .

وجملة القول في شخصية هذا الشاعر ، أنه كان كأبي نواس ، ولكنه أنتى من أبي نواس لفظاً ، وأعف منه لساناً ، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام ، ولم يكن يعدل أباً نواس في خفة الروح ، وحلاوة الحجون ، ولم

يكن يبلغ أبا نواس في الاستهتار والتهتك ، ولم يكن أقل من أبي نواس حرارة في العاطفة ، وصدقاً في اللهجة ، ولكنه كان يمتاز بشيء من الرجولة والوفاء لم يكن لأبي نواس منه حظ عظيم ، وكان يمتاز على أبي نواس بشيء آخر ، وهو أنه لم يكن سريع التنقل في أهوائه ولذاته ، وإنما كان وفيّاً في حبه ، كما كان وفيّاً في صداقته . وكانت قصة الحسين التي استأثرت بجمياته الغرامية في شبابه ، إن صح هذا التعبير ، هي هذا الغرام المتصل بينه وبين غلام من غلمان الأمراء ، هو «يسر» غلام أبي عيسى بن الرشيد . وكان «يسر» هذا جميلاً خللاً ، فتنّ به صالح بن الرشيد نفسه ، وتلطف له ، واجتهد في الحظوة عنده ، فوجد في ذلك عناء شديداً ، ولم يظفر به إلا بعد مشقة وبذل لمقادير ضخمة من المال ، وكان هذا الغلام رسول اللهو بين الأخوين فأحبه الحسين نديم صالح ، كما أحبه صالح نفسه . وتناقل يسر على الحسين وازدراه ، ولكن الحسين تلطف واحتال ، وبالغ في التلطف والحيلة ، حتى وجد من قلب الغلام مكاناً ، ولعل الذي انتهى به إلى هذا المكان من قلب يسر إنما هو شعره الجيد الكثير ، الذي قاله فيه ، ولست أريد أن أقص عليك أخباره مع يسر ، ولست أريد أن أروى لك شعره في يسر ، فهذا كثير ، لا تسعه هذه الصحيفة ، وإنما أروى لك من هذا الشعر نموذجاً حسناً ، يمثله تمثيلاً صحيحاً ، وهي هذه القصيدة التي قالها بعد ليلة هو كانت بينه وبين يسر .

تَيْسِرِي لِلْمَامِ مِنْ أُمَّمٍ وَلَا تُرَاعِي حَمَامَةَ الْحَرَمِ
 قَدْ غَابَ لَا أَبَ مِنْ يَرَاقِينَا وَنَامَ لَا قَامَ سَامِرُ الْعَدَمِ
 فَاسْتَصْحِي مُسْعِدًا يُفَاوِضُنَا إِذَا خَلَوْنَا فِي كُلِّ مُكْتَمِ
 تَبَدَّلِي بِذَلَّةٍ تَفَرُّ بِهَا الْعَمِينُ وَلَا تُخَصِّرِي وَتُحَدِّثِي
 لَيْتَ نَجُومَ السَّمَاءِ رَاكِدَةٌ عَلَى دُجَى لَيْلِنَا فَلَمْ تَرِمِ
 مَا لِسِرُورِي بِالشِّكِّ مَمْتَزَجٌ حَتَّى كَأَنِّي أَرَاهُ فِي حُلْمِ
 فَرِحْتُ حَتَّى اسْتَحَفَّنِي فَرِحِي وَشُبْتُ عَيْنَ الْيَقِينِ بِالثَّمَمِ

أَمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَشْدِيدًا نَظَرِي إِخَالِنِي نَائِمًا وَلَمْ أَنْمِ
 سَقِيًّا لَيْلِ أَنْبِتُ مُدَّتَهُ بِيَارِدِ الرِّيقِ طَيِّبِ النَّسَمِ
 أَيْبُضُ مُرْتَجَّةٌ رَوَادِفُهُ مَا عَيْبَ مِنْ فَرْقِهِ إِلَى الْقَدَمِ
 إِذْ قَصَبَاتُ الْعَرِيشِ تَجْمَعُنَا حَتَّى تَجَلَّتْ أَوْاخِرُ الظُّلَمِ
 وَلَيْلَةٌ بِبِهَا مَحْسَرَةٌ مَحْفُوفَةٌ بِالظُّنُونِ وَالتَّهَمِ
 سَقِيًّا لِقَيْطُونِهَا وَخِدَعِهَا كَمْ مِنْ لِمَامٍ بِهِ وَمَنْ لَمَمِ
 وَلَيْلَةُ الْقَفْصِ إِنْ سَأَلْتَ بِهَا كَانَتْ شِفَاءً لِعِلَّةِ السَّقَمِ
 بَاتَ أَيْسَى صَرِيحَ خَيْرَتِهِ وَتِلْكَ إِحْدَى مَصَارِعِ الْكَرَمِ
 وَبِتُّ عَنْ مَوْعِدٍ سَبَقْتُ بِهِ أَلْتَمُ دُرًّا مُفْلَجًا بِقَمِ
 أَبَاخِي نَفْسُهُ وَوَسَدَنِي يُمْنِي يَدِيهِ وَبَاتَ مُنْتَرَمِي
 حَتَّى إِذَا اهْتَاجَتِ النَّوَاقِسُ فِي سُحْرَةِ أَحْوَى أَحَمَّ كَالْحُمِ
 وَقَلْتُ هُبَّا يَا صَاحِبِي وَتَبَسَّبَتْ أَبَانًا فَهَبْ كَالزَّلَمِ
 فَاسْتَنَّا كَالشَّهَابِ ضَاحِكَةً عَنِ بَارِقِ فِي الْإِنَاءِ مُبْتَسِمِ
 صَفْرَاءُ زَيْتِيَّةٌ مُوشِحَةٌ بِأَرْجُونَ مُلَمَعٌ صَرِيمِ
 أَخَذْتُ رَيْحَانَةَ أَرَاخُ لَهَا دَبَّ سُرُورِي بِهَا دَيْبَ دَمِي
 فَرَاجِعِ الْعُذْرَ إِنْ بَدَا لَكَ فِي الْعُذْرِ وَإِنْ عُدْتَ لِأَيْمًا فَلَمْ

فانظر إلى هذه القصيدة على طولها ، كيف جادت ألفاظها ومعانيها !
 وانظر إلى حذر الشاعر وإشفاقه ، وانتظاره وفاء صاحبه بالوعد ، ثم
 شكه في هذا الوفاء وهو يستمتع بلذاته ، لشدة حرصه عليه ، وإكباره له !
 ثم انظر إليه كيف يأخذ في تفصيل لذته متبسطاً ، وإذا هو يدنو من الفحش
 قليلاً قليلاً ، حتى إذا لم يبق بينه وبين بلوغه إلا قيد أصبع ، انصرف عنه ،
 وقد ألتَمَّ به إلاماً ، وخيله إليك تخيلاً . فإذا لم يكن بد من التصريح ، ففي

لفظ لا يروع التقيّ ، ولا ينبو عنه سمع الرجل الناسك .
 أتري إلى أبي نواس في مثل هذا الموضع : أكان يعفك من تصريح
 بشع ! أكان يدخل عليك بلفظ مكروه ! بلى ، لو وقف أبو نواس هذا
 الموقف لتعمّد الإفحاش والإساءة ؛ لأن أبا نواس لا يفكر وهو يقول مثل
 هذا الشعر في الشعر وحده ، وإنما يفكر في خصومه الذين ينكرون عليه لذته ،
 فيريد أن يعيظهم ، ويكبتهم ، فيمضي في الفحش إلى غير حد .
 وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي تمثل لك رقة الحسين ولطفه
 في الغزل :

لَا وَحُبِّكَ لَا أَصَا فِجْ بِالذَّمِّ مَدْمَعًا
 مَنْ بَكَى شَجْوَهُ اسْتَرَا حَ وَإِنْ كَانَ مُوجَعًا
 كِبِدِي مِنْ هَوَاكَ أَسْتَقِمُّ مِنْ أَنْ تَقَطَّعًا
 لَمْ تَدْعُ سَوْرَةَ الضَّنَى فِي لِلسُّتْمِ مَوْضِعًا

وما أظن التفسير والتعليق إلا مفسدين لجمال هذا الشعر . وشد ما أحببنا
 أن نسمع متغنياً يتغنى فيه ، كما تعنى فيه القدماء ببغداد ! ولقد فن ثعلب
 بهذا الشعر ، حتى قال لأصحابه : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا .
 ولقد أريد أن أمثل لك شيئاً من عبث الحسين ، فهو كثير ، ولكني
 متحير ، لا أدري ماذا أختار منه . فلأكتف منه بهذه القصّة ، التي لا
 تمثل الحسين وحده ، وإنما تمثل معه أيضاً علمين من أعلام الحياة السياسية أيام
 الواصل . شك الناس في رمضان ، وأمر الواصل بالإفطار ، فكتب الحسن ابن
 رجاء إلى الحسين .

هرزتكَ للصَّبوح وقد نهاني
 وعندى من قيان المِضِرِّ عَشْرُ
 ومِنْ أَمَاهِنِ إِذَا انْتَشِينَا
 فكنْ أَنْتَ الْجَوَابَ فليس شَيْءُ
 أميرُ المؤمنين عن الصَّيامِ
 تطيبُ بهنَّ عاتقهُ المَدَامِ
 ترانا نجتني نَمْرَ الغَرَامِ
 أحبُّ إلىَّ من حَذْفِ الكَلَامِ

قال الحسين : فوردت على رقعته ، وقد سبقه إلى محمد بن الحارث ابن بُسْخُنْرٍ ، ووجهه إلى بغيّام نظيف الوجه ، ومعه ثلاثة غيلمة أقران حسانُ الوجوه ، ومعهم رقعة قد كتبها إلى كما تكتب المناشير ، وختمها في أسفلها ، وكتب فيها يقول .

سِرُّ عَلَى اسْمِ اللَّهِ يَا أَشْـكَلَ مِنْ عُضْنِ لُجَيْنِ
 فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنِي الرَّؤْمِ إِلَى دَارِ حُسَيْنِ
 أَشْخِصِ الْكَهْلَ إِلَى مَوْلَاكَ يَا قُرَّةَ عَيْنِي
 أَرِهِ الْعُنْفَ إِذَا اسْتَعْصَى وَطَالِبُهُ بِيَدَيْنِ
 وَدَعِ اللَّفْظَ وَخَاطِبَهُ بَعْمَرِ الْحَاجِبِينَ
 وَاحْذَرِ الرَّجْمَةَ مِنْ وَجْهِكَ فِي خَفِيِّ حُنَيْنِ

قال فضيت معهم ، وكتبت إلى الحسن بن رجاء جواب رقعته :

دَعَوْتَ إِلَى مُمَاحَكَةِ الصِّيَامِ وَإِعْمَالِ الْمَلَاهِي وَالْمَدَامِ
 وَلَوْ سَبَقَ الرَّسُولُ لَكَانَ سَعِي إِلَيْكَ يَنْوِبُ عَنْ طَوْلِ الْكَلَامِ
 وَمَاشَوْقِي إِلَيْكَ بَدُونَ شَوْقِي إِلَى زَمَنِ التَّصَابِي وَالغَرَامِ
 وَلَكِنْ حَلَّ فِي نَفْرِ عَسُوفٍ بِمَنْشُورٍ مَحَلِّ الْمُسْتَهَامِ
 حُسَيْنٍ فَاسْتَبَاحَ لَهُ حَرِيمًا بِطَرْفِ بَاعِثِ سَبَبِ الْحَمَامِ
 وَأَظْهَرَ نَخْوَةَ وَسْطَا وَأَبْدَى فِظَاطَهُ بِتَرْكِ السَّلَامِ
 وَأَزْعَجَنِي بِالْفَاطِ غِلَاطٍ وَقَدْ أَعْطَيْتَهُ طَرْفِي زِمَامِي
 وَلَوْ خَالَفْتُهُ لَمْ يَخْشَ قَتْلِي وَقَنَّعَنِي سَرِيعًا بِالْحُسَامِ

ولست أروى لك خبره مع الحسن بن سهل ، ولا قصته في أمر مُسْتَحِيمٍ ، ولا دهائه في أمر الشامي وعشيقته « بَصْبِص » ؛ فأنت تستطيع أن تقرأ هذا كله وأكثر منه في الأغاني . وأحسب أني قد أسرفت في الإطالة ، فأختم

هذه الصحيفة بهذه الأبيات التي قالها الحسين وقد بلغ التسعين أو كاد ، وكان قد نادى المتوكل ، ثم شقت عليه الخدمة فاعتذر ، ووشى به الناس إلى الخليفة ، فكتب إليه هذه الأبيات التي تمثل شعره وهو شيخ قد أدركه الفناء ، فلا تظهر الشعر في هذا السن ضعفاً ولا وهناً ، كما أنها لا تظهر فيه شباباً ولا قوة :

أما في ثمانين وفيتها عذيرٌ وإن أنا لم أعتذرُ
فكيف وقد جزتها صاعداً مع الصاعدين بتسعٍ آخرُ
وقد رفع الله أعلامه عن ابن ثمانين دون البشرِ
سيوى من أصرَّ على فتنةٍ والحد في دينه أو كفرِ
وإني لمن أسراء الإله في الأرض نُصبُ صُروفِ القدرِ
فإن يقض لي عملاً صالحاً أتابُ وإن يقض شرّاً غفرِ
فلا تلح في كبيرٍ هدني فلا ذنب لي أن بلغت الكبيرِ
هو الشيب حل بعقب الشباب فأعقبني خوراً من أشرِ
وقد بسط الله لي عذره فمن ذا يلوم إذا ما عذرُ
وإني لني كنفٍ مغدقٍ وعزٍ بنصر أبي المنتصرِ
يبارى الرياح بفضل السماء يح حتى تبلى أو تنحسرِ
له أكّد الوخي ميراثه ومن ذا يخالف وحي السورِ
وما للجسود وأشياءه ومن كذب الحق إلا الحجَرَ

بشار بن برد^(١)

ليس وجه بشار بذلك الوجه المُشْرِق الجذاب ، الذى يستميلك ويستويك ، وإنما هو فيما أعتقد رجل ثقيل الظل ، له من الفن حظه الموفور ، ولكن روحه فى حاجة شديدة إلى الخفة . ولست أدري أتشاركنى فى هذا الرأى أم تخالفنى فيه ؛ فأنا أعتقد أن من الشعراء والكتاب من تحبهم وتُعجَب بهم ، ومنهم من تحبهم ولا تجعب بهم ، ومنهم من يظفرون بالإعجاب وحده دون الحب ، أى أنا أعتقد أن الشاعر ليس محبباً إلى النفس لأنه مجيد ليس غير ، وإنما يجب أن يجمع إلى هذه الإجادة خيلاً أخرى تدنى منك شخصيته ، وتقارب ما بينهما وبين نفسك ، حتى تحبه وتميل إليه . ولم يرزق الله بشاراً من هذه الخلال شيئاً ، أو لم يكد يرزقه منها شيئاً ، وإنما منحه من القوة الفنية والإجادة فى الشعر حظاً موفوراً ، ولكنه إلى التنفير أقرب منه إلى الترغيب وإيجاد العطف . وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التى ابتلى الله بها بشاراً مصدرراً لحب الناس إياه وعطفهم عليه ورفقهم به ، لو أن بشاراً عرف كيف يتلقى هذه الآفة ، وكيف يحتملها ، وكيف يعرف مكانته منها ، ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النعمة منهم والسخط عليهم ؛ لأنهم يسيئون احتمال هذا البؤس ، أو يضعونه فى غير موضعه . فكم سخطت على معدم ، وكان من حقتك أن ترجمه ؛ لأنه لم يعرف كيف يكون معدماً أو فقيراً . كذلك أصاب الله بشاراً بهذه الآفة ، فسلبه البصر ، وكان إلى ذلك نابعة فى الشعر ، يكاد ينعدم نظيره فى قوة الذكاء وحدة الذهن ، ولكنه أساء احتمال آفته ، كما أساء الانتفاع بذكائه وحدة ذهنه ، فأصبح بغيضاً إلى الناس ، مُدَمِّماً عندهم ، ثقيلاً عليهم ، حتى روى الرواة أن عامة أهل البصرة ابتهجوا لموته ، واستبشروا به ، كأن الله قد أزاح عنهم ضراً .

(١) نشرت بالسياسة فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٤ م .

ربما لم تعرف آداب العرب في إسلامهم شاعرين كبشار وأبي العلاء ، وكلاهما كان قد أصيب بهذه الآفة ، فأسدلت الظلمة بينه وبين العالم وما فيه من جميل أو قبيح . ولكن الفرق بين هذين الرجلين عظيم جداً ، لا أقول من الوجهة الأدبية أو الشعرية ، فليس للمقارنة بينهما من سبيل ، وإنما أقول من هذه الوجهة التي تحبب إليك الرجل ، أو تبغضه إليك . كلاهما كان مكفوف البصر ، وكلاهما كان سيء الظن بالناس ، مسرفاً في سوء الظن ؛ لأنه كان مكفوف البصر ، ولكن أحدهما استطاع أن يحمل مصابه راضياً مطمئناً ، وأن يكون لهذا المصاب نفسه خبيراً خفيف الظل ، جذاباً محبباً إلى النفس ، يكاد يكون كله حباً ، وهو أبو العلاء . أما الآخر فقد احتمل مصابه شر احتمال ، ماذا أقول ! بل هو لم يحتمل هذا المصاب ، وأكاد أحسب أنه لم يفترضه ولم يشعر بوجوده ، بل أكاد أعتقد أنه اتخذ من هذا المصاب وسيلة إلى الفخر والتمدح ، وأسرف في ذلك إسرافاً شديداً ، فكان يحمد الله على العمى ، لأنه يحول بينه وبين رؤية الناس الذين كان يكرههم ويتبرم بهم تبرماً شديداً . وليس هذا شيئاً ؛ فقد يستطيع الإنسان فهمه وتأويله والاعتذار عنه ، ولكن بشاراً تجاوز الحد في ذلك ، فلم يكتف بحمد الله على العمى ، بل اتخذ العمى فخراً ، وزعم أن ذكائه النادر ونبوغه الفذ ، إنما هما أثر من آثار هذه الحنة ، وقال في ذلك كلاماً كثيراً . وكان من اليسير أيضاً أن يفهم الناس ذلك ويحتملوه ، ويجدوا وسيلة إلى الاعتذار عنه ، فليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله قوة العقل ، وشدة الذكاء ، وحدة الذهن ، ونفاد البصيرة ، ومنحه إلى ذلك قوة الجسم ، ودقة الحس ولطفه ، ومنحه إلى هذا وذاك نفساً ناثرة مضطربة ، شرهة إلى اللذة ، لا تتنعم منها بالقليل ، ولا تظفر منها بحظ الا استزادته وطمعت فيما هو أعظم منه ، أقول : ليس من الهين على رجل كبشار قد منحه الله هذا كله أن يحتمل آفة العمى ، راضياً بها ، مطمئناً إليها ، وإنما المعقول أن يحدث ذلك في نفسه سخطاً شديداً على الحياة والأحياء ، لما يجزر عليه ذلك من حرمان . أضف إلى هذا أن حياة بشار تدلنا على أن أهل عصره لم يكونوا أرقاء ، ولا حريصين على الرفق وحسن الأدب ، وإنما كانوا يسخرون من بشار

ويعيشون به ويسرفون في ذلك ، حتى يبلغوا إعناته ، ويخرجوا به عن طوره . فكان هذا كله مصدرراً لما تجده في هذا الرجل من سوء الخلق ، وشدة البغض للناس ، والموجدة عليهم ، وإضرار الشر لهم ، والإسراف في السخرية منهم . وماذا تقول في رجل لم يُخلص لإنسان ! وما نحسب أن إنساناً أخلص له ، وإنما كان سيء الظن بالناس جميعاً ، منطلق اللسان في الناس جميعاً ، يمدح ثم لا يلبث أن يهجو ، وربما مدح وهو يضمّر الهجاء ، بل لعله لم يمدح إلا وهو يزدري ممدوحه . وكان مخلصاً إذا هجا ؛ لأنه كان يزدري الناس ، ويسرف في بغضهم . وقد عظمت في نفسه هذه الخصلة ، حتى استأثرت به ، وسيطرت عليه ، وأصبحت مقياس حياته ، وقانون ما بينه وبين الناس من معاملة . وانتهى أمره إلى أن الناس إنما كانوا يصلونه ويمنحونه الجوائز ، لا إعجاباً به ، ولا رحمة له ، ولا عطفاً عليه ، بل إشفاقاً منه ، لأذاه . وعرف هو منهم ذلك ، فناههم من حيث ينال الضعيف ، مدحهم ولم يكره أن يُنذِر وهو يمدح ، وربما أعرض عن المدح ، واكتفى بالإندار ، وربما أعرض عن المدح والإندار جميعاً ، وسلك أقصر الطرق ، وهجا بالبيت أو البيتين ، فيشفق المهجو من المزيد ، فينزل عند ما أراد . ثم انتهى به الأمر إلى أن أصبح يقيناً عنده ، فأصبح بشار من أشد الناس إثارة لنفسه ، يرى أن الخير يجب أن يكون موقوفاً عليه ، وأن الشر يجب أن يعدّوه إلى غيره . ولم لا ! أليس يرى أنه أذكى الناس ، وأشعر الناس ، وأعلم الناس ! وإذن فيجب على الناس أن يؤمنوا له ، ويدعوا لهواه ؛ فإن فعلوا فذاك ، وإلا ففي لسانه تثقيف لاعوجاجهم ، وإصلاح لما فيهم من فساد . ولهذا لم يعرف هذا العصر رجلاً أطول منه لساناً ، ولا أسرع منه إلى شر ، ولا أشد منه إمعاناً في الفحش إذا هجا ، ولا أقل منه احتفالاً بالعدل أو الظلم .

وأخرى من خلال هذا الرجل ، هي أنه أسرف في بغض الناس وازدراهم ، فأسرف لذلك في إثارة نفسه عليهم . ومن اتصف بالإيثار فقد اتصف بالحبين ، لأن الإيثار في حقيقة الأمر شكل من أشكال الحبين ، ولون من ألوانه . فليس شجاعاً ذلك الرجل الذي يعجز عن أن يأخذ نفسه بما لا تحب ، وإنما الشجاع حقاً هو من بدأ بنفسه ، فأخذها بالخير ،

وحال بينها وبين الشر ، حتى إذا فرغ من نفسه عُنِي بالناس . وكان بشار
 من أشد الناس في عصره جبناً وفرقاً ، كان طويل اللسان ، سفيهاً مسرفاً
 في الهجاء ، إلا أن يبدو له ما يخيفه ، فإذا بدا له ذلك فهو ذليل منكسر .
 وكان يخاف كل شيء : كان يخاف السيف ، وكان يخاف السوط ، وكان
 يخاف اللسان ، وكان يخاف غير هذا كله ، وله في ذلك أحاديث . زعموا
 أنه طلب إلى رجل مصور أن يتخذ له جاماً ، ويرسم فيه طيراً ، ففعل الرجل
 وأقبل إليه بالجام ، فوصفه له ، فلم يرض ، وقال : كان يجب أن ترسم فيه
 طيراً جارحاً يصيد هذه الطيور ، ولكنك عرفت أني أعمى ، فاستخففت بي ،
 فلاهجونك . قال صاحبه : لا تفعل ، فأنت نادم إن فعلت ، قال : أتندرنى ؟
 قال : نعم . قال : وبم ؟ قال : أصورك على صورتك ، وأجعل من ورائك
 قرداً . . . وأضع ذلك على بابي ، ففقهه بشار ، ووصفني بيديه ، وقال :
 قاتله الله ! أمازحه فيأبى إلا الجلد . فانظر إليه أشفق من هذه الصورة ، ولو
 لم ينذره بها المصور لهجاه . وزعموا أنه طلب إلى صديق له تاجر ثياباً بنسيئة ،
 فلم يوفق الرجل لما أراد ، فغضب بشار ، وكتب إليه بيتين من أقبح
 الشعر ، ولم يكن هذا الرجل شاعراً ، ولكنه اغتاض لهُذَيْن البيتين ، فرد عليهما
 بشر منهما ، فانكسر بشار ، وأقسم لا يهجو مثله من سِفْلَة الناس . قالوا :
 وهجا بشار رَوْح بن حاتم ، فجاءه منه التذير ، فلم يحفل ، وألح في الهجاء ،
 فأقسم روح : لئن رأيت لأضربنه بالسيف ، ولو كان بين يدي الخليفة .
 قالوا : فلما انتهى ذلك إلى بشار نهض من فوره ، فدخل على المهدي ،
 وعاذ به فأعاده ، وأرسل في طلب روح ، فكلمه في ذلك ؛ فأبى وقال :
 وقال : إنه أقسم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحتمل يميني . فأحضر المهدي
 الفقهاء ، ليتأولوا له مخرجاً ، فأفتوا بأن يضربه على جسمه بعرض السيف ،
 وكان بشار وراء ستار ، فأخرج ، واستل رَوْح سيفه ، وضربه بعرضه .
 قالوا : فلما أحس بشار السيف جزع ، وصاح أَوْهٍ باسم الله ! فتضاحك
 المهدي . وأحاديث بشار في الجبن والخزع من الهجاء كثيرة لا تحصى .
 وخصلة أخرى تتميز بها شخصيته ، وهي أنه إذا كان أثراً شديداً
 الإشفاق ؛ فقد كان مسرفاً في النفاق أيضاً ، وليس يمثل إسرافه في النفاق
 أكثر من مكانه من الزنادقة ، ورأيه فيهم . وسيرته معهم . كان من أشد

الناس إلحاداً في الدين ، وتهالكاً على اللذة ، وربما لم يكن كغيره من الشعراء الذين قدمنا الحديث عنهم ، يحب المحبون واللذة على غير عقيدة ولا مذهب فلسفي ، وإنما كان رجلاه رأى وبصيرة : يفكر وينظر ويحاج عن رأيه ، وكان صديقاً لواصل بن عطاء ونفر من أصحاب الكلام في البصرة ، فكانوا يتناظرون في الدين ، ثم افترقوا : فأما واصل ففضى في الاعتزال ، وأما غيره فذهبوا مذاهب مختلفة في الكلام ، ومنهم من أُلحد ولم يخف إلحاده ، وإنما ترك البصرة فراراً من أميرها ، وخافة أن يدل عليه أصحابه ومناظروه ، أما بشار فإنه لم يعلن شيئاً خاصاً ، وإنما مضى في سيرته ، يخيل للناس أنه يرى رأى الجماعة ، ويضمّر الزندقة والإلحاد ، ويزدرى رأى الجماعة ، وكان الناس يعلمون منه ذلك ، وكان واصل يعلمه وينكره عليه ويهتف به ؛ فهجاه بشار ، وأسرف في هجائه ، حتى سكت عنه واصل . وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شراً ، ثم لم يكن يكتفى بهذا ، وإنما كان يدفع عن نفسه الزندقة بهذه الطريق يسلكها الجبناء وأندال الناس ، فيتهم بها غيره من خصومه ، ومن أصدقائه أيضاً . وقد مر بك في أحاديثنا الماضية شيء من سيرته مع حماد عجرد ، فقد أسرف في اتهامه بالزندقة . وما نشك في أن حماداً كان من الإجدادة بعيداً عن أن يبلغ حظ بشار .

كانت زندقة بشار علمية إن صح هذا التعبير ، أو قل : كان لزندقته وجهان : أحدهما علمي نظري ، فيه ذكر لمذهبه ، ودفع عنه ، وحوار دونه ، والآخر عملي أدبي ، يشارك فيه حماداً ومطيعاً وغيرهما من المُجَنَّان ، فكان بشار يدين بالرجعة ، ويكفّر الأمة كلها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها حادت عن طريق الدين ، فلما سئل عن علي رضي الله عنه تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عَمْرٍو بصاحبك الذي لا تصحَّحِينَا

وكان يؤثر النار على الطين ، ويفضل النور على الظلمة ، فكان من هذه الناحية فارسي الزندقة ، ثم كان في حقيقة الأمر فارسياً في كل شيء : كان فارسياً في زندقته ، يقدم النار التي يعيدها الفرس ، وكان فارسياً في أهوائه وميوله السياسية ، فلم يكن يحب العرب ، ولا يرتاح إليهم ، وإنما كان يحتملهم احتمالاً ، وكان ينكر الولاء ، ويحث الموالي على أن ينكروه ، وكان

يرى أن الفرس ليسوا أقل كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب . ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس ، وربما فاخر بنسبه الفارسي ، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدي ، ويقولون إن رجلاً من أشرف العرب في البصرة أقبل عليه يعاتبه ، لأنه يفسد الموالى على العرب ، فهجاه ، واضطر الرجل إلى أن يسكت عنه .

كان بشار إذن زنديقاً ، معنأ في الزندقة ، وكان شعوبياً ، متشدداً في الشعوبية ، وكان يحتمي بالنفاق أيضاً ، كما قدمنا ؛ فقد كان يمدح الخلفاء والأمراء وأشرف الناس أيام بني أمية ، وأيام العباسيين ، يطلب منهم المال ، ويطلب منهم الجاه أيضاً ، ولكنه لم يكن مخلصاً في شيء من ذلك . وكان الممدوحون يعرفون منه هذا النفاق ، ويصبرون عليه ، أو يتغاضون عنه ، حلماً مرة ، وعفواً مرة أخرى ، وإشفاقاً في أكثر الأحيان .

فإذا أردت أن تتم شخصيته من حيث هو رجل ، فينبغي أن تضيف إلى كل ما قدمنا خصلة أخرى ، وهي أنه كان شديد الوأع بالنساء ، مسرفاً في التشبيب ، مفتشاً فيه فنوناً لم يسبق إليها ، وكأنه لم يلحق فيها أيضاً . كان شعره كله إغراء بالفجور ، وحثاً على الفسوق ، وإفساداً حتى لأشد النساء حرصاً على الشرف ، أوفرهن حظاً من الإحصاء ، وقد جزع لذلك الناس في البصرة ، فسعى إليه وعآظهم وأهل الصلاح منهم ينهونه ، وهتف به خطبائهم ، والمتكلمون فيهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يؤثر فيه ، ولم يردعه ، بل مضى في نسيه وتشيبه ، وفي استهتاره وتهتكه ، وأكثر نساء البصرة وفتياتها من رواية شعره والاستهتار به ، كما أكثرن من الاختلاف إليه ، ومجاذبتة الحديث ، وكانت له معهن سيرة مرذولة ، فشكا الناس إلى المهدي ، فهناه المهدي ، وأنذره بالموت إن لم يكف عن التشبيب ، وفي ذلك يقول :

يا مَنْظراً حسناً رأيتُهُ من وجه جاريةٍ فدَيْتُهُ
بعثتُ إلىَّ تسومني بُردَ الشبابِ وقد طويتُهُ
وَأللهِ ربُّ محمدٍ ما إن غدرتُ ولا نويتُهُ
أمسكتُ عنكِ وربِّما عرض البلاءِ وما ابتغيته

ابن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتُهُ
 ومخضَّبٍ رخص البنات نِ بكى على وما بكيتُهُ
 ويشوقني بيت الحبيب إذا أدكرتُ وأين بيتُهُ
 قام الخليفة دونه فصبرتُ عنه وما قليتُهُ
 ونهاني الملكُ الهما مٌ عن النساء وما عصيتُهُ
 لا ، بل وفيتُ فلم أضعُ عهداً ولا رأياً رأيتُهُ

قالوا : ووفد بشار على المهدي ، فاشترط الحاجب عليه ألا ينشد الخليفة
 غزلاً ، فلما دخل عليه أنشده هذه الأبيات ، ثم أنشده مدحاً لا غزل فيه ،
 فحرمه المهدي ولم يجيزه ، وقال الناس لبشار : إنما حرمك لأنه لم يستحسن
 شعرك . فقال - وهذا يمثل إعجابة بنفسه - : لقد مدحته بشعر لو قيل في
 الدهر لأمن الناس صروفه ، ولكنه كذب أملئ ؛ لأني كذبت في القول ،
 ثم قال هذه الأبيات :

خَلِيلِيَّ إِنَّمَا سَوَّفَ يُفِيقُ	وإِنَّ بَسَاراً فِي غَدِي لَخَلِيقُ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا	صَحَوْتُ وَإِنَّ مَاقَ الزَّمَانِ أَمْوِقُ
أَأَدْمَاهُ لَا أَسْطِيعُ فِي قَلَّةِ التَّرَى	خَزُرُوزاً وَوَشِيئاً وَالْقَلِيلُ سَمِيقُ
خَذِي مِنْ يَدِي مُاقِلٌ إِنْ زَمَانَنَا	شَمُوسٌ وَمَعْرُوفُ الرَّجَالِ رَفِيقُ
لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ	وَلَا بِشَتِكِي بُمُخْلَا عَلَى رَفِيقُ
خَلِيلِيَّ إِنَّمَا الْعَمَالُ لَيْسَ بِنَافِعِ	إِذَا لَمْ يَنْبَلْ مِنْهُ أَحٌ وَصَدِيقُ
وَكُنْتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَحَلَّةٌ	تَيَمَّمْتُ أُخْرَى مَا عَلَيَّ تَضِيقُ
وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ	لَهُ فِي التَّقَى أَوْ فِي المَحَامِدِ سُوْقُ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَن مُتَعَفِّفٍ	وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرَّجَالِ تَضِيقُ

فإذا أضفت إلى هذا كله أنه كان أفتح الناس وجهاً ، وأنه كان عظيم

الجسم ، ضخم الخَلْقُ ، وكان مع هذا كله يزعم أنه جميل ، وأنه خلّاب للنساء ، وكان مع هذا يجرؤ على أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتٍ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَ

أقول : إذا أضفت هذا إلى ما قدمنا ، تبينت صورة ليست بعيدة ولا كاذبة من هذا الرجل ، الذي لم يكن جذاباً ولا خلّاباً ، لا من الوجهة المعنوية ، ولا من الوجهة المادية . ومع هذا فقد كان شاعراً مجيداً ، أجمع العلماء والرواة في عصره على أنه أشعر أهل هذا العصر ، وزعم هو لنا ذلك ، فتحدّث ذات يوم أن له اثني عشر ألف بيت من جيد الشعر ، فلما سئل عن ذلك قال : إن له اثني عشر ألف قصيدة ، فويل له إذا لم يكن في كل قصيدة بيت جيد . قالوا : ولم يجتمع لأحد من الشعراء مثل هذا المقدار من جيد الشعر . وقد يكون هذا حقاً ، ولكننا في حاجة شديدة إلى أن نظفر من هذا المقدار الضخم بجزء قليل نتخذه مقياساً لإجادة بشار ، وقد أراد سوء الحظ ألا نظفر من شعر بشار بشيء يذكر . ومهما يكن من شيء فأنا أشك في قيمة هذا الإجماع ، الذي انعقد على تقديم بشار ، وإيثاره بالإجادة والتفوق ، وأزعم أن شيئاً من هذا الإجماع يعود إلى سفه بشار ، فقد كان بشار يخيف العلماء ويهجوهم ، هجا سيبوية ، لأنه أنكر عليه كلمات ، فاضطر سيبوية إلى أن يستشهد بشعره ، وتلقه الأخصش لشيء كهذا ، وتلقه يونس بن حبيب ، وكان مع ذلك يكرهه كرهاً شديداً ، ويقال إنه هو الذي وثى به عند المهدي ، وآهمه بالزندقة ، وتلقه الأصمعي من غير شك ؛ فقد كان بشار يهجو باهلة ، والأصمعي باهلي . وبعض هذا الإجماع يعود إلى أن بشاراً كان إذ جده متين اللفظ ، رصين الأسلوب ، مؤثراً لنحو أهل البادية في ألفاظهم وأساليبهم ، وكان لا يكره استعمال الغريب ، ولا يعيبه . وكيف لا يجب علماء اللغة رجلاً يذهب هذا المذهب ! ثم يعود بعض هذا الإجماع إلى أن الناس أطبقوا على خوف بشار ، والإشفاق منه ، فكانت له مهابة لم تكن لغيره من الشعراء . ثم تعلمت عليه طائفة من الشعراء تقدمت في عصرها ، ثم أكثر من الغزل ، ورق فيه ، فأحبه الظرفاء وأصحاب الخلاعة ، وتغنى فيه المغنون . وتحدّث الرواة أن نساء البصرة كن يلجأن إليه إذا احتجن

لحليفة
يه ،
حسن
في
ب ،

عظيم

إلى شعر يَسْتَحْنُ فيه ، فهذا كله مصدر هذا الإجماع ، الذي يقدّم بشاراً على غيره من الناس .

ونحن الآن آمنون من بشار ومن هجائه ، غير متأثرين بما كان يتأثر به المعاصرون له ؛ فنحن أقدر على أن نحكم عليه حكماً صادقاً ، لو أتيج لنا الشرط الأسامي لهذا الحكم ، وهو مقدار ضخم من شعره .

على أني أشارك الرجل الواحد الذي استطاع في ذلك العصر ألا يُعْجَبَ

بشعر بشار ، وأن يشدد النكير عليه ، وهو إسحاق الموصلي . أشاركة ، لا في

إسرافه ، فقد تعصّب على بشار ، كما تعصّب غيره لبشار ، وأرى بشاراً لم

يكن كما ظن القدماء ، ذلك الشاعر الذي لا يُشْتَقُّ له غبار ، وإنما كان شاعراً

كغيره من الشعراء ، له الجيد ، وله الرديء ، وربما قدمت على بشار رجلاً

كأبي نواس ، أو كالحسين بن الضحاك ، غير أني لو أخذت أفصل

هذا الحكم ، وأستدل عليه ، لم أفرغ منه في هذا الفصل ، فالخير أن أرجىء

ذلك إلى فصل خاص ، في الأسبوع الآتي .

باللغة
وخا
بمؤثر
من
في
شده
التقا
إسحا
أن
بشا
وكا
إسحا
لبشا
إسحا
يراه
بشا
في
أن

شعر بشار (١)

قلت في الحديث عن بشار إن القدماء من الأدباء والنقاد وأهل العلم باللغة مجمعون على تقديمه ، وإيثاره على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وخالفهم في هذا الرأي ، وزعمت أنهم لم يكونوا فيه مخلصين ، وإنما تأثروا بمؤثرات كثيرة أشرت إليها . ثم قلت : إنى أرى في بشار رأى الرجل الوحيد من القدماء ، الذي استطاع أن ينكر ما كان من تقديم بشار ، والإسراف في إيثاره ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي ؛ فقد كان إسحاق فيما يظهر شديد الجحود لبشار ، غالباً في السخط عليه والازدراء له ، وكان من النقاد وأهل الأدب من يُسحَّجُه في ذلك ، فيظهر عليه . غير أنى لا أوافق إسحاق بن إبراهيم الموصلي فيما اندفع إليه من غلو وإسراف ؛ فأنا لا أزعّم أن بشاراً لم يكن شيئاً ، ولا أزعّم أن الجيد في شعره قليل ، وإنما أزعّم أن بشاراً كان شاعراً موفور الحظ من الإجابة ، ولكنه لم يكن أشعر أهل عصره ، وكان من أهل عصره من يجب أن يتقدم عليه كأبى نواس . وهنا أخالف إسحاق بن إبراهيم الموصلي أيضاً ، فقد كان ازدراؤه لأبى نواس أشد من ازدراؤه لبشار ، كان لا يعتد بأبى نواس . ولعلنا نتحدث في يوم من الأيام عن إسحاق بن إبراهيم ، فنحاول أن نتفهم مصدر هذه الآراء الغريبة التي كان يراها في بشار وفي أبى نواس وغيرهما من الشعراء ، ولكننا اليوم نتحدث عن بشار ، فلنحرص على ألا نتجاوزَه إلى غيره .

كان إسحاق بن إبراهيم يرى أن بشاراً مختلف الشعر مضطربه ، وأن الغث في شعره لا يعدله غث ولا ردىء ، وكان يقول : إن الذي يقول هذا الشعر لا يمكن أن يكون شاعراً مجيداً ، وينشد :

إِنَّمَا عَظْمُ سُلَيْمَى قَصَبٌ قَصَبُ السُّكْرِ لَا عَظْمُ الْجَمَلِ

(١) نشرت بالسياة في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢ هـ - ١٢ أبريل ١٩٢٤ م

فَإِذَا أَذْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

وفي الحق أن في هذا الشعر من السخف والفجاجة شيئاً كثيراً ، ولكن أين الشاعر الذي يستطيع أن يبرأ من قول فجّ ، ولفظ ضعيف ! ثم أليس من التحكم بل من السخف أن تزعم أن قائل هذين البيتين لا يمكن أن يجيد الشعر ، لأنه قال هذين البيتين ؟ وأنت تعلم أنه قال شعراً آخر كثيراً ، منه الذي بلغ من الجودة منزلة رفيعة ! فدونك الشاعر وشعره ، فاقراً هذا الشعر وانقده ، واحكم على جيده بالجودة ، وعلى رديئه بالرداءة ، واجتهد في أن تتبين الأسباب التي أتاحت للشاعر أن يجيد ، والأسباب التي اضطرتته إلى أن يسف . ولا تقل إن من قال هذا الشعر الرديء لا يستطيع أن يقول جيداً من الشعر . أفلخصمك أن يجيب بأن من قال هذا الشعر الجيد لا يستطيع أن يقول رديئاً من الشعر ، وإذا انتهى بكما الحوار إلى هذا الحد ، فلسنا متبيين إلى خير ، ولا بالعين حجة ، وإنما أنما متعصبان ، قد أسرف كل منكما في تعصبه ، حتى أصبح انتظار الخير منكما عبثاً ، وأصبح من الحق أن تُتسرّكا وما أنما فيه .

نعم ! إسراف أن تحكم على الشاعر بيت أو بيتين ، وإسراف أن تحكم له بيت أو بيتين ، بل إسراف أن تحكم للشاعر المكثّر أو عليه بقصيدة أو قصيدتين أو قصائد ، بل لا ينبغي أن تسلك هذه السبيل في النقد ؛ فهي عتيقة معوجة ، لا تنتهي إلى نتيجة صحيحة ولا مقنعة ، ولا سيما في هذا العصر ، وإنما السبيل أن تتبين روح الشاعر وشخصيته ، وتحكم عليه أو له بما تتبين منهما . ولست أدري أين قرأت أن رجلاً من نوابغ الموسيقى الغربية أراد أن يحكم على شاب موسيقي ، فاستمع إليه وهو يُوقع ، فلما سمعه يوقع ألحانا مختلفة قال : الآن عرفت صوت نفسك . كذلك يجب أن نتبين أصوات نفوس الشعراء ، لنحكم لهم أو عليهم . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرخيم ولا بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذي لا يخلو على ضخامته من حلاوة ولين ، إنما هو صوت لا حظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك . ومهما تكن لبشار الأشعار الجياد البارعة ، فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب

أن كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحببه إلينا ولا يعطفنا عليه ؛ فهو ثقيل حتى حين يضحك ، وهو ثقيل حتى حين يريد أن يضحكك وبرضيك ، وهو مر في جميع مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة فتضحك ، ولكنك لا تضحك ضحكاً صريحاً خالياً من كل شائبة ، وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الألم ، محس شيئاً من المرارة . ومصدر ذلك أن هذا الشاعر كان له مزاج حاد ، أبغض الناس بغضاً شديداً فأصبح إليهم بغيضاً ، وانقطعت بينه وبينهم صلة المودة والعطف ، ولم يبق بينه وبينهم إلا صلة الخوف والتهيب ، يستغلها هو ، ويتيحون له هم أن يسرف في استغلالها . ولقد تقرأ أن بشاراً عتد ما ضربه المهدي الضرب الذي أماته ، لم يبق شريف من أشراف البصرة إلا تطف له ، وأرسل إليه الهدايا . ثم تقرأ أنه مات وأخرجت جنازته ، فلم يتبعها من أهل البصرة أحد ، إلا جارية له سوداء ، سنديّة عجماء ، تصيح : واسيداه ! واسيداه ! فأين هؤلاء الأشراف الذين تطفوا له ، واستبقوا إلى إرسال الهدايا إليه قبل أن يموت ؟ وما بالهم لم يشعوه بعد أن مات ؟ لم يتطفوا له حباً ولا عطفاً ، وإنما تطفوا له تملقاً وإشفاقاً ، فلما أمنوا شره انصرفوا عنه ظاهراً ، كما كانت نفوسهم منصرفة عنه باطناً . غير أني أخشى أن اتهم بالإسراف في بغض بشار ، وتشويه شخصيته ، والله يعلم أني ما أحب بشاراً ولا أكرهه ، ولا يعنيني أن تكون شخصيته جذابة أو منفرة .

أنا أخشى أن اتهم بالإسراف ، فلأجتهد في أن أحملك على أن تشاركني في هذا الرأي الذي أراه ، وعلى أن تحس معي أن بشاراً كان بغيضاً ، حتى حين كان يتندر ، ويريد أن يضحك . قالوا : كان بشار بين يدي المهدي ينشده شعراً ، فدخل يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وكانت فيه غفلة ، فلما فرغ بشار من إنشاده أقبل عليه يزيد ، وسأله : ما صناعته ؟ فأجابه بشار : أنقب اللؤلؤ . ولست أشك في أن جواب بشار بديع مضحك ، مفحم أيضاً ، ولهذا لم يستطع المهدي أن يمتنع عن الضحك ، ولكني لا أشك في أن هذا الجواب قاس ، يدل على حدة المزاج ، ومرارة الطبع ، وغضب المهدي ، فشم بشاراً ، أو قل لام بشاراً على أن تندر على خاله . فلم يكن جواب بشار على لوم المهدي أقل شدة من جوابه على سؤال يزيد ،

إذ أجاب : وماذا أصنع به ؟ يرى رجلا أعمى بين يدي الخليفة يشده شعراً ، فيسأله ما صناعته : قالوا : وممر بشار بقاضي البصرة ، فسمعه يقول في قصصه : من صام رجلاً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرًا في الجنة ، صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشار إلى قائده وقال : بئس والله الدار هذه في كانون الثاني ! . . . وتحدث رجل من أهل البصرة أنه خلا إلى امرأة في علو بيت ، وبشار تحته ، أو في أسفل البيت ، وبشار فوقه ، فنهق حمار في الطريق ، فأجابه حمار في الجيران ، وحمار في الدار ، فارتجت الناحية بنهيقها ، وضرب الحمار الذي في الدار الأرض برجله ، وجعل يدقها بها دقًا شديدًا ، فسمعت بشارًا يقول للمرأة : نُنْفِخْ - يعلم الله - في الصور ، وقامت القيامة ، أما تسمعين كيف يدق على أهل القبور ، حتى يخرجوا منها ! ولم يلبث أن فرغت شاة كانت في السطح ، فقطعت حبلها ، وعدت فألقت طبقًا وغضارة إلى الدر ، فانكسرا ، وتطاير حمام ودجاج كان في الدار لصوت الغضارة ، وبكى صبي في الدار ، فقال بشار : صح والله الخبير ، ونشر أهل القبور من قبورهم ، أذفت - يشهد الله - الآزفة ، وزلزلت الأرض زلزالها ، فقال البصري : فعجبت من كلامه ، وغازطني ذلك ، فسألت : من المتكلم ؟ فقيل لي بشار ، فقلت : قد علمت أنه لا يتكلم بمثل هذا غير بشار . وممر بشار برجل رحمته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكرًا . فقال بشار : استزده يزدك . . . ومثل هذا ما تحدثوا به من أنه حين ضرب الضرب الذي مات له ، كان كلما أوجعه السوط قال : حَسَسَ ، وهي كلمة تألم . فقال بعض الحاضرين : انظروا إليه لا يقول باسم الله ، فقال بشار : ويلك ! أتريد هو فأسمى عليه ! ثم زعموا أن قومًا مروا به يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال بشار : ما لهم مسرعين ! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا ، فيؤخذ منهم ! . . . قالوا : وتوفى له ابن ، فجزع عليه ، فقيل له : أجرٌ قدمته ، وفرطَ افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفتنه ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنقص ، لا أفرح للزيادة ! . . . وتحدث ابن رزّين - وأنا أعتذر من رواية هذا الحديث ، ولكنه يمثل بشارًا أصدق تمثيل - قال : أتينا بشارًا ، فأذن لنا والمائدة موضوعة بين يديه ، فلم يدعنا إلى طعامه ، فلما أكل

دعا بطست ، فكشف عن سواته ، فبال ، ثم حضرت الظهر والعصر ، فلم يصل ، فدنوننا منه ، فقلنا : أنت أستاذنا ، وقد رأينا منك أشياء أنكرتها ، قال : وما هي ؟ قلنا دخلنا والطعام بين يديك ، فلم تدعنا إليه ، فقال : إنما أذنت لكم أن تأكلوا ، ولو لم أرد أن تأكلوا لما أذنت لكم . قال : ثم ماذا ؟ قلنا : ودعوت بطست ونحن حضور ، فبليت ونحن نراك . فقال : أنا مكفوف ، وأنتم بصراء ، وأنتم المأمورون بغض الأبصار ، ثم قال : ومه ؟ قلنا : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فقال : إن الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة .

أعتقد أن هذه الأحاديث التي تمثل ابتسام بشار وتشدّره ، وما كان الله قد وهب له من ظرف وخفة روح ، لا تعطى من بشار صورة الرجل الظريف ، ولا ذى الروح الخفيف ، وإنما تعطى منه صورة قاسية ، صورة رجل قد كره الناس وازدراهم ، ولعله قد كره كل شيء وازدراه ، فهو لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بنفسه ، ولا يترك فرصة تتيح له السخر من الحياة والأحياء إلا انتهرها ، ولم يكن في سخريته هيناً ولا رقيقاً ، وإنما كان غايظاً فظاً ناسياً . ثم إن هذه الأحاديث وما قدمت لك في الفصل الماضي ، من أخبار بشار تمثله منافقاً في سيرته ، يدارى الناس ويتقيهم ليعيش ، ثم يندرهم ويخيفهم لينعم بعيشه ، ثم يسخر منهم متى أتيج له ذلك .

وإذن فهو أقل الناس حظاً من صدق اللهجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ، ولا عما يحس أو يؤمل فيما بينه وبين نفسه ، وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يُظهر ، أو عما يريد أن يتكلف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس شعره شفاءً كشعر أبي نواس ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع ، وحامد عجرد ، وإنما هو شعر كثيف صفيق ، لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب دائماً ، لا يخفل بالكذب ، ويغضب حين يلفته الناس إليه . إنه كان ضخماً فاحش الضخامة ، قوياً شديد القوة ، ثم لم يستح أن يقول :

إِنَّ فِي بُرْدِيَّ جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَانْهَدُمُ

هو إذن ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ، ولا حين يتغزل ،

ولا حين يرثي ، ولعله إن صدق إنما يصدق في موضوعين اثنين من شعره :
يصدق حين يهجو ، لا أريد أنه يصف الناس بما فيهم ، ويضع يده على
مواضع العيب من أخلاقهم وسيرتهم ، وإنما أريد أنه يصدق حين يهجو ،
لأنه يصف نفسه ، ويمثل سخطه على الناس ، وما يضطره إليه هذا السخط
الشديد من ألوان الإسراف والظلم ، وضروب الاعتداء . ويصدق حين يذكر
نفسه وسوء مكانه من الناس ، وبنوع خاص حين يذكر حرمان الذين مدحهم
إياه ، وبخلهم عليه بما كان ينتظر . هو في هذا الموضع من شعره صادق ،
وقد يبلغ التأثير أحياناً . وما أحسب أنك تخالفني في استحسان هذه الأبيات
وصدق الشاعر فيها ، وهي التي قالها حين مدح المهدي ، وألح في مدحه ،
فحرمه المهدي ، وألح في حرمانه :

وإنَّ يَسَاراً في غَدِّ خَلِيقُ	خَلِيلِيَّ إِن العُسْرَ سوف يُفِيقُ
صحوتُ وإن ماقَ الزمانُ أموقُ	وما كنتُ إلا كالزَّمانِ إذا صحا
خُزوزاً ووَشِيّاً والقليلُ سَحِيقُ	أدماءه لأسْطِيعُ في قِلَّةِ الثَّرَى
شموسٌ ومعروفُ الرجالِ رَفِيقُ	خُذِي من يدي ما قلَّ إن زماننا
ولا يَشْتَكِي بَخِلاً عَلَيَّ رَفِيقُ	لقد كنتُ لأَرْضِي بأدنى معيشَةٍ
إذا لم ينل منه أخٌ وصديقُ	خَلِيلِيَّ إِن المَالِ ليس بِنافع
تَبَيَّمتُ أُخْرَى ما عَلَيَّ تَضِيقُ	وكنتُ إذا ضاقتُ عَلَيَّ مَحَلَّةُ
لهُ في التَّقَى أو في الحامِدِ سَوْقُ	وماخابَ بينَ اللَّهِ والناسِ عاملُ
ولكن أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ	ولا ضاقَ فضلُ اللَّهِ عن متعفِّفٍ

ألست تحس معي أن الشاعر صادق متأثر ، وأن تأثره هذا مؤثر أيضاً !
ولا تقل إنه يتكلف الكرم في هذه الأبيات ، فلم يكن بشار بخيلاً ، ولا
محبباً للبخلاء ، وإنما كان كريماً ، لا لأنه يحب الناس ، ويعطف عليهم
بكرمه وجوده ، بل لأنه يزدرى المال ، كما يزدرى الناس ، وله أخبار في
الكرم لا بأس بها ، فقد كان له إخوة ليسوا بالميسورين ، فكان يبجحهم

ماله ، وكانوا يسرفون في الانتفاع بذلك ، حتى لقد كانوا يتعدون على ثيابه فيلبسونها ، وكانوا يتعاطون مهناً لا ينظف صاحبها ، فكانوا يتركون في هذه الثياب روائح لا تطيب ، وكان بشار يكره ذلك ، ويتبرم به ، ولكنه لم يزجر إخوته ، وإنما احتمل منهم ذلك . وزعموا أنه لبس في يوم من الأيام ثوباً من هذه الثياب ، وكان أخ له قد ترك فيه رائحة لا تحب ، فأنكر بعض الناس ذلك على بشار ، فقال : إنما ذلك صلة الرحم ! . وقد نستطيع أن نذكر من كرم بشار ما كان بينه وبين أبي الشَّمَقْمَق من صلة ؛ فقد كان بشار عوداً أن يمنحه مقداراً من المال في كل عام ، وطمع أبو الشَّمَقْمَق في ذلك ، حتى عدّه ديناً . ولعل كرم بشار على أبي الشَّمَقْمَق لم يكن بريئاً ولا خالصاً لوجه الله ، فقد كان بشار جباناً كما قلنا ، وكان أبو الشَّمَقْمَق سيئ الهجاء ، فكان بشار يخافه ويتقيه بالمال ، وله في ذلك نوادر كثيرة . وتحدث بعض الناس أنه دخل على بشار ، فوجد بين يديه دينار ، فقال له بشار : خذ منها ما شئت ، وقص عليه قصتها ، وهي أن أبياتاً من شعره أعانت شاباً على حب ، فحمل إليه مئة دينار . لم يكن بشار بخيلاً إذن ، وهو لا يتكلف الكرم في هذه الأبيات التي قدمناها ، وهو صادق حين يشكو ، وحين يظهر أنه لا يحتمل ضيق الحياة ؛ فقد كان واسع العيش مترفاً ، منعماً في البصرة ، وإنما كان هذا كله يأتيه من الشعر ، ومدحه به أشراف الناس ، وهجائه به أشراف الناس أيضاً ، فليس غريباً أن يسوءه حرمان المهدي إياه ، وليس غريباً أن يحزنه هذا الحرمان ، فقد كان بشار لنفسه مكبراً ، ولم يكن يهون عليه أن يصغره غيره مهما يكن . ويروون أن الناس قالوا لبشار حين حرمه المهدي : إنه لم يستحسن ما قلت فيه ، فأجاب : لا ! والله لقد قلت فيه كلاماً لو قيل في الدهر لأمن الناس صرفه ، ولكنه كذّب أملي ، لأنني كذبت القول فيه . فانظر إليه كيف أبي أن يفترض إلا أن يكون شعره قد أعجب المهدي ، وكيف أكبر نفسه على هذا ، فازدري المهدي ، ولام نفسه ؛ لأنه مدحه بما ليس فيه ! .

على أن صدق بشار قليل نادر كما قلنا ، وهو إن أخطأه الصدق والإخلاص فلن يخطئه الفن وحسن الصناعة ، فهو شاعر يعمل شعره ، ولا يصدر الشعر عنه عفواً ، نريد الشعر الجيد ، الذي يستحق أن يروى ويبنى ، فأما غير

ذلك ، فقد كان يصدر عن بشار في غير تكلف ولا عناء ، وكأن فطنته كانت كهذه الأرض الرخوة التي امتلأت بالماء ، كأنها إسفنجة ، يكفي أن تمسها لينبجس منها الماء ، ولكن هذا الماء لم يكن عذبا في كل وقت ؛ فقد كان لا يخاو من مرارة وفجاجة ، وربما لم يخل من نبتن أيضاً . ومن هنا كثر شعر بشار كثرة فاحشة ، حتى استطاع بشار نفسه أن يزعم أن شعره الجليد لا يقلل عن اثني عشر ألف بيت ، وأنه غير مسرف في ذلك ، لأن له اثني عشر ألف قصيدة ، فيجب أن يكون في كل قصيدة بيت جيد . وقد حدثني قوم أن ديوان بشار موجود الآن في تونس ، أو في بلد غير تونس ، وأن من الأدباء من يعمل لنشره ^(١) . فإذا كان هذا الخبر صحيحاً فسنستطيع أن ندرس بشاراً ونحكم عليه من كُتِبَ ، وأنا لهذا أحتفظ بحكمي عليه ، وأستبيح لنفسى تغيير رأبي فيه ، إذا ظهر هذا الديوان ، وإن كنت أستبعد كل الاستبعاد أن يضطرني ديوان بشار إلى أن أغير رأبي في بشار وشعره . فليس بين يدي من شعره مقدار عظيم ، ولكن هذا المقدار القليل الذي أدرسه وأنقده ، يكفي لأتمثله ، وأحكم عليه . وسرى يوم يظهر الديوان : أخطيء أنا أم مصيب .

بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير ، ولكنه ليس بالقليل أيضاً ، وهو سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا يمثل عاطفة ولا شعوراً صادقاً ، وإنما يمثل أمرين اثنين : يمثل تمهاكاً على اللذة ، وإفحاشاً في هذا التهاك ، وافتناناً فيه أيضاً ، دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً ، ويكفي أن تعلم أن علماء البصرة من أهل الدين والوعظ والكلام ، ومن بينهم واصل ابن عطاء والحسن البصرى ومالك بن دينار جميعاً ، قد هتفوا به ، وشكروه بعد أن وعظوه ونصحوا له ؛ ويمثل رغبة في الفساد وإذاعة السوء ، فلم يكن بشار يكتفي بأن يكون من أصحاب اللذة المتهاكين عليها ، ولهذا كان يتخير إذا تغزل أيسر الألفاظ والأساليب ، وأدناها وأشدها شيوعاً في النساء وفتيات الهوى ، كأنه كان يريد أن يفهمه النساء والفتيات ، وأن يتأثرن به . والغريب أنك لا تجد بشاراً يسف في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفتن من فنون الشعر ، إلا الغزل والهجاء . وهذا واضح ؛ فهو إذا تغزل أراد أن يفهمه النساء ، وأن يكون شعره ذاتعاً ، يتناقله الشبان وأهل الخلاعة ، وهو إذا هجا فقد

(١) يطبع الآن في القاهرة وقد طبع منه الجزء الأول .

كان يريد أن يؤذى من يهجو ، وإنما يؤذيه إذا كان فاحشاً مقذعاً ، وكان مع ذلك سهلاً يمكن فهمه وروايته . ولست أشك في أن المهدي لم يكن جازراً ولا مسرفاً حين نهى بشاراً عن الغزل ، وحين أنذره بالموت إن عاد إليه . ويكنى أن أروى لك هذه القصيدة التي غضب لها المهدي ، لتعلم أن غزل بشار لم يكن من الجوده والظهر بحيث يؤسف عليه :

قد لآمِنِي فِي خَلِيَّتِي عُمَرُ واللوم في غير كُنْهه صَجَرُ
 قَالَ : أَفَق ، قَلتْ لَا ، فَقَالَ : بَلِي قد شاع في الناس منكما الخَبَرُ
 قَلتْ : وَإِذْ شَاعَ مَا اعْتَذَارُكَ مِمَّا لَيْسَ لِي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُدْرُ
 مَاذَا عَلَيْهِمْ ! وَمَا لَهُمْ خَرَسُوا لو أَنَّهُمْ فِي عِيوبِهِمْ نَظَرُوا
 أَعْشَقُّ وَحَدِي وَيُؤْخَذُونَ بِهِ كَالْتَرَكِ تَغْرُؤُ فَتُؤْخَذُ الْخَزْرُ
 يَا مَجْجَبًا لِلخِلَافِ يَا مَجْجَبًا بِنِي الَّذِي لَامَ فِي الْهُوَيِ الْحَجْرُ
 حَسْبِي وَحَسْبُ الَّذِي كَلِفْتُ بِهِ مَنِي وَمَنُهُ الْحَدِيثُ وَالنَّظْرُ
 أَوْ قَبْلَهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ وَمَا بَأْسَ إِذَا
 أَوْ عَصَّةٌ فِي ذِرَاعِهَا وَلَهَا فَوْقَ ذِرَاعِي مِنْ عَضِّهَا أَثْرُ
 أَوْ لَمَسَةٌ دُونَ مِرْطِهَا بِيَدِي وَالْبَابُ قَدْ حَالَ دُونَهُ الشُّرُ
 وَالسَّاقُ بَرَاقَةٌ مُخْلَخَلُهَا أَوْ مِصْرُ رَيْقٍ وَقَدْ عَلَا الْبُهْرُ
 وَاسْتَرَحَتِ الْكَفَّ لِلْعِرَاكِ وَقَا لَت : إِيَّ عَنِّي وَالذَّمْعُ مُنْحَدِرُ
 انْهَضْ : فَمَا أَنْتَ كَالَّذِي زَعَمُوا أَنْتَ وَرَبِّي مُعَازِلُ أَشِيرُ
 قَدْ غَابَتِ الْيَوْمَ عَنْكَ حَاضِرَتِي وَاللَّهُ لِي مِنْكَ فِيكَ يَنْتَصِرُ
 يَا رَبِّ خُذْ لِي فَقَدْ تَرَى ضَرَعِي مِنْ فَاسِقٍ جَاءَ مَا بِهِ سُكْرُ
 أَهْوَى إِلَيَّ مِعْضِدِي فَرَضَّه ذُو قُوَّةٍ مَا يُطَاقُ مُقْتَدِرُ
 أَلْصَقَ بِي لِحِيَّةٌ لَهُ خَشَنَتْ ذَاتَ سَوَادٍ كَأَنَّهَا الْإِبْرُ

أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا نَجْوَى بِهَا فَادْهَبْ فَأَنْتَ الْمَسَاوِرُ الظَّفِيرُ
 كَيْفَ يَا مُمِي إِذَا رَأَتْ شَفَّتِي أَمْ كَيْفَ إِنْ شَاعَ مِنْكَ ذَا الْخَبَرِ
 قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ ، فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ
 قَلْتُ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ : يَا سَكْنِي لَا بَأْسَ ، إِنْ مَجْرَبٌ خَيْرُ
 قَوْلِي لَهَا : بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَالُهُ ظُفْرٌ

روى شيء من هذه القصيدة لمطبع ، ولكن هذا من خطأ الرواة .
 وأنت تقرأ هذه القصيدة ، فإذا أولها حمد متين مستقيم ، لا نكير فيه ، ولكن
 الشاعر لا يكاد يبدأ هذه القصيدة الحليعة ، حتى يُفْحَش ، لا في اللفظ ،
 فليس في اللفظ فحش كثير ، بل في المعنى ، فالمعنى كله فحش . ولست أريد
 أن ألفتك إلا إلى بيتين اثنين من هذه القصيدة : أحدهما بين مهارة بشار في
 محاكاة النساء ، أو نوع من النساء حين يتفجعن في تهالك ولذة ، وهي قوله :

قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ مِنْكَ فَمَاذَا أَقُولُ يَا عِبْرُ

وانظر إلى قوله (يا عبر) . والآخر يمثل النفس الفاتكة الشيطانية التي تعبت
 بالناس ، وتسخر منهم في عنف وقسوة ، وأنا أعتقد أن نفس بشار وخلقه وقلبه ،
 كل هذا مختصر في هذا البيت .

قَوْلِي لَهَا بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَالُهُ ظُفْرٌ

ولست أروى لك غير هذه القصيدة من خلاعة بشار ، فهي تكفي ، وأظن
 أنها تقوم عذراً للمهدى في نهيها بشاراً عن ذكر النساء ، وللعواظ وللعلماء في
 سعيهم ببشار إلى السلطان ، ولا سيما أن أمر بشار لم يكن قد وقف عند قول
 هذا الكلام الفاحش وإذاعته ، وإنما كان النساء يترددن إليه ويشاركنه
 في اللهو ، وكان هو يطلب إليهن المواعيد ، فمنهن من كانت تسايه صادقة
 وفيه ، ومنهن من كانت تعبت به عبثاً منكرأ ، وأخبار ذلك في الأغاني كثيرة ،
 وهي لا تشرف بشاراً ، ولا تدل على أنه كان يكرم نفسه ، ويتأدب بالآداب

التي كانت تفرضها عليه آفته ، وأقلها الحياء والوقار ، ولكنه كان فاجراً مفظوراً على المنجور .

هل أحب بشار حباً صادقاً ؟ هذا سؤال أحاول أن أتمس الجواب عليه في شعر بشار ، فلا أجد إلى ذلك سبيلاً ؛ فقد قلت لك إن شعره كثيف صفيق ، لا يدل على عاطفة ، وإن الكذب فيه كثير ، والتكلف فيه لا حد له ، أريد تكلف المعاني . وأنا أعلم أن بشاراً مشغوف بعبدة ، وقال فيها شعراً كثيراً جداً ، تغنى فيه المغنون ، واعلم أن عبدة ، مالت إليه ، وكان بينها وبينه مودة ، ولكني أقرأ ما بقي لنا من شعر بشار في عبدة فلا أجد فيه شيئاً يمثل الحب الصادق القوي حقاً ، وقد أقرأ هذه الأبيات فأعجب بها وتأثر لها وأحسب الشاعر صادقاً ، ولكني لا ألبث أن أضحك ، لأني أعلم أن الشاعر كاذب ، وأن صاحبه تعلم منه هذا الكذب ، وما أشك في أنها كانت تضحك منه أيضاً ، وتقبله لجلودته الفنية ليس غير . وهذه الأبيات مشهورة يحفظها الناس جميعاً لبشار وهي :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَسَكِنْ لَمْ أَنْمِ وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمْ
رَفَّهِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَاعْلَمِي أَتَنِي يَا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّاتِ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمِ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجْتَ بِالصَّمْتِ عَن لَأَنْهَدَمِ

ولولا هذا البيت الثالث وما نعلم من ضخامة بشار ، لخدعنا الرجل عن نفسه ، فصدقناه ، وخيل إلينا أنه كان لحب عبدة لا ينام ، ولكن من يدرينا أنه لم يكن ينام أهدأ النوم وألذده ، ثم يزعم السهر والأرق ، كما كان يزعم النحافة والنحول !

وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها ، وهي لا تخلو من جودة ، وأنا أرويتها ؛ لأن قصتها لا تخلو من عجب :

أَيُّهَا السَّاقِيَانِ صُبًّا شَرَابِي وَاسْقِيَانِي مِنْ رِبِقِ بَيْضَاءِ رُودِ
إِنَّ دَائِي الظَّمَا وَإِنَّ دَوَائِي شَرِبَةٌ مِنْ رُضَابِ ثَغْرِ بَرُودِ

وَلَهَا مَضْحَكٌ كَعَمْرٍ الْأَقَاحِي وَحَدِيثٌ كَالْوَشْيِ وَشَى الْبُرُودِ
 نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَدْحِ ب ، وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمُسْتَزِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ : نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيْسَالِ وَاللَّيَالِي يُبَيِّنُ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي ، وَعِنْدِي زَفَرَاتٌ يَا كَلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

قالوا : فطرب الوليد وقال : من لى بمزاج كأسى هذه من ريق سلمى ،
 فيروى ظمئى ، وتطفأ غمئى ! ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن
 فاتنا ذاك فهذا .

في هذا الشعر مائة وجودة ورقة ، ولكنى لا أحب أوله ، وربما استسخرفته ،
 ولست أدري كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً من ريق صاحبه ! . . .
 وأحسب أن هذه ليست صناعة السقاة . وإذا كانت هذه القصة
 صحيحة ، فهي إنما تمثل رقة هذا الشاعر ، الذى أحبه وأعطف عليه ،
 وهو الوليد بن يزيد ، الذى فاته ريق سلمى ، فمزج كأسه بالدمع ، يسفحه
 البكاء عليها .

ولترك غزل بشار ، وانتقل إلى شيء آخر من فنون شعره ، ولكن فى
 إيجاز فقد أطلنا .

لبشار قصيدتان اشتهرتا بين الرواة اشتهاراً عظيماً ، إحداهما ميمية ، قدمها
 أبو عبيدة على ميميّات جرير والفرزدق ، وفنن بها الأصمعى ، وتناقلها أهل
 بغداد ، وأعجبوا بها إعجاباً عظيماً ، وهذه القصيدة قصة ، تمثل لنا نفس بشار
 أيضاً ، قالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ، ويحرضه فيها على
 المنصور ، ويهجو فيها المنصور . فلما قمعت ثورة إبراهيم وقتل ، خاف بشار ،
 فحوّل القصيدة ، كأنه لم يمدح بها إبراهيم ، ولم يهج بها المنصور ، وكأنه هجا
 بها أبا مسلم الخراسانى ، فوضع أبا مسلم موضع أبى جعفر ، وحذف من أبيات
 القصيدة ما لم يكن سبيل إلى تحويله ، وهى :

أبا جَعْفَرٍ مَا طَوَّلُ عَيْشُ بَدَائِمٍ وَلَا سَالِمٌ عَمَّا قَلِيلٍ بِسَالِمٍ
 عَلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ يَفْتَحِمُ الرَّدَى وَيَصْرَعُهُ فِي الْمَأْزِقِ الْمُتَلَاخِمِ

كأنك لم تسمع بقتل متوجٍ
 تقسم كسرى رهطه بسيفهم
 وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة
 مقبماً على اللذات حتى بدت له
 وقد ترد الأيام غراً وربماً
 ومروان قد دارت على رأسه الرحي
 فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم
 تجردت للإسلام تعفو سبيله
 فما زلت حتى استنصر الدين أهله
 فرم وزراً ينجيك يا بن سلامة
 لحي الله قوماً رأسوك عليهم
 أقوم لبسام عليه جلالة
 من الفاطميين الدعاء إلى الهدى
 سراج لعين المستضى وتارة
 إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
 ولا تجعل الشورى عليك غصاصة
 وما خير كف أمسك الغل أختها
 وخل الهويني للضعيف ولا تكن
 وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه
 عظيم ، ولم تسمع بفتك الأعاجم
 وأمسى أبو العباس أحلام نام
 عليه ، ولا جرى النحوس الأشام
 وجوه النساء حاسرات العامم
 وردن كلوحاً باديات الشكأم
 وكان لما أجمت نزر الجرائم
 ولا تمقى أشباه تلك النقام
 وتعى مطاه لليوث الضراغم
 عليك فعادوا بالسيف الصوارم
 فلست بناسج من مضيم وضأم
 وما زلت مرءوساً حيث المطاعم
 غدا أزيحياً عاشقاً للمكارم
 جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم
 يكون ظلاماً للعدو المزاجم
 برأى نصيح أو نصيحة حازم
 فريش الخوافي قوة للقوادم
 وما خير سيف لم يؤيد بقائم
 نووماً فإن الحزم ليس بنائم
 شبا الحرب خير من قبول المظالم

القصيدة جيدة ، ولعلها من أجود ما قال بشار ، وهو صادق العاطفة
 فيها ، والناس صادقون حين استحسناها ؛ هو صادق لأنه كان يكره بني
 (١٤)

العباس كرهاً شديداً ، ويؤثر بنى على إثارةً شديداً ، ولم يكن يكره بنى أمية ، ولعله آسف على دولتهم ، فليس عجباً أن يفرح لثورة العلويين ، ويغريهم بالعباسيين في هذه الأبيات المضطربة المتأججة . وكان هؤلاء العلماء الذين أحبوا هذه القصيدة متشيعين أيضاً ، كعمامة أهل العراق ، يظهرون لبني العباس غير ما يضمرون ، ثم كان الناس جميعاً ينتمون من بنى العباس ظلماً واستبداداً بالأمر ، وازدراء للزعماء من العرب ، ومن الموالى أيضاً ؛ فليس عجباً أن يحبوا شعر بشار وأبياته في الشورى ، فهذا الحب وهذا الإعجاب يمثلان قبل كل شيء ما تضرع الشعوب للملوك المبعوضين إليها . على أن صدق بشار ليس وحده الذى يحلى هذه القصيدة ؛ فلفظها متين كما ترى ، ومعانيها جيد ، وإن كانت ليست من العمق والندرة بحيث تكفل البقاء لقصيدة من القصائد ، ولكن فيها قوة غير مألوفة .

أما القصيدة الأخرى فهى البائية التى مدح بها ابن هبيرة ، وقال فيها :

إِذَا الْعَلَّكُ الْجَبَّارُ صَعَرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نَعَاتُهُ

وفى هذا البيت المشهور ، الذى أعجب به الناس إعجاباً شديداً واستكثروه على شاعر ضريب ، وهو :

كَانَ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وليس البيت كثيراً على بشار ، فبشار نفسه ينبتنا بأنه قد قلد فيه قول امرئ القيس :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِهَا الْمُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

فأما تشبيه السيوف بالكواكب ، وتشبيه مثار النقع بالليل ، فشئىء مألوف ، تحدثت عنه الشعراء كثيراً ، وليس لبشار فيه إلا هذه الصورة الشعرية ، التى لم يخترعها كلها ، وإنما تأثر فيها شاعراً قديماً كما ترى .

وجملة القول فى بشار أنه كان شاعراً غزير المادة جداً ، ولكن الجيد فى هذه المادة لم يكن صادقاً فى شعره ولا مخلصاً ، وإنما كان يتكلف المعانى فى أكثر الأوقات ، وكان يتكلف الألفاظ والأوصاف أيضاً ، ولم يكن

محبباً ولا جذاباً ، ولا ليناً رقيق الطبع والحاشية ، وإنما كان قوياً جباراً ، مبعضاً إلى الناس ، مبغضاً لهم . وإذا أردت أن تعرف الفن الذى برع فيه بشار حقاً ، فهو فن الهجاء ، وقد عللنا هذا . وفى الحق أنه قتل الهجاء ، وأن الهجاء قتله أيضاً ، فقد كان فاسقاً ، بل كان زنديقاً ، ولم ينفعه تسره ولا تكتمه ، ولكن الزندقة لم تقتله ، وإنما اتخذت وسيلة إلى قتله ، والذى قتله إنما هو هجاؤه للمهدى بشعر لا أستطيع أن أرويه لك ، وهجاؤه ليعقوب بن داود وزير المهدي ، ولأخيه صالح بن داود ، قال الرواة : إن بشاراً وجد على المهدي وجداً شديداً حين حرمه ، وأعطى غيره من الشعراء ، فذهب ذات يوم إلى حلقه يونس بن حبيب النحوى ، فسأل هل هنا من يُحْتَشِمُ ؟ فقيل : لا ، فأنشده بيتين شنيعين فى المهدي ، لم يلبث يونس وأصحابه أن حملوهما إلى يعقوب ، ولم يلبث هذا أن حملهما إلى المهدي فى تحفظ وتملق وإغراء . قالوا : فغضب المهدي غضباً شديداً ، وقال له يعقوب إنه زنديق ، قد قامت عندى البينة عليه . فأمر المهدي أن يُضْرَبَ ضَرْبَ التلْف ، فضرب سبعين سوطاً مات لها . قالوا : وقد وجد فى بيته طومار أثبت للمهدى أنه لم يكن زنديقاً ولا كافراً ، فندم المهدي لقتله . وسواء أضح هذا الخبر أم لم يضح ، فالهجاء وحده هو الذى قتل هذا الشاعر . ولم يكن من الميسور أن تترك الحرية والحياة لشاعر كبشار ، يعلن فى الجامعات العامة مثل ما كان يعلن عن الخلفاء ووزراء الخلفاء .

بني
ت
لعلماء
برون
باس
ليس
طاب
سدى
فانيها
من
:
:
قوله
قوله
بالي
،
الى
لحيد
باني
كن

والبة بن الحباب^(١)

أبان بن عبد الحميد

كنت أريد أن أحدثك عن شاعر لا أشك في أنه كان أبعد الشعراء
أثراً في عصره ، ولا أشك في أنه كان من أنبيهم ذكراً ، ولا أشك في أنه
كان من أشدهم إمعاناً في المحجون ، وإسرافاً في الفسق والفجور ، وهو والبة
ابن الحباب . ولكني مع الأسف لا أستطيع أن أحدثك عنه بشيء ذي
غناء ؛ لأن الله لم يقدر لشعره البقاء ، ولا لأخباره وسيرته أن يتناقلها الرواة ،
فذهبت حياته كما ذهب أدبه ، دون أن تكون لنا إلى درسهما سبيل ، إلا أن
تكشف الأيام في خزانة من خزائن الكتب عن سفر من الأسفار ، فيه طرف
من أخبار هذا الرجل وأشعاره . ونحن مضطرون إلى أن نُعرض عن درسه
الآن ، ونكتفي بتسجيل اسمه بين أسماء هذا النفر من الشعراء العابثين ، الذين
ندرسهم في هذه الفصولي . نسجل اسمه بين أسماء هذا النفر ؛ لأننا واثقون
بأنه قد كان منهم ، ومن زعمائهم ، بل كان أستاذاً من أساتذتهم في القول
والعمل أيضاً ؛ فقد كان والبة بن الحباب أستاذاً لأبي نواس ، تولى تأديبه
وتعليمه ألوان الشعر والمجون ، ولما يتجاوز أبو نواس سن الغلمان ، ويظهر
أنه قد كانت بين الأستاذ وتلميذه عشرة سيئة ، لم يتخرج من روايتها أبو
الفرج ، ولم يتخرج من روايتها أبو نواس نفسه . ولعل والبة هو الذي مهد
لأبي نواس هذه السبيل المنكرة ، التي سلكها طول حياته ، فجعلته
مبغضاً ، وجعلته محبباً إلى الناس . جعلته مبغضاً لسوء سيرته ، وجعلته محبباً
لحسن شعره ، وشدة ظرفه ، وتقدمه في الأدب إلى حد لم يبلغه كثير من
معاصريه .

كان والبة بن الحباب هذا عربياً صميماً ، من بني أسد وكنا نود لهذا
السبب نفسه أن تكثر لدينا أخباره وأشعاره ، لنعرف كيف كان بلاء العرب

(١) نشرت بالسياسة في ٢٥ شوال سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٩ مايو سنة ١٩٢٤ م .

الصريحين في الزندقة والمجون ، وهذا اللون من ألوان العبث . فلم أحدثك إلى الآن بعد الوليد بن يزيد إلا عن الموالى ، أو من يشك في عربيتهم . أما والبة فلم يكن مولى ، ولم يكن نسبه موضع شك ، ومع ذلك فنحن مضطرون إلى أن نكتفى بهذه الأخبار القصيرة المبتورة التي نقلها إلينا أبو الفرج عن والبة . وهذه الأخبار لا تمثل لنا والبة أقل فجوراً وعبثاً من أبي نواس ، ولا من مطيع ، ولا من حماد ، وربما كان أشد منهم صراحة في القول ، وإسرافاً في الفحش . فالناس يتحدثون أن المهدي أو الرشيد كره لقاءه ومناذمته ، لبيتين قالهما ، فجعل منادمته شراً على كل نديم . أما شعره فلا نستطيع أن نحكم عليه ، لأننا لا نحفظ منه إلا أبياتاً ، ولكن أبا الفرج يحدثنا أنه كان بارعاً في وصف الخمر وما يتصل بها من العبث والغزل والمجون . وإذا ذكرنا الغزل ، فإنما نذكر الغزل بالغللمان ، ويحدثنا أنه لم يبرع في غير هذا الفن من فنون الشعر ، وأنه حاول أن يهاجى أبا العتاهية ، فلم يستطع أن ينال منه شيئاً ، بل لم يستطع أن يثبت في بغداد ، وإنما اضطر إلى أن ينصرف عنها هارباً أو كالهارب .

فلندع والبة إذن ، ولننصرف إلى غيره من شعراء هذا العصر . وإلى من ننصرف ؟ ننصرف إلى أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، فهو خليق أن نقف عنده حيناً ، لا لأنه يمكن أن يقرن إلى بشار ، أو إلى مطيع ، أو إلى أبي نواس ، فهو أقصر باعاً ، وأضيق ذرعاً من أن يثبت لرجل من هؤلاء في الشعر وقوته ، واختلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه ، وصدق لهجته ، لا يستطيع أبان أن يثبت لواحد من هؤلاء في هذه الخلال ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يثبت لهم في خلال أخرى ، ويفوقهم في بعضها ، وله نواح تستحق العناية ، وتدعو إلى التفكير .

لم يكن خفيف الظل ، ولا محبباً إلى الناس ، وإنما كان فيه شيء من الثقل ينفّر منه ويصرف عنه ، وكان الذين يحبونه قليلين ، ولن يكون حظه من حبنا نحن بأوفر من حظه من حب معاصريه . قلنا : إنه يثبت هؤلاء الشعراء في خلال غير التي ذكرناها ، يثبت لهم في الزندقة ، فلم يكن أقل منهم عبثاً ولا مجوناً ، أو قل : لعله كان أقل منهم عبثاً ومجوناً في اللفظ ، ولكن سيرته لم تكن أقل من سيرتهم ، ولعل ضميره كان أقبح من ضمائرهم ، ولعله من أولئك

الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقاً ، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة ، لاعن شك أو رغبة في اللذة ، والذين كانوا يتخذون حياتهم العامة قاعدة تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين : أحدهما يكره العرب ودينهم ، ويزدرهم ويزدرى دينهم ، ويضمر لهم ولدينهم حقداً شديداً ، والآخر يُظهر ، الإسلام ويتكلفه ، ويتمدح به ، ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه . من هذه الناحية هو قريب من بشار ، ولكن بشاراً غلبت عليه صناعة الشعر وعبثه ، فكان إلى العبث اللفظي ، وكان إلى اللذة والهوى أقرب منه إلى هذا الكفر والجمود ، يقومان على عقيدة ثابتة ، وعلى رأى سياسى بعينه .

كان أبان يكره العرب ويزدرهم ، ولكنه كان في الوقت نفسه يتملقهم ويتقرب إليهم ، ويستفيد من هذا الخلاف الذى شجر بينهم ، لينعم على حسابهم بالحياة ولذتها ، كان فارسياً قبل كل شيء ، يريد أن يثار للفرس . ويعيد سلطانهم إلى الأرض ، ولكنه لم يكن مُحَمِّقاً ولا قصير النظر ، بل كان يعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور في العصر الذى كان يعيش فيه من طريق مباشرة ، كما يقول أهل هذا العصر ، كان يعلم حق العلم أن لا سبيل إلى أن يزول سلطان العرب ، ويقوم مكانه سلطان فارسى ؛ فلم يكن يطمع في ذلك ولا يسمو إليه ، وكان يعلم أن هناك وسيلة أبلغ في الانتقام للفرس ، ورد السلطان الفعلى إليهم ، إذا أخطأهم السلطان الشرعى والفظى ، وهو التقرب إلى الخلفاء ، وأخذهم من مواضع الضعف والسيطرة عليهم ، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور ، ويعتمدوا عليهم في ذلك ، فيتركوا السلطان الفعلى للفرس ، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة واسمها ومقامها العالى . وكان هذا المذهب هو المذهب الوحيد المعقول في ذلك العصر ، بعد أن أخفقت تجربة أبى مسلم ، ولم تنتج لصاحبها إلا الموت ، ولا لحزبه إلا الشر كله . وكان زعماء هذا المذهب من الفرس هم البرامكة ، الذين فطنوا للأمر فطنة حسنة ، فأحسنوا العمل والتدبير ، وتصرفوا تصرف الماهر ذى الحيلة الواسعة ، والأمل البعيد ، يسعى إليه في رفق وثبات ، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا ، ثم أصابهم من الغرور والعجلة ما أفقدهم الرفق وحسن الحيلة ، فتعرضوا لما تعرض له أبى مسلم ، وأصابتهم تلك النكبة ، التى كانت أعظم وقعاً وأبعد أثراً من نكبة أبى مسلم . وكان أبان صديقاً للبرامكة ، متصلاً بهم أشد اتصال ،

يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدّها وهزلها ، وصعبها
وهينها ، وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك ، حتى جعلوا إليه
امتحان الشعراء ، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات ، فغضب
الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضباً أبو نواس الذي كان يكره البرامكة
كرهاً شديداً ، كما قلت لك ، حينما كنت أدرس أبا نواس . غضب الشعراء
وغضب أبو نواس خاصة ، وكانت بينه وبين أبا نواس مهاجاة ، تستحق أن نقف
عندها حيناً ؛ لأنها تظهر لنا دين أبا نواس ومذهبه ، ولا سيما أن أبا نواس قد عجز عن أن
يرد على أبي نواس بنحو ما هجاه أبو نواس . فقد هجاه أبو نواس ، فاتهمه
بالكفر والزندقة ، اتهاماً صريحاً منكراً لا يخلو من فحش ، ولم يستطع
أبا نواس أن يردّ على خصمه من هذه الناحية ، فردّ ردّ الضعفاء ، فشمّ أبا نواس
وناله في أمه وأبيه . ولكن هذا الشم لا يدفع تهمة ، ولا يعنى من إثم .
وإليك القصيدة التي قالها أبو نواس بهجو أبا نواس بن عبد الحميد ، وهي تمثّل
رأى أبا نواس حقاً .

شهِدْتُ يَوْمًا أَبَانًا لَا دَرَّةَ دَرَّةَ أَبَانِ
وَنَحْنُ حُضْرُ رِوَاقِ الْآمِيرِ بِالتَّهْرَوَانِ
حَتَّى إِذَا مَا صَلَاةُ الْأُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ
فَقَامَ مُنْذِرُ رَبِّي بِالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ
وَكَلَّمَا قَالَ قُلْنَا إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ
فَقَالَ : كَيْفَ شَهِدْتُمُ بَدَا بِغَيْرِ عِيَانِ
لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى تُعَايِنَ الْعَيْنَانِ
فَقُلْتُ : سُبْحَانَ رَبِّي ! فَقَالَ : سُبْحَانَ مَانِي !
فَقُلْتُ : عَيْسَى رَسُولٌ فَقَالَ : مِنْ شَيْطَانِ
فَقُلْتُ : مُوسَى نَجِيُّ الْمُهَيْمِنِ لِلنَّانِ
فَقَالَ : رَبُّكَ ذُو مُقْلَةٍ إِذْنَ وَلِسَانِ

أَنْفُسُهُ خَالَفَتْهُ أُمٌّ مَنْ ؟ فَتَمَّتْ مَكَانِي
 وَقُلْتُ رَبِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو غُفْرَانٍ
 وَقَمْتُ أَسْحَبُ ذَيْبِي عَنْ هَازِلٍ بِالْقُرْآنِ
 عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى بِالْكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ
 يُرِيدُ أَنْ يَتَسَاوَى بِالْمَعْصِيَةِ الْمُجَانِ
 بِعَجْرِدٍ وَعُـبَادٍ وَالْوَالِيِّ الْهَجَانِ
 وَابْنِ الْإِيَّاسِ الَّذِي نَا حَ نَخَلْتِي حُلُوانِ
 وَابْنِ الْخَلِيعِ عَلَى رِيحَانَةِ النَّدْمَانِ
 ابْنِي وَأَنْتِ

فهذه القصيدة تمثل لا رأى أبان وحده ، بل تمثل أيضاً رأى هذه الطائفة من
 الفرس الذين أظهروا الإسلام ديناً، ورفضوا فيما بينهم وبين أنفسهم ، ورفضوا
 معه المسيحية واليهودية أيضاً ، وأبوا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسي ؛ لأنهم
 اتخذوا ذلك سياسة ومذهباً في السياسة . ثم هي تمثل في الوقت نفسه رأى
 أبي نواس في أبان من الوجهة الأدبية ؛ فهو يكره أن يقرنه إلى مطيع ، وحامد ،
 والحسين ابن الضحاك الخليع ، ووالبة بن الحباب ، وفي الحق أنه لا يقرن
 إلى هؤلاء من الوجهة الأدبية كما قلنا ، ولكنه يفوقهم في الزندقة والإلحاد ؛
 لأنه كان يتخذ الكفر رأياً ، لا وسيلة إلى اللذة . ولست أروى لك رد أبان على
 أبي نواس ، فهو فحش كله ، ونستطيع أن ترجع إليه في الأغاني إن شئت ؛
 على أنه لا يدفع حجة ، ولا يبرئ من تهمة . وانظر إلى هذه الأبيات التي قالها
 أبو نواس في هجاء أبان ، دون أن يعرض لدينه أو رأيه ، وإنما أراد أن يجزي
 شتماً بشتم ، وسبباً بسبب . ولست أروىها كلها ، وإنما أترك منها ما فيه
 فحش .

صَحَّتْ أَمَكُ إِذْ سَمَّيْتُكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
 صَبَّرْتَ بَاءَ مَكَانِ التَّاءِ تَضَحِيْفًا عِيَانَا

حين
 فترى
 وغرو

قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ لَمْ تَرُدْ إِلَّا أَنَا

على أن من الخير أن أعطيك من أبان صورته التي أعطاها هو من نفسه حين أراد أن يتصل بالبرامكة ، فكتب إليهم هذه القصيدة ، وستقرأها فترى أن الرجل معجب بنفسه ، مُدَلِّعٌ بعلمه وأدبه ، تيساه لا حدًا لتيهه وغروره ، وهي :

أَنَا مِنْ بُغْيَةِ الْأَمِيرِ وَكَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُو أَرْبَاحٍ
 كَاتِبٌ ، حَاسِبٌ ، خَطِيبٌ ، أَدِيبٌ نَاصِحٌ ، رَاجِحٌ عَلَى النَّصَاحِ
 شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَخْفُ مِنَ الرَّيْشَةِ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
 لِي فِي النَّحْوِ فِطْنَةٌ وَاتِّقَادٌ

ثم أروى من ابن سيرين للعالم بقول مُنَوَّرِ الْإِنْفِصَاحِ
 ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ لِلشَّامِرِ وَقَوْلِ النَّسِيبِ وَالْأَمْدَاحِ
 وَظَرِيفُ الْحَدِيثِ مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَبَصِيرٌ بِتُرَاهَاتِ الْمِالَاحِ
 كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَاتُ عِنْدِي حَدِيثًا هُوَ عِنْدَ الْمَلُوكِ كَالْتَمَّاحِ
 فَبِمَثَلِي تَخَلُّو الْمَلُوكِ وَتَلَهُو وَتَنَاجِي فِي الْمَشْكَلِ الْفَدَاحِ
 أَيَمَّنُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدٍ لُغْدُوقٍ دُعِيتُ أَوْ رِوَاكِ
 أَبْصَرُ النَّاسِ بِالْجَوَارِحِ وَالْخَيْلِ وَالْبَحْرُودِ الْحِسَانَ الصَّبَاحِ
 كُلَّ ذَا قَدْ جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْبِي ظَرِيفُ الْمَزَاحِ
 لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمُشْمَرِ ثَوْبِيَّةٍ وَلَا الْمَاجِنِ الْخَلِيعِ الْوَقَاحِ
 لَوْ رَمَى بِي الْأَمِيرُ - أَصْلَحَهُ اللَّهُ - رِمَاحًا ثَلَمْتُ حَدَّ الرِّمَاحِ
 مَا أَنَا وَاهِنٌ وَلَا مُسْتَكِينٌ لِسِوَى أَمْرِ سَيِّدِي ذِي السَّمَّاحِ

لستُ بالضحْمِ يا أميرُ ولا القَزَّ م وَلَا بِالْمَجْحَدِرِ الدَّخْدَاحِ
 لِحْيَةٌ جَعْدَةٌ وَوَجْهُ صَبِيحٌ وَاتَّقَادُ كَشَعْلَةٍ الْمُصْبَاحِ
 إِنْ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَائِنَ مِئِي شَمْرِيًّا كَالْبُلْبُلِ الصِّيَاحِ
 أَرَأَيْتَ شَاعِرًا أَشَدَّ غُرُورًا وَافْتِنَانًا بِنَفْسِهِ مِنْ هَذَا الشَّاعِرِ ! عَلَى أَنَّهُ
 لَمْ يَلْبِثْ فِيهَا ذِكْرَ الرِّوَاةِ أَنْ أَخَذَ يَسْعَى بِأَبِي نَوَاسٍ عِنْدَ الْبِرَامِكَةِ ، فَاعْتَاطَ
 أَبُو نَوَاسٍ ، وَنَقَضَ عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ ، فَقَالَ :

أَنْتَ أَوْلَى بِقِلَّةِ الْحِظِّ مِئِي يَا مُسَمَّى بِالْبُلْبُلِ الصِّيَاحِ
 قَدْ رَأَوْا مِنْهُ حِينَ غَشِيَ لَدَيْهِمْ أَخْرَسَ الصَّوْتِ غَيْرَ ذِي إِفْصَاحِ
 مُمٌّ بِالرَّيْشِ شَبَهَ النَّفْسَ بِاخْلَفَ مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
 فَإِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيحِ رَضْوَى عِنْدَهُ خِفَّةَ نَوَى الْمِصْبَاحِ
 لَمْ يَكُنْ فِيكَ مِنْ صِفَاتِكَ شَيْءٌ غَيْرَ خَلْقِي مُجْحَدِرِ دَخْدَاحِ
 لِحْيَةٌ نَطَّةٌ وَوَجْهُ قَبِيحٌ وَانْتِنَاءٌ عَنِ النَّهْيِ وَالصَّلَاحِ
 فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمُلُوكَ عَلَى الْخُرِّ قِ وَيُزْرِي بِالسَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ
 فِيكَ تَيْهٌ وَفِيكَ مُجَبُّ شَدِيدٌ وَطِمَاحٌ يَفُوقُ كُلَّ طِمَاحِ
 بَارِدُ الظَّرْفِ مَظْلِمُ الْكِذْبِ ذُوخَرٍ قِ مُعِيدُ الْحَدِيثِ نَزْرُ الْمَزَاحِ
 فَالَّذِي قُلْتَ فِيكَ بَاقٍ صَحِيحٌ وَالَّذِي قُلْتَ ذَاهِبٌ فِي الرَّيَاحِ

كان أبان إذن مسرفاً في حب نفسه ، والإعجاب بها ، وكان لذلك هجاء قبيح اللسان ، اتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس ، كما اتصل بينه وبين رجل آخر ، كان صديقاً له ، وهو المُعَدَّلُ ، ولكن هجاءه قبيح ، ليس منه ما يصلح للرواية ، على أن المتأنة تنقصه ، وهو من هذا الهجاء الذي تسمعه فتنفر من قائله ، لا ممن قيل فيه . ولم يكن أبان مغروراً ولا مفتوناً بنفسه ولا قبيح اللسان فحسب ، بل كان كذلك شريراً قاسياً ، يؤثر الشر ، ويجد فيه لذة . وقد روى له أبو الفرج قصتين ، كلتاها تمثل نصيبه من القسوة وحب

الشر ، كما أن كليهما تعطينا صورة من شعره ومن الحياة في عصره .
قالوا : كان يقيم بالقرب من أبان رجل ثَقَفِيٌّ يقال له محمد بن خالد ، وكان
عدواً لأبان ، فتزوج محمد هذا ثقفية معروفة ، هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
مولاة جنسان ، التي كلف بها أبو نواس وأكثر فيها الشعر ، وكانت عمارة
غنية موفورة الثروة ، فاغتاز أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة ، التي
بلغت عمارة ، فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَرَّ وَالشَّارَةَ	وَالْفَرَشَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَارَةَ
وَاللَّوْزَ وَالشُّكَّرَ يُرْمَى بِهِ	مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةَ
وَأَحْضَرُوا الْمَلْهَيْنِ لَمْ يَتْرُكُوا	طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زِمَارَةَ
قُلْتُ لِمَآذٍ؟ قِيلَ: أَعْجُوبَةٌ	مُحَمَّدُ زَوْجُ عَمَّارَةَ
لَا عَمَرَ اللَّهُ بِهَا بَيْتَهُ	وَلَا رَأَتْهُ مُدْرِكًا نَارَةَ
مَاذَا رَأَتْ فِيهِ وَمَاذَا رَجَتْ	وَهِيَ مِنَ النَّسْوَانِ مُخْتَارَةَ
أَسْوَدُ كَالسَّمُودِ يُنْسَى لَدَى اللَّهِ	ثُورٌ بَلُّ مِخْرَاكُ قِيَارَةَ
يَجْرِي عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةٌ	أَرْغَفَةٌ كَالرَّيْشِ طَيَّارَةَ
وَأَهْلُهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَوْفِهِ	إِنْ أَفْرَطُوا فِي الْأَكْلِ سَيَّارَةَ
وَيَحْكُ فِرْيَ وَأَعْصَبِي ذَا بِهِ	فَهَذِهِ أُخْتُكَ فَرَّارَةَ
إِذَا غَفَا بِاللَّيْلِ فَاسْتَيْقَظِي	مُمٌّ اطْفِرِي إِنَّكَ طَفَّارَةَ

فلما وصل الشعر إلى عمارة فرت ، وأضاف أبان إلى قصيدته هذه الأبيات :

فَصَعِدَتْ نَائِلَةً سَلْمًا	تَخَافُ أَنْ تَصْعَدَهُ الْفَارَةَ
« سُرُورُ » غَرَّتْهَا فَلَا أَفْلَحَتْ	فَإِنهَا لَخِنَاءُ غَرَّارَةَ
لَوْ نِلْتَ مَا أَبْعَدْتَ مِنْ رِيْقِهَا	إِنَّ لَهَا نَفْثَةَ سَحَّارَةَ

أما القصة الأخرى فأشد من هذه قسوة ونكراً ، وأقبح منها عاقبة وأثراً .
قالوا : كان لأبان جار ، وكان يعاديه ، فاعتلّ علة طويلة ، وأرجف أبان
بموته ، ثم صح من علته ، وخرج ، فجلس على بابهِ ، فكانت علته من السلّ ،
وكان يكنى أبا الأطول ، فقال له أبان :

أبَا الْأَطُولِ طَوَّلْتَ وَمَا يُنْجِيكَ تَطْوِيلُ
بِكَ الشَّلْءُ وَلَا وَاللَّهِ مَا يَبْرَأُ مَسْئُولُ
فَلَا يَغْرُرُكَ مِنْ ظَنِّ كَ أَقْوَالُ أَبَاطِيلُ
أَرَى فِيكَ عَلَامَاتٍ وَاللَّاشِيَاءُ تَأْوِيلُ
هَذَا قَدْ بَرَى جِسْمَهُ كَ وَالْمَسْئُولُ مَهْزُولُ
وَذِبَانًا حَوَالِيكَ فَمَوْقُودٌ وَمَقْتُولُ
وَحَمَى مِنْكَ فِي الْعُظْمِ فَأَنْتَ الدَّهْرَ تَمْلُولُ
وَأَعْلَامًا سِوَى ذَلِكَ تُوَارِيهَا السَّرَاوِيلُ
وَلَوْ بِالْفَيْلِ مِمَّا بَرَى كَ عَسْرٌ مَا نَجَا الْفَيْلُ
فَمَا هَذَا عَلَى فِيكَ قُلَاعٌ أَوْ دَمَائِيلُ
وَمَا بَالُ مُنَاجِيكَ يُوَلِّي وَهُوَ مَعْلُولُ
فَإِنْ كَانَ مِنَ الْخَوْفِ فَقَدْ سَالَ بِكَ الْبَيْلُ
وَذَا دَاءٌ يُزَجِّجُكَ فَلَا قَالَ وَلَا قِيلُ

فلما أنشده هذا الشعر أرعد واضطرب ، ودخل منزله ، فما خرج منه بعد ذلك حتى مات .

قلت : إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، نغني أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ،

وهو فن ليس له في نفسه قيمة أدبية ، ولا سبباً في العصور المتحضرة ، كعصر العباسيين ، وإنما قيمته في تلك العصور التي لاحظت لها من علم ولا من حضارة ، والتي لا تنتشر فيها الكتابة ، ولا يسهل فيها تسجيل العلم وتدوينه ، ففي مثل هذه العصور ينفع الشعر التعليمي ويفيد ؛ لأنه أيسر حفظاً من النثر ، ولعل أول من سبق إلى هذا الفن هو الشاعر اليوناني « هسيود » ، الذي عاش في القرن الثامن قبل المسيح ، ونظم طائفة من القصائد ، فيها جمال شعري لا بأس به ، ولكنه قصد بها إلى تقييد طائفة مما كان اليونان يرونه علماً في ذلك الوقت . فقد نظم تاريخ الآلهة وأحاديثهم ، كما نظم هذه القصيدة المشهورة ، التي تعرف بالأعمال والأيام ، والتي بين فيها فصول السنة ، وما يلائمها من ضروب الزراعة ، وما يحتاج إليه الزارع من أداة وجهد وفن ، إلى غير ذلك مما تجده في هذه القصيدة الجميلة .

إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي ، فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة ، من العلم والحكمة والدين ، وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » ليسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف ، واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أحياناً أربعة من هذا النظم ، ولكن صديقاً لي دلى على كتاب ، أو قطعة من كتاب مخطوط ، توجد في دار الكتب المصرية ، وهو كتاب الأوراق للصولي ، وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلا ودمنة . ولست أريد أن أروي لك منه إلا شيئاً قليلاً جداً ؛ فهو لا يستحق الرواية ؛ ولا العناية في مثل هذا الحديث ، الذي نعني فيه بالأدب والفن ، أكثر مما نعني بالكلام المنظوم ، وهذا أول النظم :

هذا كتابُ أدبٍ ومحنةٍ وهو الذي يدعى كليلَةَ دمنه
فيه ضلالاتٌ وفيه رُشدٌ وهو كتابٌ وضعتهُ الهندُ
فوصفوا آدابَ كُلِّ عالمٍ حكايةً عن السنِّ البهائمِ

فالحكامه يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ وَالسُّخْفَاءَ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ
 وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَسِيرُ الْخَفِظِ لَدَى عَلَى السَّيَّانِ عِنْدَ الْاَلْفَظِ
 وانظر كيف افتتح باب الأسد والثور .

وَإِنَّ مَنْ كَانَ ذِيءَ النَّفْسِ يَرْضَى مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسِ
 كَمَثَلِ الْكَلْبِ الشَّقِيِّ الْبَائِسِ يَفْرَحُ بِالْعَظْمِ الْعَتِيقِ الْيَائِسِ
 وَإِنَّ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يُرْضِيهِمْ شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يُغْنِيهِمْ
 كَالْأَسَدِ الَّذِي يَصِيدُ الْأَرْتَبَا ثُمَّ يَرَى الْعَيْرَ الْمُجِدَّ هَرَبًا
 فَيُرْسِلُ الْأَرْتَبَ مِنْ أَظْفَارِهِ وَيَتَّبِعُ الْعَيْرَ عَلَى أَدْبَارِهِ
 وَالْكَلْبُ مِنْ دِقَّتِهِ تَرْضِيهِ بِلُقْمَةٍ تَقْذِفُهَا فِي فِئِدِ

وعلى هذا النحو العادي الذي لا جمال فيه ، إلا أنه برىء من الرذيلة ،
 يمضى أبان في نظم كتابه . على أنه في هذا ناظم لكتاب معروف ، ولكنه
 قد تجاوز نظم الكتب المعروفة إلى تأليف كتب منظومة ، فنظم
 قصيدة طويلة في الصوم والزكاة ، روى منها الصولي طرفاً ، وهذا
 أولها :

هَذَا كِتَابُ الصَّوْمِ وَهُوَ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا قَامَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ
 مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزَلُ فِي الْقُرْآنِ فَضْلاً عَلَى مَنْ كَانَ ذَا بَيَانٍ
 وَمِنْهُ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ مِنْ عَهْدِهِ الْمُتَّبَعِ الْعَرْضِيِّ
 صَلَّى إِلَهُهُ وَعَلَيْهِ سَلَاماً كَمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ وَعُلَمَاءَ
 وَبَعْضُهُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ مِنْ أَثَرِ مَاضٍ وَمِنْ قِيَاسِ
 وَالْجَامِعُ الَّذِي إِلَيْهِ صَارُوا رَأَى أَبِي يُوسُفَ مِمَّا اخْتَارُوا
 قَالَ أَبُو يُوسُفَ : أَمَّا الْمُفْتَرَضُ فَرَمَضَانُ صَوْمُهُ إِذَا عَرَضَ
 وَالصَّوْمُ فِي كَفَّارَةِ الْإِيمَانِ مِنْ حِنْثِ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ

وَمَعَهُ الْحَجُّ وَفِي الظَّهَارِ الصَّوْمُ لَا يُدْفَعُ بِالْإِنْكَارِ
 وَخَطَأُ الْقَتْلِ وَحَلَقُ الْمُحْرَمِ لِرَأْسِهِ فِيهِ الصِّيَامُ فَافْتَهُمُ
 فَرَمَّضَانَ شَهْرَهُ مَعْرُوفٌ وَصَوْمُهُ مُقْتَرَضٌ مَوْصُوفٌ
 وَالصَّوْمُ فِي الظَّهَارِ إِنْ لَمْ يَقْدِرِ مُظَاهِرٌ يَوْمًا عَلَى مُحَرَّرٍ
 وَالْقَتْلُ إِنْ لَمْ يَكُ عَمْدًا قَتْلُهُ فَإِنَّ ذَاكَ فِي الصِّيَامِ مِثْلُهُ
 شَهْرَانِ فِي الْعِدَّةِ كَامِلَانِ مُتَّصِلَانِ لَا مُفْرَقَانِ
 وَالْحِجْتُ فِي رِوَايَةٍ مَقْبُولَةٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامُهَا مَوْصُولَةٌ
 وَمِثْلُهَا فِي الْعِدَّةِ الْأَيَّامِ لِلْمُحْرَمِ الْحَالِقِ فِي الْإِحْرَامِ
 ثَلَاثَةٌ بِصَوْمِهَا إِنْ حَلَقَا لَا بَأْسَ إِنْ تَابَعَهَا أَوْ فَرَّقَا

ولكننا قد بعدنا عن الأدب وجماله ، وأمعنا في الفقه إمعاناً ، وكأنما نروى
 هذه المنظومات التي حفظناها في الأزهر أيام الصبا .

ولم يقف نظم أبان عند هذين الموضوعين ، بل يحدثنا أبو الفرج أنه نظم
 قصيدة طويلة سماها ذات الحلال ، تناول فيها تاريخ الخليفة ، وغير ذلك من
 موضوعات العلم ، وانتهى فيها إلى المنطق ، فلم يرو لنا من هذه
 القصيدة شيء .

وأحسب أنا مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن ؛
 فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم ، وكان من الحق عليه
 أن يسهل لهم العلم تسهيلاً . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها
 من البرامكة ، حينما نظم كليله ودمنة ، قد أطمعته ، فنظم القصائد الأخرى ،
 ليصيب مثل ما أصاب .

وكان أبان شديد الحرص على المال ، يضحى في سبيله بأشياء كثيرة ،
 منها العقيدة والرأى وكان يحسد مروان بن أبي حفصة ، لمكانه من الرشيد ،
 ولظفره بالصلوات الضخمة ، والجوائز السنية ؛ فقد انتهى الأمر ببني العباس
 مع مروان بن أبي حفصة ، إلى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، فغاظ

ذلك أبان بن عبد الحميد ، وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان . قال الرواة : فعاتب البرامكة ، وأنكر عليهم تقصيرهم في الانتباه به إلى الرشيد ، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان ، فقالوا له : يجب أن تذهب مذهب مروان ، فتدم آل علي ؛ فقال : والله ما أستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله ، وقال قصيدة طويلة ، آثر بها بني العباس على بني أبي طالب ، وأثبت فيها حق بني العباس في وراثة الخلافة دون بني علي ، ودفعها إلى الفضل ابن يحيى ، فركب بها إلى الرشيد ، فنالته صلواته وجوائزته . وهذا أول هذه القصيدة التي ذهب فيها مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة . فلم تكن كلها شيئاً إلى جانب هذا البيت من شعر مروان :

أَنى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
وأول القصيدة :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسَلِّمًا أَعْمٌ بِمَا قَدْ قَلَتَهُ الْعُجْمَ وَالْعَرَبُ
أَعْمٌ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُبَّةِ النَّسَبِ
وَأَيُّهَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ ؟ وَمَنْ ذَاكَ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجِبَ ؟
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتَلْسُكُمُ وَكَانَ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ
فَأَبْنَاهُ عَبَّاسٌ هُمْ يَرِثُونَهُ كَمَا الْعَمُّ لِبْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ

وهي طويلة ولكنها تخلو من كل جمال أدبي ، وقد أجازها الرشيد مع ذلك ، فأحسن جائزتها ، لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة . وقد انتهت بنا القول في أبان إلى السياسة ولا بد لنا من أن نعرض لشاعرين خليقين بالعناية كلها من هذه الناحية ، أحدهما مروان بن أبي حفصة الشاعر السياسي لبني العباس خاصة . والثاني السيد الحميري ، وهو الشاعر السياسي لبني علي خاصة ، وإن كان قد مدح بني العباس ، وظفر بجوائزهم . وإذا درسنا هؤلاء الشعراء الثلاثة من هذه الناحية السياسية ، فسنتهي إلى هذه النتيجة : وهي أن أبان بن عبد الحميد أشدهم نفاقاً ، وأكثرهم اتجاراً برأيه ودينه . كان كالبرامكة يتشيع للعلويين ، ثم طمع في أموال الرشيد ،

فأنكر العلويين ، وآثر عليهم بنى العباس ، وهو يُقسم ما يستحل ذلك ! .
وفي الحق أنه لم يكن يجب آل عليّ ولا بنى العباس ، وإنما كان كغيره
من هؤلاء الفرس ، الذين يذهبون مذهب البرامكة ، يتخذ التشيع للعلويين
لوناً سياسياً ، يخفي أطماعه ومآربه الفارسية . أما مروان بن أبي حفصة فأسرتة
كلها من أتباع بنى أمية وأنصارهم ، والغلاة في مدحهم وتأبيدهم ، ولكن
الله أدال من بنى أمية لبني العباس ، فدار مع الأيام ، ووجد في ذلك مغنماً ،
فاندفع فيه ما اندفع بنو العباس في العطاء . وأما السيد الحميري فعلوى
المذهب ، صادق في علويته ، مسرف فيها إسرافاً لا يعدله إسراف ، ولكن
الله أدال من بنى أمية لبني هاشم ، وكان السيد كغيره من الناس ، يحسبون
أن الأمر سيؤول إلى العلويين ، فلما آل الأمر إلى العباسيين دون العلويين ،
انقسمت شيعة العلويين ، فمنهم من أعلن حقه وسخطه على بنى العباس ،
فاشترك في فن العلويين وثوراتهم ، ومنهم من اتقى ، فحفظ الود لآل علي ، وجامل
العباسيين وأخذ أموالهم « ومن هؤلاء السيد الحميري ، ولكن هذا بحث يحتاج
إلى عناية وتحقيق وروية ، ونحسب أن الخير في إرجائه إلى الأسبوع
الآتي .

مروان بن أبي حفصة^(١)

السيد الحميري

جمعت هذين الشاعرين إلى أبان بن عبد الحميد ، في آخر حديث الأربعة الماضي ، ولم أجمعهما إليه عبثاً ، وإنما جمعتهما إليه لأن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة صلة ، تجعل التفكير في أحدهم وسيلة إلى التفكير في الآخرين . وليست هذه الصلة شعرية ، فهم يتفاوتون في الشعر تفاوتاً شديداً ، لكل منهم فيه مذهبه وسيله كما سنرى . وليست هذه الصلة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ؛ فقد كان أبان بن عبد الحميد من أهل المجون والعبث والزندقة ، يستر ذلك ويخفيه ، حتى خدع الناس عن نفسه ، وحتى غضب يونس بن حبيب وقد ذكر أصحابه كفر أبان . ولم يكن مروان بن أبي حفصة ماجناً ولا عابثاً ولا زنديقاً ، وإنما كان أشد الناس انصرافاً عن اللغو والعبث ، وأشد الناس حرصاً على الجد وحسن السيرة ، لأسباب سنينها بعد حين . أما السيد الحميري فلم يكن من المسرفين في الاستهتار والتهاك ، ولا من الذين يتخذون العبث واللهو سيرة وديناً ، وإنما كان رجلاً كغيره من الشعراء الذين عاشوا في العصر الجاهلي والأموي ، يأخذ بحظه من لذات الحياة ، لا متجاوزاً في ذلك حدّاً ، ولا مستهتراً فيه ، ولا متحدياً غيره من أهل التقى والدين ، كان يشرب الخمر كما كان يشربها جرير والفرزدق والأعشى ، ولكنه لم يكن يعكف عليها عكوف أبي نواس ، ولم يكن يتغنأها أو يُشيد بذكرها ، كانت سيرته في ذلك سيرة الشعراء من العرب ، لا من الموالى ، فسنرى في غير هذا الحديث أن هناك فروقاً جلية بين شعراء العرب وشعراء الموالى ، تفسر لنا هذا المجون الكثير الذي نجده في صدر الدولة العباسية .

ليست الصلة إذن بين هؤلاء الشعراء الثلاثة مجوناً ولا عبثاً ولا زندقة ،

(١) نشرت بالسياسة في ١ من ذي القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ م .

ولا تشابها في المذهب الشعري والأدبي ، وإنما الصلة بينهم سياسية ، الصلة بينهم هذا المذهب السياسي الذي ذهبه جميعاً ، دون أن يكونوا فيه جميعاً مخلصين ؛ فكلهم مدح بنى العباس ، وتقرب إليهم ، وأفاد من أموالهم ، وكلهم كان هواه مع غير بنى العباس ، ولا بد من توضيح ذلك بشيء من التفصيل . رأينا في الحديث الماضي أن أبان بن عبد الحميد لم يكن مخلصاً لبني العباس ، ولكنه كان مخلصاً لمال بني العباس ، يشبهه ويحرص عليه ، فعاتب البرامكة ؛ لأنهم لم يقدموه إلى الرشيد ، فلما قال البرامكة إن الحق عليه في ذلك أن يهجو العلويين ، ويؤثر عليهم بنى العباس ، أظهر تردداً ، وقال إنه لا يستحل ذلك ، ثم أصبح فاستحله كما قلنا ، وأنشأ قصيدته المعروفة ، يثبت فيها أن بنى العباس أحق بوراثته الخلافة من بنى علي ، ولم يكن أبان علويّاً مخلصاً ، وإنما كان قبل كل شيء فارسياً مخلصاً ، وكان كغيره من هؤلاء الفرس ، يتخذ التشيع لعل وآل بيته لوناً سياسياً ؛ إذا كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي ، وحريةهم الدينية ، على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام ؛ فلم يكن لهم بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب ، وهو حزب العلويين . وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد طوال أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه ، حتى وصلوا به إلى السلطان . ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ؛ لأن ظروفًا سياسية خاصة ، تدرس في التاريخ لا في هذه الصحيفة الأدبية ، دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى علي ؛ فلان الفرس ومروا ، وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان . وتشدد منهم في مذهبهم العلوي قوم ؛ لقوا في سبيل هذا المذهب منيائهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً . وقد حدث في ذلك الوقت شيء يشبه كل الشبه ما حدث في فرنسا أيام الثورة التي ظهرت سنة ١٨٣٠ ؛ فقد قام الجمهوريون بالثورة وهيثوا أسبابها ، وانتهوا بها إلى الفوز ، حتى أزالوا سلطان « بوربون » ، ولكن ظروفًا سياسية خاصة حادت بالحكم عن الجمهوريين إلى آل « أورليان » ، فقام ملك « لويس فيليب » وانقسم الثائرون المنتصرون إلى قسمين متنازعين : قسم الجمهوريين الذين عملوا وضحوا ، وفازوا ، ثم قسم أنصار « أورليان » الذين اجتنوا

ثمار الفوز ، وكان الجمهوريون يقولون إن خصومهم قد اختلسوا الجمهورية (Esaemoter la République) وانقسم هؤلاء الجمهوريون فيما بينهم وبين أنفسهم ، فمنهم من مال إلى الدولة الفائزة ، فانصرف من الحكم الجمهورى إلى الحكم الملكى الحر ، ومنهم من تشدد فى مذهبه الجمهورى ، ومضى يأتمر ويدبر الثورات. حدث هذا أو شئء قريب منه جداً حين قامت الدعوة الهاشمية لتقضى السلطان الأموى . فقد كان سواد الناس يدعو للعلويين وينصرهم ، حتى إذا تم الفوز لهذه الدعوة الجديدة ، لم ينتصر العلويون ، وإنما انتصر بنو هاشم جملة على بنى أمية ، واستأثر بالحكم من بنى هاشم آل العباس دون آل على . فانقسم الهاشميون على أنفسهم : منهم من أيد العباسيين تأييداً ظاهراً خالصاً ، ومنهم من أيد العلويين ، فضى يأتمر ويثور ، ثم انقسم العلويون فيما بينهم وبين أنفسهم أيضاً ، فاطمان بعضهم إلى السلطان القائم ، وأرجأ الثورة إلى سنوح الفرصة . وأبى بعضهم إلا أن يثور . وعلى هذا كان مقام العلويين من العباسيين فى ذلك الوقت مقام الجمهوريين من أنصار « أوليان » سنة ١٨٣٠

أما الفرس فقد ذهبوا هذا المذهب نفسه ، وانقسموا هذا الانقسام نفسه ، وكان أبان بن عبد الحميد من الذين اعتدلوا فى الحكم ، فأبوا أن يظهروا النصر لبني العباس ، كما أبوا أن يظهروا السخط عليهم ، ثم رأى هذه الأموال الضخمة التى يقيدها مروان بن أبى حفصة من خلفاء العباسيين ، فطمع وعدل عن مذهبه السياسى . فلم يبق علويّاً معتدلاً ، بل أصبح عباسياً متطرفاً ؛ هذا هو أبان بن عبد الحميد .

أما السيد الحميرى فقد استطاع أن يكون علويّاً متطرفاً ، وعباسياً معتدلاً ، واستطاع ذلك فى وقت واحد ، فكان من أشد الناس إخلاصاً لآل على ، يجهر بذلك ويعلنه ، ولا يتحرج منه . وكان فى الوقت نفسه مسروراً بفوز بنى العباس ، لأنهم فازوا على العلويين ، بل لأنهم يمثلون بنى هاشم ، الذين فازوا على الأمويين ، كان يجمعه إلى أنصار بنى العباس الفرح بسقوط الأمويين ، وكان يعلن هذا الفرح ، وينتظر أن يأتى يوم آل على . وهو لا ينتظر هادئاً ولا صامتاً ، وإنما كان ييث الدعوة لآل على ، ويبذل فى ذلك من الجهد والقوة ما استطاع . ثم لم يكن فرجه بسقوط الأمويين وحده هو الذى يدنيه من بنى العباس ، وإنما كان هناك شئء آخر يدنيه منهم ، وهو الرغبة والرغبة ، كان يطمع فى أموال بنى العباس ، ويفيد

منها غير قليل ، وكان يخشى بطشهم ، فبتقيه بالقصيدة يمدح بها آل العباس ، بين القصائد الطوال الكثيرة يشيد فيها بآل عليّ .

أما مروان بن أبي حفصة فكان شيئاً غير هذا كله ، كان رجلاً يخالف هذين أشد الخلاف ، ولا يتفق معهما إلا في شيء واحد ، هو مدح بني العباس وتأييدهم . كانت أسرة مروان بن أبي حفصة منذ عرفها الأدب والتاريخ متصلة ببني أمية ، محسوبة عليهم ، إن قبلت هذا التعبير ؛ فقد كان أبو حفصه جده الأعلى عبداً فارسياً لمروان بن الحكم ، شهد معه حصار عثمان في داره ، وأبلى في الدفاع عن الخليفة بلاء حسناً ، وأظهر شجاعة ومكرّاً في حماية مولاه مروان ، وإنقاذه من الموت ، ثم شهد مع مروان جميع مواقفه السياسية والحربية المشهورة ، وكان يعينه فيما تولى من الأعمال قبل خلافته ، ونشأت عن ذلك صلة من صلوات الموالات القوية المتينة ، بين آل أبي حفصة وآل مروان ، حتى لقد كان الخلفاء من بني مروان يؤثرون آل أبي حفصة على العرب ، وعلى أشرف العرب أيضاً ، وحتى لقد أبى خليفة مروان أن يسمع لنفر من أشرف العرب ، أقبلوا يشكون إليه أن رجلاً من آل أبي حفصة قد أصهر إلى العرب ، وخالف الحكم الشرعي الذي لا يبيح للمولى تزوج العربيات ، أبى الخليفة أن يسمع لهذه الشكوى ، بل زجر الشاكين زجراً شديداً ، واضطر الخفصي إلى أن يسعى لدى الخليفة في الرفق بهم والعطف عليهم . وكان من آل أبي حفصة شعراء ناصرُوا الأمويين مناصرة شديدة ، حتى إن أحدهم ندم على عصر الحجاج ، وزعم في شعر له أن الدين قد تعرض للخطر من حادث الحجاج ، فاضطربت أمور العراق ، وظهر فيه الناثرون ، كل هذا يبين لك شدة هذه الصلة التي كانت بين الأمويين وبين آل أبي حفصة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك شيئاً آخر ، هو الذي نقصد إليه في هذا الحديث ، وهو خلُق مروان بن أبي حفصة .

فما كان الحظ يدل من بني أمية لبني العباس ، حتى انتفض مروان ابن أبي حفصة ، فإذا هو شاعر بني العباس ، ولسانهم السياسي ، وإذا هو أشد الناس انتصاراً لهم ، وأبلغ الناس دفاعاً عنهم ، وإذا هو الشاعر الذي نستطيع أن نقول فيه : إنه نظم الدفاع عن نظرية العباسيين في وراثة الملك ، وصاغها في هذه الصيغة الفقهية الشعرية معاً ، فقال :

أنى يكونُ وليسَ ذاكَ بكائِنِ لبني البناتِ وِراثةُ الأعمامِ

يريد أن العباسيين أحق بوراثته النبي ؛ لأن أباهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق بوراثته ابن أخيه من الأسباط ، وذلك بحكم الفقه والميراث . وقد وقع هذا البيت على العلويين وأنصارهم موقع الصاعقة ، فاضطربوا له اضطراباً شديداً ، واشتد سخظهم على مروان ، وأضمرُوا له الشر ، وأظهروا له اللعنة ، وما زالوا به حتى قتلوه ، كما سنرى . أما موقع البيت مع العباسيين فقد كان أجمل وقع وأحسنه ، حتى كان مروان شاعر الحزب العباسي حقاً ، وكان أثيراً عند المهدي والهادي والرشيدي ، وكان مروان أول شاعر أخذ من العباسيين مئة ألف درهم مرة واحدة ، ثم كانت لهم عليهم دالة ، وكانت له عندهم عادات ، فتقرر في ديوان الخلافة أن جائزة مروان يجب أن تكون ألوفاً ، تعدل أبيات قصيدته عدداً ؛ فكان إذا بلغ بقصيدته المئة ، بلغت جائزته مئة ألف . وهذا هو الذي غاظ أبان ابن عبد الحميد ، فكان منه ما كان . على أن أبان بن عبد الحميد حين أراد أن يقلد مروان بن أبي حفصة لم يستطيع أن يكون شاعراً ، وإنما كان فقيهاً ، يناضل عن رأى في الفقه ، ففصل النظرية العباسية تفصيلاً ، ودافع عن كلياتها وجزئياتها ، كما يقول أصحاب المنطق ، دفاع الفقيه . فكيف استطاع مروان بن أبي حفصة أن ينكر ماضيه وماضى أسرته ، وأن يجحد ولاء الأمويين ، وينتفض فإذا هو عباسي أكثر من العباسيين ؟ ليس الجواب عليه عسيراً ، ولا في حاجة إلى بحث وتدقيق ؛ فقد كان مروان بن أبي حفصة محباً للمال ، شرهاً إليه ، لا يشبع منه ، ولا يقنعه منه الكثير . كان محباً للمال ، هذا التعبير ضعيف ، لا يصف مروان ولا خلقه ، وإنما كان مروان يعبد المال عبادة ، ويقدهه تقديساً ، وكان فيما بينه وبين نفسه يزدرى الأمويين والعباسيين والعلويين ، وكان فيما بينه وبين نفسه مقتنعاً بأنه يفوز بأموال العباسيين ، فلو أدال الله منهم للأمويين أو للعلويين لسار مع الدولة الجديدة سيرته مع الدولة القديمة ، ليظفر منها بهذا المال الذي يعبده ويقدهه . لم يكن إذن عباسياً مخلصاً ، بل لم يكن شاعراً من شعراء الأحزاب بالمعنى الصحيح ، لم يكن من هذه الألسنة السياسية الحزبية التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، التي لا تؤثر المال على الرأى ولا تضن بالنفس على الموت ، في سبيل الرأى السياسى . لم يكن مروان من هؤلاء ، وإنما كان شاعراً مجيداً ، يستطيع أن يكسب المال بشعره ، وقد رأى فرصة سانحة ، فأحسن انتهازها ، وقدّر له التوفيق ، فجمع من المال ما لم يجمعه شاعر

من قبله وأمثال مروان بن أبي حفصة كثيرون في عصور الثورات والاضطراب السياسي ، والجهد العنيف بين الأحزاب ، تجدهم في كل مكان وفي كل زمان ، ولكن الذين يبلغون من الإجادة الفنية بين هؤلاء ما بلغه مروان قليون جداً . كان مروان شرهاً إلى المال ، ولكن الغريب من أمره أنه لم ينتفع بهذا المال ، ولم يستمتع بشيء منه ، وإنما عاش عيشة بؤس وحرمان ؛ فكان من أبخل الناس ، وتستطيع أن تقول إنه كان أبخل شاعر عرفته العرب إلى ذلك الوقت ، وكان الناس يضربون الأمثال ببخل مروان ، ويتدرون به في مجالسهم وأحاديثهم ؛ فهم يقولون مثلاً إنه كان إذا قدم بغداد ، ليمدح خليفة من الخلفاء . ويظفر بجائزته ، لم يأكل إلا الرأس ، يبعث غلامه فيشترى له رأساً ، فيعيش عليه حيناً ، وقد كلف في ذلك ، فأجاب جواباً بديعاً ، أجاب بأن الرأس لا يكلفه طبخاً ولا تهيئة ، فهو إذن يكفيه بعض المؤونة ، ثم أنه لا يحتمل زيادة ولا نقصاً ، فلا يستطيع الغلام أن يخونه فيه ، فهو إن أكل أذنناً أو عيناً أو نحو ذلك ، ظهر سيده على ما أكل . ثم إن له في الرأس مرافق ، فهو يتخذ منه ألواناً مختلفة ، دون أن يتكلف لذلك الأثمان ، التي يتكلفها الذين يريدون أن يتخذوا من الطعام ألواناً مختلفة ، فهو يأكل الأذنين لوناً ، والعينين لوناً آخر ، والغلصمة لوناً آخر ، وعلى هذا النحو . وزعم ناس من الرواة أنهم مروا بمروان ، فترلوا عنده في اليمامة ، فأطعمهم لحماً ، فلما فرغوا من طعامهم دفع إلى غلامه فلساً وآنية ، ليشتري له شيئاً من الزيت يطعم منه ؛ فذهب الغلام وعاد بالزيت ، ولكن مروان اتهمه بالسرقة والحيانة ، فجعل الغلام يسأله كيف أخونك في فلس واحد ، وجعل مروان يجيب : أخذت الفلاس ، واستوهبت الزيت . ثم يتحدثون عن مروان نفسه أنه قال : ما فرحت لشيء قط كما فرحت يوماً وقد أجازني المهدي بمئة ألف دينار ، فوزنتها فزادت درهما ، فاشترت به لحماً ؛ ويقولون . إنه مر بامرأة فأضافته ، فلما أراد الانصراف وعددها إن بلغت جائزته مئة ألف أن يهب لها درهما ، فلم تبلغ جائزته إلا ستين ألفاً ، وكان يريد مع ابن زائدة ، فوهب للمرأة أربعة دوانق ، وهو شيء لا يكاد يبلغ ثلثي الدرهم ، كما أن الجائزة لم تبلغ ثلثي مئة الألف .

وأحاديث مروان في البخل والحرص كثيرة ، روينا لك منها هذا الطَّرَف ، لنصور لك حبه للمال تصويراً كافياً ، على أن هذا التصوير في حاجة إلى أن تنمته ونكمله بقصة رواها أبو الفرج ، ولها قيمتها ، لأنها تمس شعر مروان ، وهي أنه

مر ذات يوم برجل من باهلة وهو ينشد جماعة قصيدة له ، كان قد أنشأها في مدح مروان بن محمد الأموي ، قبل أن يبلغ هذا الشاعر الخليفة بقصيدته ، فاستمع مروان لهذه القصيدة ، فأعجبته ، وكان أولها :

مَرَوَانُ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا بَنُو مَرَوَانَ

فلما فرغ الشاعر من إنشاد قصيدته ، تبعه صاحبنا إلى بيته ، وقال له : إنك لم تظفر من هذه القصيدة بما كنت تريد ؛ فقد قتل مروان ، وذهبت دولته ، فبغنى هذه القصيدة ، لأنتحلها لنفسى ، وتفوز أنت بشيء من المال . قال الرجل : قد فعلت . فساومه مروان ، وانتهيا إلى ثلاث مئة درهم ، ثم استحلف مروان صاحبه بالطلاق والأيمان المُسْحَرَجَةَ أَلَاً يذكر هذه القصيدة ولا يروها ، ولا ينسبها إلى نفسه ، فحلف الرجل ، وانصرف مروان إلى بيته ، فغَيَّرَ القصيدة وزاد فيها ونقص منها ، وحوطها إلى معن ابن زائدة ، فقال :

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ

ووفد بها على معن ، فلأ يديه ، وأقام عنده مدة ، حتى أثرى . على أننا نستطيع أن نعرف كيف اتصل مروان بن أبي حفصة ببني العباس ، فبلغ عندهم من الحظوة ما بلغ ، وظفر منهم بما كان يطمع فيه من مال . يظهر أنه في أول أمره لم يكن يفكر في الاتصال بهم ، ولا في الارتقاء إلى هذه المنزلة ، منزلة الشعراء الذين يبلغون قصور الخلفاء ، وينشدونهم فيها الشعر . وكأنه كان قد ترك ذلك لأهل العراق ، واكتفى بحظه من معن بن زائدة ، وقد كان هذا الحظ عظيماً موفوراً ، فجُودَ مَعْنُ مَعْرُوفٌ ، وقد عرف مروان كيف يستغل هذا الجود ويستثمره . لكنَّ معنًا مات ، فحزن عليه مروان ، ورثاه رثاء كثيراً جيداً ، منه هذان البيتان :

أَقْنَا بِالْيَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ مُقَامًا لَا نَرِيدُ بِهِ زَوَالَ

وَقُلْنَا أَيْنَ نَرَحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النِّوَالُ فَلَا نَوَالَ

ثم بداله ، فوفد على المهدي فيمن وفد عليه من الشعراء ، وكان اسمه وشعره قد سبقاه إلى المهدي ، كما سبقاه إلى المنصور من قبل . ولعل اسم مَعْنُ هو الذي

رفع مروان ، حتى انتهى به إلى قصور الخلفاء .

وقد على المهديّ ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها . فسأله المهديّ : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك ، مروان بن أبي حفصة ، قال المهديّ ألسنت القائل ، وذكر البيتين السابقين ، ثم قال : لقد ذهب النوال فيما زعمت ، فلانوال لك عندنا ، ثم أمر به فسحب برجله ، حتى أخرج . ومن قبل المهديّ وجَد المنصور على مروان ؛ لأنه أحسن مدح معن ، ووجد على معن ؛ لأنه أكثر العطاء لمروان ، حتى إنه لام معناً في ذلك ، ولكن معناً عرف كيف يخلص من لوم المنصور .

كان المهديّ إذن واجداً على مروان ، حاسداً لمعن بن زائدة ؛ ولهذا حرم مروان وأهانه ، وكان مروان قد فهم هذا ، وكأنه قد استفاد من رحلته هذه ، فعرف الميول السياسية حول الخليفة ، واستفاد مما عرف ، فأقام عامه في بلده النجامة ، ثم استأنف الرحلة ، فدخل على المهديّ مع الشعراء ، وأنشده ، وكان الخامس أو السادس بين المنشدين ، وأنشده قصيدة يظهر أنها خلبت أهل عصره ، وكان من حقها أن تغلبهم ، فلينها آية من آيات الشعر السياسي ، وآية الجودة في اللفظ والمعنى ، وصفاء الأسلوب ورقته ، في غير ضعف ولا ركة ولا تبذل ، ومطلعها :

طَرَقْتِكَ زَائِرَةً فحَى خَيَالِهَا بيضاء تَحْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
قَادَتُ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَّالِهَا

فلم يكذباً في إنشاده حتى أخذ على الناس أهواءهم ، فاستمعوا له معجبين ، وبلغ بهم ذلك أنهم كانوا كأنما تعلقوا بشفتي الشاعر ، حتى إذا هجم على الموضوع السياسي ، وأخذ يُحَاجُّ العلويين ، ويخاصمهم عن حق بني العباس في وراثة الخلافة ، أخذ المهديّ يزحف من صدر مُصَلِّاه ، حتى صار على البساط ، إعجاباً بما يسمع . وإليك هذه الأبيات التي استخفت المهديّ ، وأحسب أنها ما تزال تستخف من له علم بالحياة السياسية يومئذ :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نَجْمَهَا بَأْ كُفِّكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا
أَوْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةَ عَنْ رَبِّكُمْ جِبْرِيْلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدْتُ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بَرَأْتَهُمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا

فلما فرغ من إنشاده سأل المهدي عن القصيدة كم هي ؟ قال مروان : مئة بيت ، فأمر له بمئة ألف درهم ؛ وكانت هذه أول مئة ألف درهم نالها شاعر من خلفاء بني العباس . قال الفضل بن الربيع ، وهو الذي شهد هذه القصة : فلما كانت أيام الرشيد دخل عليه مروان ، فأنشده قصيدة يمدحه فيها ، فسأله : ومن أنت ؟ قال : شاعرك وعبدك مروان بن أبي حفصة ، فذكر له ذينك البيتين ، اللذين رثا بهما معن بن زائدة ، وقال له مثل مقالة المهدي ، وأمر به فأخرج ، قال الفضل بن الربيع : فلما كانت أيام تَلَكَطَفَ مروان ، حتى دخل على الرشيد ، فأنشده قصيدته التي أولها :

لعمرك ما أنسى غداة المحصب إشارة سلمى بالبنان المخضب
وقد صدّر الحجاجُ إلا أقلهم مصادر شتّى موكباً بعد موكب

طرب الرشيد ، وسأله عن قصيدته كم هي ؟ قال : ستون أو سبعون ، فأمر له بعدد أبياتها ألفاً ؛ وكان ذلك رسم مروان في القصر حتى مات .
لعلك تريد الآن أن تعرف شيئاً عن شعر مروان ، وأنا آسف الأسف كله ، لأننا لا نستطيع أن نتحدث في ذلك عن علم ولا عن بصيرة ، إذ لم نحفظ لنا الرواة من شعر مروان إلا أبياتاً قليلة متفرقة ، ومع ذلك فنستطيع أن نصور شعر مروان تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً ، وأكبر الظن أنه صحيح .
لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر ، ولعله لم يعد منها فناً أو فنين ؛ فلسنا نعرف له غزلاً ، إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدءوا به مدائحهم ، ولسنا نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون ، حين يدافعون عن مذهبهم ، ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً ؛ فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية ، فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوم في حرية ، وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية ، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم ، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً ، كان الدين يأباه في ذلك الوقت . وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً ؛ فالعلويون من بني هاشم ، وهجاؤهم هجاء للعباسيين . ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين

ناضلوا عن حقوق العباسيين ، مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة ، البريئة من الشتم والقذف ؛ فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعاً من هجاء أولئك الشتامين المسرفين في الشتم . ثم لا نعرف مروان مجوناً ولا عبثاً ؛ فلم يكن كما قلنا ماجناً ولا عابثاً ، وإنما كان بخيلاً ، والبخل والعبث شيان لا يتفقان ، ومن ضمن على نفسه باللحم وطيبات الطعام ، لم يستبح لنفسه خمرًا ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف مروان فخرًا ، وما نحسب أنه فخر أو مال إلى الفخر ؛ فقد كان رجلاً عملياً ، يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة ، وكان يضمن بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد .

لم يعرض إذَنْ إلا لفنّين اثنين : المدح والرثاء ، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء . وهذا طبيعي ؛ فهو راغب حين يمدح ، يطلب المال ، ويحرص على أن يظفر به . فمعقول أن يجيد ، وأن يبلغ من الإجادة حظاً عظيماً ، أما في الرثاء فهو لا يرغب ، ولا يطلب مالا ، وإنما يني بعهد ، ويشكر صنيعه . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه إلى الإجادة ، إلا أن يكون حساساً ، دقيق الشعور ، راقى النفس . ولم يكن مروان من هذا كله في شيء ، وإنما كان ، كما قلت لك ، رجلاً عملياً يريد المال . على أن رثاءه لمعن ليس بالردىء ، وكذلك رثاؤه للمهدى . وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاءً ؟ هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد ؛ فيه ذكر للخليفة الراحل والثناء على وارثه . وفيه المثوبة والعطاء ؛ فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء . أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي ، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ، ولكنها تكفي لتحكم أن مروان كان قد أتقن المدح ، وبرع فيه ، بل نحسب أنه تفوق في هذا الفن على غيره من المعاصرين . ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متمايزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف ، وهو موجه لمعن بن زائدة فهو يَمْتَنُّ في وصف معن بالجوهر والكرم والشجاعة والحب ، ثم يفتن في مدح بن شيبان الذين ينتمى إليهم معن ، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله ، ولكنه جيد المعاني منتقاها ، حسن الألفاظ صافيا .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان ينشده الخلفاء من بني العباس ، وهو مدح إن شئت ، ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي الذي كان يحتاج إلى مهارة وفطنة ، ودقة وخفة ، والذي كان يضطر صاحبه إلى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، وإلى أن ينصر العباسيين دون

أن يزدري خصومهم . وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين ، لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصماً قوياً عنيداً ماهراً في الحصام ، وقد رأيت فيما قدمنا أمثلة من خصومته ، وقوة حجته في الحصومة . ثم هناك شيان لا بد من الإشارة إليهما ، ليكمل رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكماً مُعَلَّلاً ، إن صح هذا التعبير .

الأول أن مروان لم يكن عراقياً ، ولم يرض الإقامة في العراق ، ولم يُطِيل عشرة العراقيين من أهل الحجون والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة ، أقام فيها ، لا يبرحها إلا وافداً على أمير أو وزير أو خليفة . فإذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته ، عاد إلى اليمامة وأقام فيها عامه ، ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ؛ فهو أقرب إلى شعر الجاهليين والإسلاميين منه إلى شعر المحدثين ، من شعراء الحضارة العباسية ، تفرؤه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو ، أو تكاد تخلو من الدُعابة والحفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، وهو يمثل البادية تمثيلاً صحيحاً . ولهذا أثره في وجهة أخرى . فقد رضى علماء اللغة جميعاً عن مروان ، وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نواس ؛ لأنه كان أقرب منهما إلى الأسلوب البدوي القديم ، ولكن أنسى لهم ذلك وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس ، فاضطروا إلى أن يجابوا هذين الشعارين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم بشار وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس إلى المقارنة سبيل بين الشعارين ، إذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يعنى بها علماء اللغة ، وهي وجهة المتانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يقاس إلى مروان في هذا أحد من شعراء العراق . أما إذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، إذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرفها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس ، والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس إلى بشار ، ولا إلى أبي نواس بنوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعاً شريفاً في فنه ، لا يخاف ولا يهاب ، فصدق نفسه ، وصدق الناس وأثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين ؛ وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان ، وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده ، والذي كان ينشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان ، وهي :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم
 هم بمنعون الجار حتى كأنما
 لهم في الإسلام سادوا ولم يكن
 هم القوم إن قالوا أصابوا، وإن دُعوا
 ولا يستطيع الفاعلون فعألهم
 أسود لها في بطن خفان أشبل
 لجارهم بين السماكين منزل
 كأولهم في الجاهلية أول
 أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
 وإن أحسنوا في النابت وأجملوا

وكان ابن الأعرابي يقول : لو أن معنًا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه .

والآخر أن مروان لم يكن سريعاً في الشعر ، ولا متعجلاً ، ولا مسترسلاً مع الطبع ، وإنما كان بطيئاً متمهلاً . كان يجيد الشعر ، لأنه كان يجوده ، وكان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها ، في هذه القصائد التي يسمونها الحوليئات . كان ينفق أشهراً في إنشاء القصيدة ، وأشهراً في إصلاحها ، وأشهراً في عرضها ، حتى إذا استقام له هذا كله ، أنشد قصيدته لممدوحه ، خليفة كان أو وزيراً أو أميراً ، فليس عجباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يستنكر ، وأن يبرأ من الضعف والوحشية معاً .

ولقد يحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء ، الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن ينشده الخلفاء . ولست أشير إلا إلى سيرته مع بشار ، فلها معناها . كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها ، فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة ، بل يقدر له قيمة القصيدة مالياً ، فيقول : سيعطونك عليها كذا وكذا . وقد صدق بشار مرتين ، فأظهر له مروان العجب من ذلك ، فقال بشار : ألم أقل لك إنى أعلم الغيب ! ولم يكن يعلم الغيب ، وإنما كان يفهم مروان ، ويفهم الخلفاء ، ويفهم الميول السياسية ، التي كان من شأنها أن تجزل حظ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضاً ، ولكنه تناقض مفهوم : كان شديد الحرص على الإجابة فكان يشك في شعره ، ويستشير فيه الشعراء والنحاة ، ولكنه كان مع ذلك معجباً بنفسه لا يقدم عليها أحداً بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجريير . وسمع رأيه فيهم وفي نفسه ؛ فقد عقده شعراً ليثبت كما يقول :

ذهب الفرزدقُ بالفَخَّارِ وإنما
 ولقد هجا فأمضَ أَخْطَلُ تَغْلِبِ
 وحوى اللّهُي بيانه المشهورِ
 وهجاؤه قد سارَ كل مَسِيرِ
 ولقد جريتُ ففتُ غيرَ مهلَلِ
 بجراه لا قَرَفِ ولا مَبْهُورِ
 إني لَأَنفُ أن أَحَبَّرَ مِدْحَةَ
 أبداً لغير خليفَة ووزيرِ
 ما ضرَّني حسدُ اللثام ولم يَرَلِ
 ذو الفضل يحسده ذوو التقصيرِ

أما رأى مروان في النقد فبديع ، كان ينشد الشعر لامرئ القيس ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر الأعشى ، ويقول هو أشعر الناس ، ثم ينشد شعر زهير ، ويقول هو أشعر الناس ، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء ، فرآهم جميعاً أشعر الناس ، قال ضاحكاً : الناس أشعر الناس .
 ولست أعرف رأياً كهذا الرأي ، يمثل الشك في نقد الناقد المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

أظن أني قد صورت لك مروان بن أبي حفصة تصويراً مقارباً ، إن لم يكن صحيحاً . وكنت أريد أن أتحدث معه عن السيد الحميري ، كما ترى في عنوان هذا الحديث ، ولكنني أطلت فأرجئ السيد إلى الحديث الآتي ، وأختم هذا الفصل بموت مروان بقصته قائله .

روى صاحب الأغاني عن رجل يقال له صالح بن عطية الأضجم ، أنه قال :
 لما قال مروان :

أني يكونُ وليسَ ذاكَ بكائِنِ
 لبني البناتِ وراثَةُ الأعمامِ

لزمته ، وعاهدت الله أن أغتاله ، فأقتله أي وقت أمكنني ، وما زلت ألافه وأبسه ، وأكتب أشعاره ، حتى خصصت به ، فأنس بي جداً ، وعرفت ذلك بنو حفصه جميعاً ، فأنسوا بي ، ولم أزل أطلب غرة ، حتى مرض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه ، وألزمه والأطفه ، حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبت عليه ، فأخذت بحلقه ، فما فارقت حتى مات ، فخرجت وتركته ، فخرج إليه أهله بعد ساعة ، فوجدوه ميتاً ، وارفعت الصيحة ، فحضرت وتباكيت ، وأظهرت الجزع عليه حتى دفن ، وما فظن بما فعلت أحد ، ولا آتهمني به .

السيد الحميري (١)

علويون ، وعباسيون

اضطرنا ذكر أبان بن عبد الحميد إلى أن نعرض للشعر السياسي في صدر أيام العباسيين ، فذكرنا أبان بن عبد الحميد نفسه ، ورأينا مذهبه ، وكيف كان يتخذ التشيع للعلويين لوناً سياسياً ، كسادته البرامكة ، ثم كيف لم يمنعه هذا أن يكون حرباً على العلويين ، كسادته البرامكة أيضاً . ثم ذكرنا هذا الشاعر الذي قصره شعره السياسي على بني العباس ، فدافع عنهم وناضل ، حتى قتله رجل من شيعة العلويين غيلة ، وهو مروان بن أبي حفصة ، الذي كان خليقاً أن يكون أموى النزعة ، ولكن حبه للمال ، وتهالكه عليه ، قطع الصلة بينه وبين قديمه ، وحمله على أن يقف شعره على من كان بيدهم المال والسلطان .

ونريد اليوم أن نرى شاعراً سياسياً ثالثاً ، يختلف كل الاختلاف عن هذين الرجلين اللذين رأيناهما ؛ فهو لم يكن فارسياً ولا ميالا إلى الفرس ، ولا متصلاً بزعمائهم ، ولا متأثراً بمحاضرتهم متأثراً خاصاً . وإنما هو رجل عربي خالص ، لأمه وأبيه ، وهو من عرب اليمن ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزدي ، وهو إسماعيل ابن محمد ، المعروف بالسيد الحميري .

ليس فارسياً ولا متصلاً بأحد من زعماء الفرس ، وإذن فلم يكن تشيعه طلاء سياسياً كاذباً ، يستر الشعورية وبُغض العرب ؛ ولم يكن أموى النزعة ، بل لم تكن بين أسرته وبين الأمويين صلة مودة ، كما كانت الحال بين آل أبي حفصة والمراوثة ، وإنما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى السيد الحميري ؛ فإن جده يزيد بن مفسرغ هجا زياداً وآل زياد ، وعرف سجن عبيد الله بن زياد . وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ، كما كان يكرهان بني هاشم ، وكانا يشمان معاوية ، كما كانا يشمان علياً ، ومع ذلك فقد كان

(١) نشرت بالسياسة في ٢١ ذو القعدة سنة ١٣٤٢ هـ - ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٤ م .

السيد الحميرى شيعة لعل^١ وأبنائه ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا بشاعر مثله في حياتهم السياسية كلها ، وقف عليهم عمره وجهده ، وكاد يقف عليهم مدحه وثناؤه ، مخلصاً في ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص . ولم يكن السيد الحميرى نفسه يعرف كيف وصل التشيع إليه ، بل كان إذا سئل عن ذلك قال : غاصت رحمة الله على غوصاً ، وكان يسمع أبويه يشتمان علياً ويبالغان في شتمه ، فكان يكره ذلك ، ثم صح له مذهبه في التشيع ، وظهر منه أبواه على هذا الرأى ، فيقال : إنهما هما بقتله ، فاستجار منهما بعقبة بن ساسم ، فأجاره حتى ماتا ، وتم له ميراثهما .

هو إذن يخالف أبان بن عبد الحميد ، في أنه لم يكن فارسياً ولا ميالاً إلى الفرس ، ويخالف مروان بن أبى حفصة ، في أنه لم يكن أمويّاً ولا ميالاً إلى بنى أمية ، ولكنه مع ذلك يوافق الرجلين ، في أنه لم يعف عن أموال بنى العباس ، بل تقرب إليهم ، وأثنى عليهم ، وأنشدهم شعره ، وأخذ من أموالهم ما استطاع ، مع أنه لم يكن يحبهم ولا يهواهم ، وإنما كان هواه مع قوم آخرين ، هم آل على . على أن أمر السيد الحميرى يخالف أمر صاحبيه من هذه الناحية أيضاً ، فهو فيما بينه وبين نفسه لم يأنم حين مدح العباسيين وظفر بجوائزهم ، وهو لم يقل كما قال أبان بن عبد الحميد : لا أستحل ذلك ، ثم استحله ، وإنما كان السيد الحميرى يستحل ذلك ، كان يستحل أن يظهر غير ما يضمّر ، وأن يمدح بنى العباس بلسانه ، ويلعنهم في قلبه ، فيظفر بما لهم ، ويتق شرمهم ، كان يستحل ذلك كما كانت تستحلّه عامة الشيعة ، الذين كانوا يقولون بمذهب التقيّة ، ويستبيحون لأنفسهم أن يروا في السياسة والدين رأين ، رأياً تجارياً ، إن صح هذا التعبير ، يصطنعونه فيما بينهم وبين الناس ، ليعيشوا ويأمنوا ، ويستمتعوا بلذات الحياة والأمن ، ورأياً آخر يخفونه على الناس جميعاً إلا أنصارهم وأولياءهم ، وهو الرأى الذى يصطنعونه فيما بينهم وبين الله ، وعلى هذه السيرة سارت الشيعة العلوية أيام الأمويين ، وعليها سارت أيضاً أيام العباسيين ، وهى معقولة ، ممكنة التفسير ، فقد لقيت شيعة على من الاضطهاد وألوان الخن أيام بنى أمية ، ما لم يلقه حزب سياسى آخر ، إذا استثنينا الخوارج ، على أن المقارنة بينهم وبين الخوارج من هذه الناحية لا معنى لها ، وكانت شيعة على من وجوه الناس وأشرفهم ، وذوى الثروة والمكانة فيهم ؛ فلم يكن لهم بُد من أن يداروا الناس ويتقوهم ، ليحتفظوا بآرائهم ومكانتهم ، حتى

إذا سنحت لهم الفرص أو برقت لهم بارقة أمل نهضوا لحقهم ، فطالبوا به ، ودافعوا عنه ، وعلى هذا النحو استطاع الكُسميْت بن زيد ، وهو الشاعر الذي يمكن أن يوضع مع السيد الحميري ، أن يمدح بني أمية ، ويفيد من أموالهم ، وعلى هذا النحو استطاع « كُشَيْر » أيضاً أن يمدح الأمويين ، ويصيب من جوائزهم ، بل على هذا النحو استطاع « الفرزدق » أن يُضمّر ميله إلى العلويين ، ويكتمه كتماناً ، وأن يقصر مدحه أو يكاد يقصره على الخلفاء من بني أمية .

فليس غريباً أن نرى السيد الحميري يمدح بني العباس ، ويتقرب إليهم ، مع أنه كان من غلاة العلويين الذين أسرفوا في علويتهم ، حتى تجاوزوا بها كل حد . كان السيد الحميري علوياً غالباً ، وكان من الرافضة ، وقد جنى عليه غلوه ورفضه هذان جناية عظيمة ، هي التي تعنينا ، وإن كانت لم تعنه ولم تنل منه ، ذلك أنه عاش عيشة هادئة مطمئنة ، فلم ينله أذى ، ولم يتعرض لخطر ، بل استمتع من نعيم الحياة بكثير ، ولكن رفضه وغلوه بغتضا شعره إلى الناس ، وهماهم على أن يُعرضوا عنه الإعراض كله ، إما لأنهم كانوا يكرهون أن يرووا شتم أبي بكر وعمر وغيرهما من أصحاب النبي وأزواجه ، وإما لأنهم كانوا يخشون السلطان إن رووا ذلك أو تناقلوه ، ومهما يكن من شيء ، فقد كان السيد الحميري أحد الشعراء الذين عرّفوا بكثرة الشعر ، ولم يتقدمهم في ذلك أحد في جاهلية أو إسلام ، وهم بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد . فأما بشار فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من زندقة ومجون وكفر . وأما أبو العتاهية فقد حَفِظَ له ديوانه ، لما كان فيه من زهد وورع ودين . وأما السيد فقد ذهب شعره ، لما كان فيه من شتم السلف ، والطعن عليهم ، والإسراف في الزرابة بهم . ولقد احتاط أبو الفرج احتياطاً شديداً ، وتحرّج تحرّجاً عظيماً في رواية ما روى من أخباره وأشعاره القليلة ، ولو استطاع لأعرض عن ذلك إعراضاً ، وكان الرواة وأئمة اللغة يتحرجون من شعره ، ويختلسون الفرص اختلاساً يتلون فيها شيئاً من شعره خفية دون أن يظهر عليهم الناس ، وكان منهم من يأسف ويأسى ؛ لأنه فيما بينه وبين نفسه يُكبر هذا الشاعر ، ويقدر شعره ، ولكنه لا يستطيع ، لخوف أولدين ، أن ينزله منزله الصريحة من الشعراء ، كان الأصمعي يُقدّمه على طبقتة ، لولا إسرافه في شتم السلف ، وكذلك كان أبو عبيدة ، وكذلك كان غيرهما من الرواة الذين عاصروهما . ولعلك تتساءل عن مصدر هذا الخوف العظيم ، الذي كان يشتمل على الناس

إذا ذكر السيد الحميري أو شعره ، والذي كان يحمل أصدقاء الشاعر والمعجبين به على أن يتناقلوا شعره سرّاً فيما بينهم ، فصدر هذا الخوف شيثان : أحدهما الدين ، والآخر السياسة . وما رأيك في رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مآثمة من المآثم ، ولا لوناً من ألوان العيب ، إلا رمى بها خيرة المسلمين وسلفهم الصالح ، لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا بنى هاشم وشيعتهم ! فأما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النبي ، مهاجرين وأنصاراً ، فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من ذمه ونعيه . أفظن أن أولئك المسلمين الذين كانوا يعيشون أيام المنصور والمهدى ، على قرب عهدهم بالسلف ، وشدة حرصهم على تكريمه وتعظيمه ، كانوا يستطيعون أن يرووا هذا الشعر أو يسمعه دون أن يأخذهم الألم وينالهم الاشتزاز ، ويصيبهم شيء من الحرج في دينهم ، يصرفهم عن هذا الشعر صرفاً !

أما السياسة فقد أريد أن أنتهز هذه الفرصة ، لأبين لك مقدار البغض والعداء اللذين كانا يفصلان بين آل العباس وآل علي ، أيام السيد الحميري ، وليس أدل على ذلك ، ولا أنطق به ، ولا أبلغ في وصفه ، من هاتين الرسالتين اللتين تبادلها المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسين العلوي حين خرج بالمدينة . هاتان الرسالتان اللتان أرويهما على طولها ، تصفان لك هذا العداء الشديد الذي كان يقسم بنى هاشم قسمين : قسماً يوالى العباسيين ، وقسماً يوالى العلويين ، وهما على هذا تبيين لك شيئاً آخر أشرت إليه في فصل مضى ، وهو النظرية السياسية والدينية التي كان يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم ، والتي دافع عنها مروان بن أبي حفصة ، ودافع عنها أبان بن عبد الحميد ، والنظرية السياسية الدينية التي كان يعتمد عليها العلويون في المطالبة بحقوقهم ، والتي قامت عليها الثورات ، وسفكت من أجلها الدماء ، واستغلها الفرس لأهوائهم وشهواتهم السياسية .

لما خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، كتب إليه المنصور يرغبه ويرهبه ، ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبدل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة . فكتب إليه محمد بن عبد الله هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله المهدي ، إلى عبد الله بن محمد . (طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، فتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنن على الذين

استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا . وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليّاً كان الوصي ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاماً عليّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلّى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشما ولد عليّاً مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبيل حسن وحسين ، وإن أوسط بني هاشم نسباً ، وأصرحهم أمّاً وأباً ، لم تُعْرِقْ في العجم ، ولم تتنازع في أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لي في النار ؛ فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذاباً في النار . وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله عليّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي ، أن أومنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حدثاً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ؛ لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي . فأبي الأمانات تعطيني : أمان بن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي ، أم أمان أبي مسلم !

فانظر إلى هذا الكتاب كيف عرض فيه محمد بن عبد الله نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي ؛ لأن أباهم كان وصي النبي ، ولأن أمهم بنت النبي ، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء ، ثم انظر كيف افتخر بمكانه من النبي في الإسلام والجاهلية ، وبهذه الكرامة التي خص الله بها أهل البيت . وكيف ذكر أنه ابن خير الأخيار ، وخير الأشرار ، وخير أهل

الجنة ، وخير أهل النار ، يريد أبا طالب ، الذي مات ولم يُسلم ، فيروى أنه أقل أهل النار عذاباً . ثم انظر كيف ختم كتابه بهذا التعبير ، يصف فيه المنصور بأنه نقض العهد ، وخان الذمة مع قوم آمنوه ، فقتل منهم من قتل ، وسجن منهم من سجن .

وكان وقع هذا الكتاب شديداً في قصر المنصور ، فقد انتدب الكتاب والأمراء للرد عليه ، وأبى المنصور إلا أن يرد بنفسه ، فكتب هذا الكتاب :
(بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغني كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء ، لِيَتُضِلَّ به الجنة والغواء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أبا ، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحماً ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله خلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

«وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً رزقَ الإسلام ، لا بنتاً ولا ابناً ، ولو أن أحداً رزقَ الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ؛ قال الله عز وجل : (إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين) ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل : (وأنذر عشيرتكَ الأقرنين) فأنذرهم ، ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبي ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ؛ فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار ، وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وسترد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

«أما من فخرت به من فاطمة أم عليّ ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبدالمطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة ، ولا عبدالمطلب إلا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أمماً وأبياً ، وأنه لم تلدك

العَجَمَ ، ولم تُعْرِقْ فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً ، وانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخرأ ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ولد ولده ، وماخيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ، وماوُلد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد ، وهو خير من جدك حسين بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ، وهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

« أما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) . ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقربة قريية ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ! ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها نهاراً ، ومسرّضها سرّاً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجدة أبا الأم والخال والحالة لا يرثون ، وأما ما فخرت به من عليّ وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان في السنة فتركوه كلهم ، دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له مستهيم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى ساعد بيته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعة قبل الحكومة ، ثم حكّم حكّمين رضى بهما ، وأعطاهما عهده ، وميثاقه فاجتمعا على خلعه . ثم كان حسن ، فباعها من معاوية بيخريق ودرهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعة بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولاته ولا حليله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ، ثم خرج عمك حسين بن عليّ على ابن مسرّجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم ، وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء من المحامل ، كالصبي المحلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بئاركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ،

وسيننا سلفكم وفضلناه ؛ فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منّا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ، مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكّرناهم فضله ، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرومتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، ففرض لنا عليه عمر ، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام ، ولقد فحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايتيه ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه . ومورثه وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم ، للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقبيل جوعاً ، وللحقيق جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبّة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا وقد علّناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزّنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بئاركُم ، فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا إلا نفسكم . والسلام عليك ورحمة الله . (الطبرى جزء تاسع) .

أترى إلى المنصور كيف استطاع أن يهدم مفاخر ابن عمه ، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين . ثم أترى إلى نظرية العباسيين في خلافتهم هذه التي تقوم على أن العم أحق بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبي ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى عليّ قد نزلوا عن حقهم في الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودرهم ، وهو نفس الكلام الذى كان يردده مروان بن أبى حفصة وأبان عبد الحميد ، وغيرهما من الشعراء السياسيين لبني العباس ، فالمنصور هو الذى وضع هذه النظرية ، واحتج لها بالفقه والسنة ، وجعلها مذهباً سياسياً ودينياً ناضل عنه الشعراء .

ثم انظر إليه كيف عيّر العلويين نكرانهم للجميل ، وكفرهم للنعمة ؛ فقد نهض بنو العباس يثأرون لهم ، ويطلبون بدمائهم ، حتى أدركوا الثأر ، ومحو العار ، وأذلوا دولة بني أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجحوداً .

ولسنا نريد أن نحكم بين العباسيين والعلويين في هذه القضية ؛ فذلك شيء لا يعنيننا الآن ، وإنما نريد أن نمثل العداة الذي كان بين هاتين الأسرتين ، ونحسب أن هذين الكتابين يمثلانه تمثيلاً قوياً ، وأنت تعلم أن الحرب اتصت بين المنصور ومحمد هذا ، حتى قتل محمد في المدينة ، وقتل أخوه إبراهيم في البصرة ، وكل هذا يبين لك إلى أي حد كان الناس يخافون من رواية الشعر الذي يدافع عن العلويين ويؤثرهم على غيرهم بالخلافة ، في ظل رجل قوى كالمنصور .

على أن شاعرنا السيد الحميري ، لم يكن من أنصار الحسن والحسين ، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين ، وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الابن الثالث من أبناء علي^ع محمد بن خولة الحنفية ، والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت ، وإنما تغيب عن الناس ، واحتجب عنهم حيناً ، وسيعود فيملاً الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ، ويتقرب منهم ، ما دام صاحبه محمد ابن الحنفية لم يعد من غيبته بعد .

ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم قبل اليوم ، وهي أنه كان سخيلاً ضعيف العقل ، شديد الإيمان بالخرافات والأوهام . ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرجعة ، فقد أسرف في هذا المذهب ، كما أسرف في مدح العلويين ، والإيمان بهم ، حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل ؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين ، رضيه العقل أو لم يرضه ، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير ، يروي كرامة من الكرامات ، يضيفها إلى أحد العلويين ، حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة ، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف ، والتعنى عليه .

وخصلة أخرى تقرّبه من الزنادقة الذين عاصروه ، ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه ، وهي أنه كان يستبيح ضروراً من اللهو المنكر ، ويسرف في شرب الخمر ، وغير ذلك من ألوان العبث ، لا لأنه كان

يحمد الدين أو يزدرية ، بل لأنه كان يُدَلِّ على صاحب الدين . كان يحب النبي وآله ، ويمنحهم مودته ونصره ، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك ، وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه ، لما قدَّم بين يديه من مدح العلووين ، ونصرهم على خصومهم ، وكان بنو هاشم وبنو علي خاصة يُطعمونه في ذلك ، ويعترفون له به ، فإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر ، قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم إن مَنْ أحب آل علي لم تنزل له قدم إلا ثبتت له أخرى . وعلى هذا كان السيد الحميري يلهو آمناً في دينه ودينه ، يعتمد في دينه على العلووين ، ويعتمد في دنياه على العباسيين ، يقدر أن العلووين سيشفعون له عند الله ، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ، ويؤثرون مدحه على هجائه . وكان من معاصريه من يكره ذلك ، ويمقت كل المقت ، ويضمر للسيد عداً وحقداً لا يعطلها عداً ولا حقد . ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العنبري قاضي البصرة للمنصور ، فقد كان العداً بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يتقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ، وكان السيد قد هجاه فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور ، فنهاه عنه ، وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه ، وأبى القاضي أن يقبل معذرتة ، فاستأنف السيد الهجاء وألح فيه . ويقال إن سواراً أعد شهوداً على السيد بالسرقة ، ليقطع يده فعلم السيد ذلك ، فجزع وفرغ إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات ، فتبعه السيد بعدائه وبغضه وهجائه . وتستطيع أن تقرأ هجاء السيد لسوار في الأغاني ، فهو كثير ، لا أروى منه شيئاً ، لأنى قد أطلت ، بل لست أروى من شعر السيد إلا أبياتاً تمثل لك مذهبه الشعري . على أنى أعتقد أن السيد لا يمتاز عن غيره من الشعراء من الوجهة الفنية إلا بشيئين اثنين : أحدهما الإكثار الذي لم يشاركه فيه إلا بشار وأبو العتاهية ، فقد زعم الرواة أن قصائده في آل علي كادت تبلغ الثلاثة الآلاف .

والآخر أنه كان سهلاً مطبوعاً ، شديد النفرة من الغريب ، وقد سئل عن ذلك ، فأجاب بأنه يؤثر أن يقول كلاماً يفهمه الناس ، على أن يقول كلاماً يُعجَّبُ به الرواة . وهذا طبيعي بالقياس إلى شاعر سياسي ، يدافع عن حزب مضطهد ، كالسيد الحميري ، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، الذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وانظر إلى هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

امْرُؤٌ عَلَى جَدَثِ الْحُسَيْنِ قَلَّ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيَّةُ
 آعْظَمًا لَا زَاتَ مِنْ وَطْفَاءِ سَاكِبَةٍ رَوِيَّةُ
 وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فَاطْلُبْ بِهِ وَقْفَ الْمَطِيَّةِ
 وَابِكِ الْمُطَهَّرِ لِمُطَهَّرِ وَالْمُطَهَّرَةِ النَّقِيَّةِ
 كَبْكَاءِ مُعْوَلَةٍ أَنْتَ يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمُنِيَّةُ

وانظر إلى هذه الأبيات ، التي بعث بها إلى المهدي ، يسأله ألا يعطى آل أبي بكر وعمر من مال الدولة :

قَلَّ لَابْنِ عَبَّاسٍ سَمِيَّ مُحَمَّدٍ
 إِحْرِمُ بَنِي تَيْمٍ بِنِ مِرَّةٍ إِنَّهُمْ
 إِنْ تُعْطِيَهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً
 وَإِنْ ائْتَمَنْتَهُمْ أَوْ اسْتَعْمَلْتَهُمْ
 وَلَنْ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَّوْكُمْ
 مَنَعُوا تَرَاثَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامَهُ
 وَتَأَمَرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَخْلِفُوا
 لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِعْنَامَهُ
 وَاللَّهُ مِنْ عَلَيْهِمْ بِمُحَمَّدٍ
 ثُمَّ انْبَرَوْا لَوْصِيهِ وَوَلِيِّهِ
 لَا تُعْطَيْنَ بَنِي عَدِيٍّ دِرْهَمًا
 شَرُّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمَقْدَمًا
 وَيَكْفُرُونَ بِأَنْ تُدَمَّ وَتُشْتَمًا
 خَانُوكَ وَاتَّخَذُوا خَرَاجَكَ مَغْنَمًا
 بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَسُوا وَكَانُوا أَظْلَمًا
 وَبَنِيهِ وَابْنَتَهُ عَدِيلَةَ مَرِيَمًا
 وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هُنَا لَكَ مَا تَمَّا
 أَفِيشْكُرُونَ لِعَفْوِهِ أَنْ أَنْعَمَا
 وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجُنُوبَ وَأَطْعَمَا
 بِالْمُنْكَرَاتِ فَجَرَّعُوهُ الْعَلَقَمَاءَ

وانظر إلى هذه الأبيات يهني بها أبا العباس السفاح :

دُونَكُمْوَهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ
 دُونَكُمْوَهَا لِأَعْلَا كَعْبٍ مَنْ
 فَجَدَّدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارِسَاءَ
 كَانَ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِسَاءَ

دونكوها فالبسوا تاجها لا تعدموا منكم له لايساً
 لوخير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارساً
 قد ساتها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابساً

والآن وقد فرغنا من شعراء المحبون والسياسة في هذا العصر ، فسندحدثك عن شعراء آخرين لم يسلكوا في شعرهم مجوناً ولا سياسة ، وإنما ذهبوا مذهب غيرهم من الشعراء

القديم والجديد (١)

تقرأ في الرسائل الفارسية «لنتسكيو» رسالة لا تخلو من فكاهة ولذة . تناول فيها بالعبث والمزاح خصوصية الأدباء الذين كانوا يتنازعون في عصره حول القديم والجديد ، وحول القديما والمحدثين . نجد في الرسالة أن الباريسيين يحبون القهوة ، ويكلمون بها . وقد ظهر حبهم إياها وكلفهم بها ، حتى أنشئت أندية خاصة يختلف إليها الناس ، يقرءون الصحف ، ويتناقلون الأخبار في بعضها ، ويلعبون بالشطرنج في بعضها الآخر ، وتقدم إليهم كنوس القهوة في أثناء القراءة واللعب . ومن بين هذه الأندية ناد خاص ، يظهر أن للقهوة فيه فضلا على غيرها من القهوات التي تقدم في الأندية الأخرى ، كأن فيها شيئاً يشحذ العقل ، وينبئه الخاطر ، ويزيد البصيرة نفوذاً ، والذكاء توقفاً ، والألسنة انطلاقةً ، فالذين يختلفون إلى هذا النادي ، ويتناولون القهوة التي تقدم فيه ، أفصح الناس لساناً ، وأعذبهم بياناً ، وأقدرهم على التصرف في فنون السحر ، وأبرعهم في اصطناع ضروب الجدال ؛ فهم يتحدثون ويتناقشون ويتجادلون ، وهم يتقاذفون ويتشائمون ، كأعنف ما يتقاذف الناس وأقبح ما يتشائمون ، كل ذلك في ألفاظ مختارة منتقاة ، تقع وقع الصواعق ، وتنفذ نفوذ السهام ، وكل هذه المناقشة ، وكل هذا العنف ، وكل هذا الجدال ، إنما يدور حول شاعر يوناني ، عاش أو لم يعيش منذ ألفي سنة ، يكبره بعضهم ، حتى يبلغ به منزلة لا تعدلها منزلة ، ويحقره بعضهم ، حتى يبلغ به من الخسة دركاً ليس دونه درك ، وهم يختصمون ويتنابدون ويقتتلون ، دفاعاً عن هذا الشاعر ، أو هجوماً عليه . ويعتبط الكاتب بأنه ليس هذا الشاعر ، ويحمده الكاتب الظروف التي أماتت هذا الشاعر ، قبل أن تقوم هذه المعركة العنيفة حول اسمه ومكانته ؛ فلو قد أدركها لقتلته ، أو لئالته بشر من الموت ، إن كان هناك شر من الموت .

على هذا النحو يتحدث «منتسكيو» عن أدباء الفرنسيين ، الذين كانوا

(١) نشرت بالسياسة في ١ رجب سنة ١٣٤٢ هـ - ٦ فبراير سنة ١٩٢٤ .

يختصمون في القرن الثامن عشر حول القدماء والمحدثين ، ويظهر أن عبث « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، وأن عبث غير « منتسكيو » وسخريته من هؤلاء المختصمين ، لم يصرفاهم عن الخصومة ، ولم يلهاهم عن القديم والجديد ، فظلوا يختصمون في القرن الثامن عشر ، كما كانوا يختصمون في القرن السابع عشر ، وكما اختصموا من قبل ذلك ، وكما اختصموا من بعده ، حتى انتصر جديد على قديم ، ثم أصبح هذا الجديد قديماً ، واختصم الناس حوله وحول جديد آخر ، فما زالت الخصومة حتى انتصر هذا الجديد على ذلك القديم .

ويظهر أن هذه الخصومة ستستمر أبداً في كل لغة ، وفي كل جيل ، وحول كل أدب ، على شرط أن يكون للغة والأدب والجيل الذي يتصرف فيهما حظ من الحياة ؛ وقد تأخذ الخصومة حول القديم والجديد أشكالاً مختلفة ، وصوراً متباينة ، تمثل العصر الذي تنشأ فيه ، والظروف التي تحيط بها ، ولكنها مهما تختلف أشكالها وتباين صورها ، ومهما تختلف العصور التي تنشأ فيها والظروف التي تحيط بها ، خصومة بين القديم والجديد ، لا مصدر لها إلا الحياة من حيث هي حياة ، ولا منصرف عنها ، لأنها الحياة .

نقول هذا كله بعد أن فرغنا من قراءة فصل في مجلة « الهلال » ، التي صدرت أول هذا الشهر . وكتب هذا الفصل الذي نسجل مسرورين أنه ممتع ، هو الأستاذ مصطفي صادق الراجعي ، كتبه يدافع به عن المذهب القديم في الأدب ؛ لأن كاتباً آخر هو الأستاذ سلامة موسى ، كتب في مجلة « الهلال » ، التي صدرت في الشهر الماضي فصلاً عن الأستاذ الراجعي ، هاجم فيه المذهب القديم في الأدب مهاجمة عنيفة ، وجعل فيه الأستاذ مصطفي الراجعي زعيماً من زعماء هذا المذهب القديم ؛ فلم يكن بُدُّ للأستاذ من أن يدفع هذا الهجوم العنيف دفعاً عنيفاً ، ولم يكن بدُّ للقارئ « الهلال » من أن يقرأ هذين الفصلين العنيفين ، ثم يسأل : فيم يختصم الكاتبان ؟ وما أصل هذا العنف في خصومتها ؟ وهل لهذه الخصومة نتيجة أو أثر في الأدب القديم ، أو في الأدب الجديد ؟

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة « الهلال » ، وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامة موسى ومصطفي الراجعي ، وإذا كان لنا ألا نسرف في استقصاء التاريخ ، وألا نذهب بالقارئ إلى ما بعُد به العهد ، فقد يكون لنا أن نذكر القارئ بأن مصدر هذه الخصومة في هذه الأيام الأخيرة ، إنما

هي صحيفة الأدب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الأستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى « السياسة » تحت عنوان : « أسلوب في العتب » ، وذهب فيها مذهب المتكلمين من بعض الكتاب القدماء ، فأنكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الأسلوب ، وكانت حول هذا الإنكار خصومة طويلة ، انتهت إلى الشتم والتناؤد ، ثم لم تكف تنهى السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكاتب أديب من كتاب فلسطين ، هو الأستاذ خليل السكاكيني ، رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد ، وحول الإيجاز والإطناب ، تناول فيها بالنقد كاتباً أديباً من كتاب سورية ، هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير ردّاً طويلاً ، واشتدت المناقشة بين الكاتبين ، حتى انتهت إلى شيء من العنف ليس بقليل . ثم عرض الأستاذ سلامة موسى للأستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » ، فعدّه مع الأمير شكيب أرسلان من زعماء المذهب القديم ، وأشار إلى الكاتب الأديب خليل أفندي السكاكيني ، على أنه من أنصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الأدب ، ويخطيء من يظن أن هذه الخصومة سنتهى غداً أو بعد غد ، ويخطيء من يسأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة ، وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الأدب العربي ، كما استمرت في الآداب الأخرى ، وكما استمرت في الأدب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي أنتجتها في كل زمان ، وفي كل مكان ، فينتصر قديم على جديد ، ثم يصبح هذا الجديد قديماً ، وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام للغة العربية والأدب العربي حظ من حياة .

هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ؛ فليس الأدب العربي بدعاً من الآداب ، وليس الأدب العربي العصري بدعاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الأستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الأديبان خليل السكاكيني وشكيب أرسلان ، ولكننا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ؟ وأن نطلب إليهم في رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة ، حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا . فقد ظهر لنا إلى الآن ، أن هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء لم

يستطيعوا بعد أن يحددها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعي ، فتجده يسأل ما « المذهب الجديد » ؟ وما « المذهب القديم » ؟ ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ، وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع ، بينة الحدود ، لما كلف نفسه هذا السؤال ، ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الأديبين خليل السكاكيني ، وشكيب أرسلان ؛ فهما يختلفان في الإيجاز والإطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، قد عمد إليها أكبر الكتاب ، وأرفعهم قدراً ، منذ كان النثر العربي إلى الآن ؛ فمن الحق أن نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر أن الإطناب خصلة من خصال اللغة العربية ، ولكن له مقامه ، فلا ينبغي أن يعتمد إليه الكاتب ، ولا سيما في هذا العصر . إلا بمقدار ، وإلا حين تدعو إليه الحاجة الأدبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الذوق ، دون أن يحدوا هذا الذوق . أليس من حقنا أن نسألهم عن هذا الذوق ما هو ؟ وما حده ؟ وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل أن الأستاذ الرافعي قد أجاب عن هذا السؤال ؛ فنحن نعرف بأن جوابه أدق من أن نفهمه ، وأشد غموضاً من أن نظهر عليه ، وانظر إلى ما يقول في الذوق : « وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . » نعرف بأننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعرف بأننا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم . فإذا كان الذوق الأدبي في شيء إنما هو فهمه ، وإذا كان الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه ، فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد إنما هو الفهم والذوق جميعاً ! ذلك أن الجملة الأولى صريحة في أن الذوق هو الفهم ، وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن فليس شيئين وإنما هما شيء واحد ، هو الفهم ، وإذن فالنقد والفهم والحكم والذوق كل أولئك شيء واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة . نعرف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ، ولم ندقها . وإذن فنحن لانستطيع أن نعتقدها ، ولا نحكم فيها ؛ لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معاً . وتستطيع أن تدور في ذلك ما شاء الله أن تدور . فما زال الأستاذ الرافعي مطالباً بأن يوضح لنا نظريته هذه في الذوق ، ونحسبه يحتاج في توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أنه يخجل إلينا أن الذوق شيء ، والفهم شيء آخر ، وأن من الإسراف أن نقول إن

الذوق هو الفهم ، فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أنا نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعي ، دون أن نذوقه أو نُعجَبَ به . وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا ، فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها ، وإثبات ذلك ليس بالشىء العسير ، فما نطن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ، يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى ، فيطربون ويتأثرون ، وينتهى بهم ذلك إلى شىء يشبه الذهول ، لا يفهمون الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الإخصائيون . فأنت ترى أن الذوق والفهم شيان مختلفان ، قد يجتمعان حيناً تفهم قصيدة من الشعر أو فصلاً من النثر وتُعجَبَ بهما ، وحيناً تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حيناً تقرأ فصلاً من فصول الكتاب المتكلفين ، أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين ، فتفهم النظم ، وتفهم النثر ، ولكنك تكرههما ، وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحيناً تسمع قطعة من الموسيقى ، فتعجب وتطرب ، دون أن تفهم ما أراد الموسيقي . وللأستاذ الرافعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي ، محتاجة إلى شىء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شىء من التواضع قبل أن ينشر ويعلن إلى الناس . انظر إليه مثلاً يزعم أن المذهب الجديد في الأدب ليس في حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف في اللغة والأدب العربي ، وقوة في اللغة والأدب الأجنبي ، وأن الذين يزعمون أنهم من أنصار المذهب الجديد ، إنما هم قوم أضعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم ، وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب ، وضعفهم في اللغة العربية وآدابها ، مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد ، وإنكارهم للمذهب القديم ، ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم أيضاً .

نعتقد أن الأستاذ الرافعي مسرف في هذا الحكم . ولعل مصدر إسرافه في هذا الحكم ، إن صححت نظريته السابقة ، أنه أخطأ فهم ما يكتب أنصار المذهب الجديد ، وهو إنما أخطأ الفهم ، لأنه أخطأ الذوق ، أو هو إنما أخطأ الذوق ، لأنه أخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعي حول الذوق الذى هو الفهم ، أو حول الذوق الذى ليس هو الفهم ، حتى تتعبا ، فتسقطا معاً ، وقد بلغ منكما الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعي معذور على كل حال ؛ فما

كان له أن يحكم فيحسن الحكم ، دون أن يفهم ويدوق ، وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً ، فتخطئه الإصابة في الحكم . ونظن أن للأستاذ الراجعي حظاً من الإنصاف ، وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وأن قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا « فولتير » . وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفاً ، وليس اعتذاراً لأنفسهم ، وليس تعصباً للأدب الأجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى أنه يفهم الأدب العربي كما يفهم الأدب الإنكليزي ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق ، أو ذوق هو الفهم ، أو فهم ليس ذوقاً ، أو ذوق ليس فهماً ، وما نظن أن الأستاذ ينكر علينا نحن أننا نستطيع أن نفهم الأدب العربي ، وأن نفهم الأدب الفرنسي وأن نحكم فيهما أحياناً عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق ، أو عن ذوق دون فهم . ثم هب سلامة وموسى غيره من خصوم الأستاذ الراجعي ، وأنصار المذهب الجديد ، ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب الجديد ، وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ، تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأى الأستاذ في هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد ، وهم يجهلون اللغات الأجنبية ، ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالأستاذ بعيداً عن الموضوع الذي أتقنه وبرع فيه ؛ فلسنا نشك في أن الأستاذ أتقن الأدب العربي ، وأحسن روايته وفهمه وتقليده ، وأسرف في هذا التقليد ، وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد ، فكان القرآن الكريم جديداً ، وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ، ولكنه في الوقت نفسه يزعم أن أحداً من العرب وأدبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً . وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة ، دون أن يشعر العرب بهذا التجدد ، أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكره . وإلحق أن الآداب تجددت غير مرة ، وأن العرب شعروا بهذا التجدد ، وأنهم ذكروه ، واختصموا فيه ، كما يختصم فيه الأستاذ الراجعي وأصحابه الآن . وقد كتبنا في هذا المكان من « السياسة » فصولاً طويلاً في العام الماضي ، فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين أنصار

القديم وأنصار الحديد أيام بني العباس . وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظه « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » ، فليس ذلك دليلاً على أنهم لم يعرفوا القديم والحديد ، ولم يذكرهما ، ولم يختصموا حولها ، وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً أم هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غسكوا فيه ، فرضى عنهم قوم وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعاً ، وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لا ينكر أن العرب اختصموا حول القديم والحديد في الشعر وفي النثر ، فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك في أن أنصار الحديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ، ولم يعتذروا لأنفسهم عن هذا الضعف ، بتعلقهم بالحديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبو نواس وانتصر للحديد ، وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم ، فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون . ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعي أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والحديد ، كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية وآدابها ، كما يفهمون الفرنسية وآدابها ، وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ، ومنهم من يؤثر الفرنسية ، وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ، ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين . فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب ، وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله ، قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون ما لا يحسه أنصار المذهب القديم ، ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ، ويشعرون بأنهم يحيون ، فيريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس ، وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

ورأى آخر للأستاذ الرافعي يحسن أن تناقشه ولو قليلاً ؛ فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد ، وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ، ليأخذوا منه بالحظ الوفور ، فيسلكوا فيه سبيل القدماء ، ذلك خير

لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ، ولغتهم الجديدة ، فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثه ، وهي ملك الملايين من الأعمار ، ولطائفة طويلة من العصور ، فيجب أن نقبلها كما ورثناها ، دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا .

ونحن نعرف بأننا نخالف الأستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ، ونسمح لأنفسنا بأن نراه عمقاً ، ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام ، حظاً يجعلها ملكاً لنا ، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها ، كلما دعت إلى ذلك الحاجة ، أو قضت ضرورة الفهم والإفهام ، أو كلما دعا إليه الظرف الفني ، لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة ، التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً ، أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ، مادام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلاً من أصول اللغة ، أو يخرجها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها ، يضيفون إليها ، ويدخلون فيها ، لما تمت اللغة ، ولما شاعت ، ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها التي تتجدد وتتغير بتجدد الأزمنة ، وتبدل الظروف ، والكتابات والشعراء في كل عصر وفي كل مكان ، يضيفون إلى لغاتهم ، ويدخلون فيها ، ويجددونها ، فمنهم من يسعده الحظ ، فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتألفون عليها ، حتى تشيع وتصبح جزءاً من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ ، فلا يحفل الناس بما أدخل ، ولا بما أضاف .

ومما يحسن أن ينبته إليه الأستاذ الرافعي ، في رفق ولين أيضاً ، أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا ، وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها ، فهو يخطيء في الحكم على أوروبا وأمريكا ، وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ، ومن الرقاعة مذهباً ، ومن تسفل الشهوات مذهباً ، ومن الجنون مذهباً ، ومن كل شذوذ مذهباً ، ومن غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف في ذلك ، فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ، ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد ، لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ، ليس شيئاً جديداً ، وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ، ومنذ

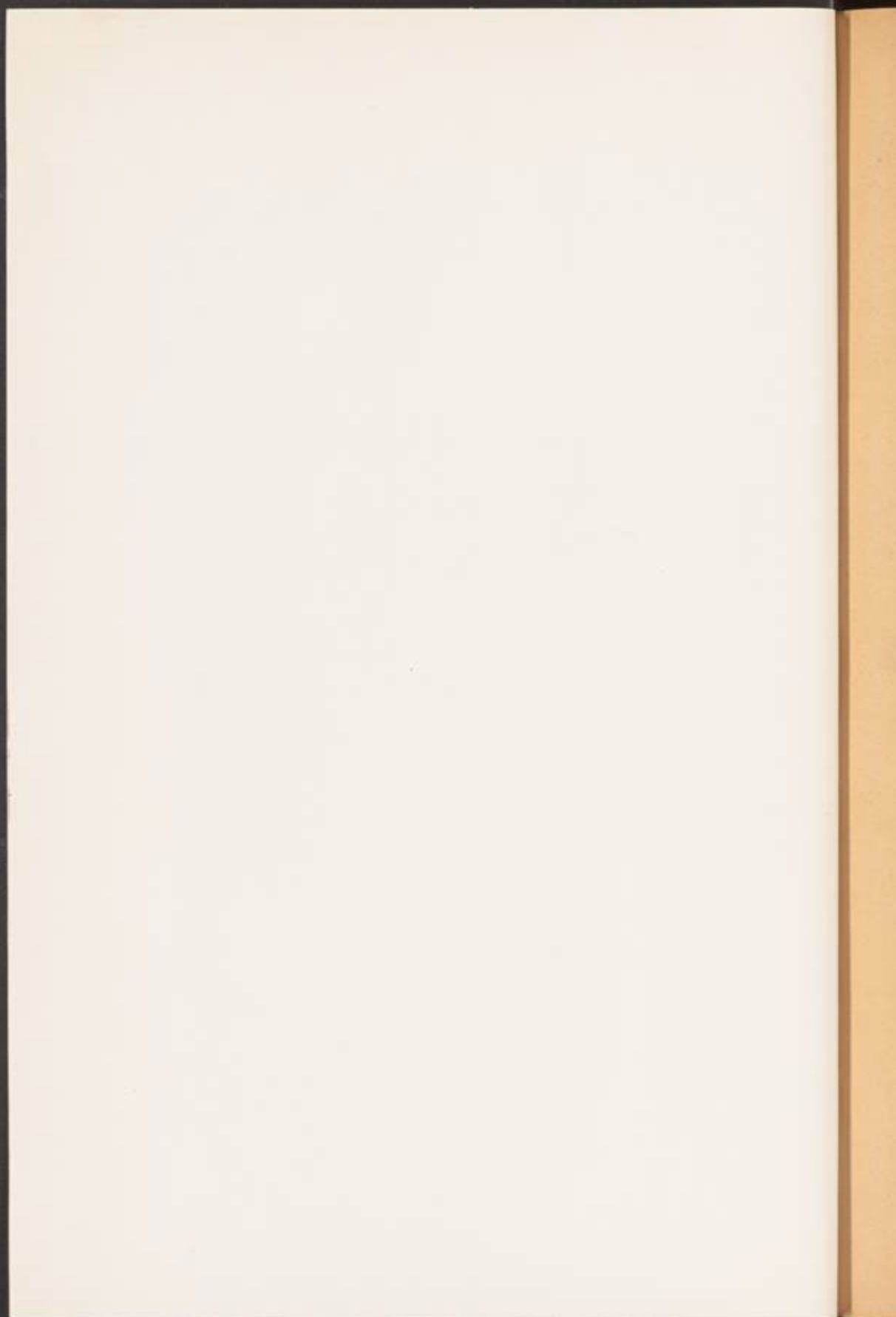
فكر . ويسوءنا أن نقول : إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ، ومنذ فكر أيضاً ، فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ، ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات ، وإنما الإنسان إنسان ، فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها ، وفيه التحرُّج الشديد .

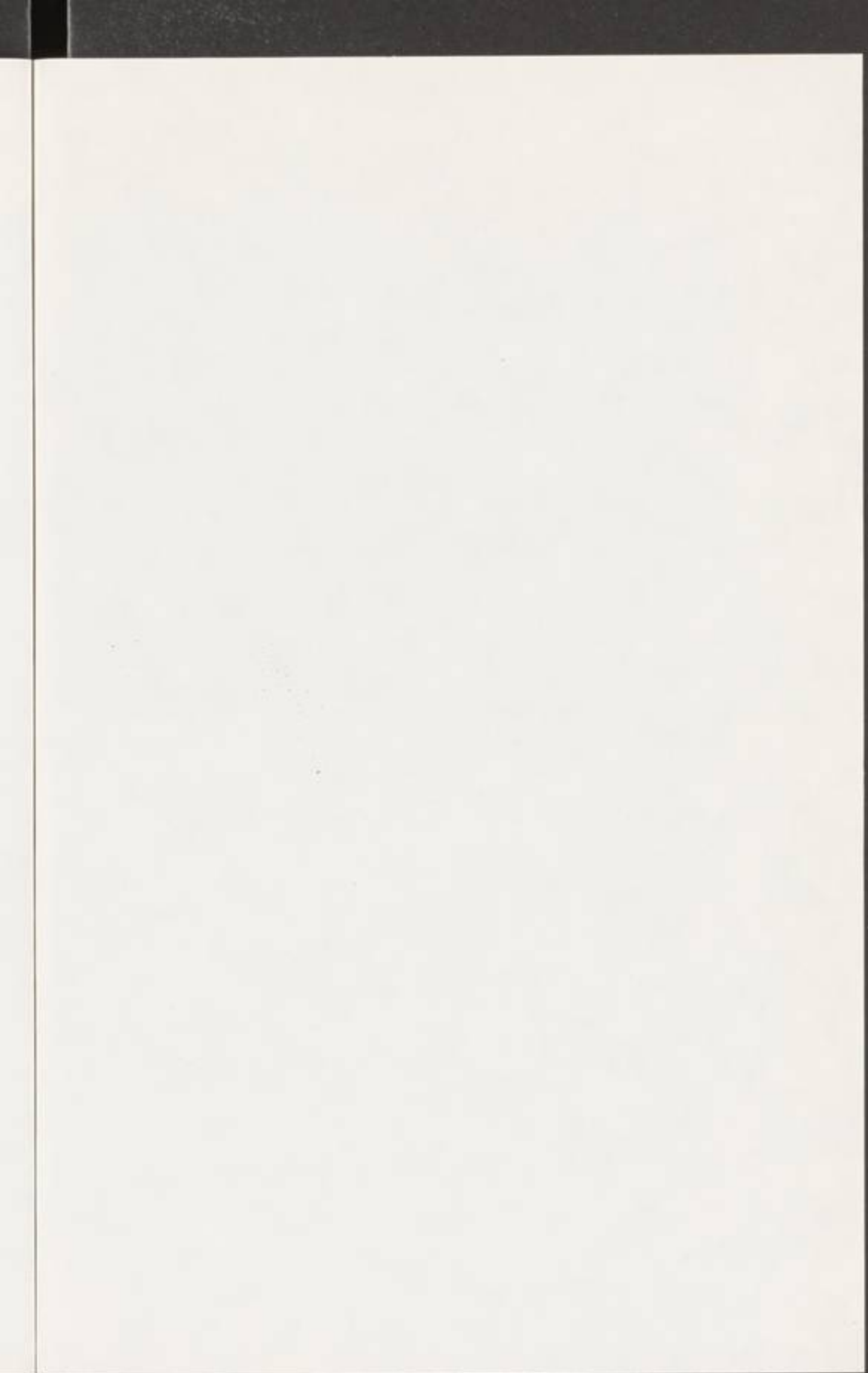
والأستاذ الرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم ، مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام ، أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما منه ضيم ، ونظن من السُّخْف والإطالة التي لا تجدى ، أن نهون على الأستاذ ونهدى من روعه ، فليس ما يدعو إلى الإشفاق . ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد ، المتشددين في نصره ، نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه ، كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه . ذلك أن مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة ، ولا يصرف الناس عنها ، ولا يغير من أصولها وقواعدها ، وإنما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور . ومن ذكر التطور وآمن به ، فهو من أنصار المذهب الجديد ، رضى بذلك أو أنكره .

فهرست الموضوعات

صفحة		صفحة	
٨٣	الخمير عنده أبي نواس	٣	القدماء والمحدثون :
٩٣	الخمير عنده أبي نواس		الجهاد بين القديم والجديد
١٠٣	الغزل في شعر أبي نواس	١٤	القدماء والمحدثون :
١٠٩	الغزل عنده أبي نواس		الشعراء في العصر الأموي
١١٨	جد أبي نواس	٢٠	القدماء والمحدثون :
١٢٨	خاتمة القول في أبي نواس		الشعر في العصر العباسي
١٣٩	الوليد بن يزيد	٢٧	القدماء والمحدثون :
١٤٨	مطيع بن إياس		الأنندية الأدبية
١٦٠	حماد عجرد	٣٤	القدماء والمحدثون :
١٧٣	الحسين بن الضحاك		الأنندية الأدبية
١٨٨	بشار بن برد	٤١	القدماء والمحدثون :
١٩٧	شعر بشار		أبو نواس
٢١٢	والبة بن الحباب - أبان	٥١	القدماء والمحدثون :
	ابن عبد الحميد		تمثيل أبي نواس لعصره
٢٢٦	مروان بن أبي حفصة -	٥٨	إلى الأستاذ طه حسين
	السيد الحميري	٦٣	رد على نقده
٢٣٩	السيد الحميري		كيف نفهم التاريخ
	علويون ، وعباسيون	٧١	الخمير قبل أبي نواس
٢٥١	القديم والجديد		

Journal











**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

University

Bookkeeper

Deacidification for Libraries and Archives

August 2009

